جامع السعادات

تأليف العلامة النراقي

الجزء الثالث

الغرور
ذم الغرور
طوائف المغرورين، وهم سبعة
الكفار
العصاة والفساق من المؤمنين
أهل العلم
الوعاظ
أهل العبادة والعمل
المتصوفة
الأغنياء وأرباب الأموال
ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد
طول الأمل
علاج طول الأمل
قصر الأمل
اختلاف الناس في طول الأمل
ذكر الموت مقصر للأمل
العجب ممن ينسى الموت
الموت أعظم الدواهي
مراتب الناس في ذكر الموت
المبادرات إلى الحسنات
العصيان
الوقاحة
الإصرار على المعصية
التوبة وتعريفها
هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟
وجوب التوبة
تحقيق في وجوب التوبة
عموم وجوب التوبة
الكراهة
الشوق
تعلق الحب بجميع القوى
أقسام الحب بحسب مباديه
لا محبوب حقيقة إلا الله
الشهود التام هو نهاية درجات العشق
سريان الحب في الموجودات
رد المنكرين لحب الله
معرفة الله اقوى سائر اللذات
تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه
الطريق إلى الرؤية واللقاء
تفاوت المؤمنين في محبة الله
الواجبات أظهر الموجودات
علائم محبة الله
معنى حب الله لعبده
الحب في الله والبغض في الله
الوفاء في الحب
الأنس بالله
الأنس قد يثمر الادلال
العزلة
السخط
الرضا
فضيلة الرضا
رضا الله
رد إنكار تحقق الرضا
هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا
طريق تحصيل الرضا
أقسام الصبر
فضيلة الصبر
الصبر على السراء
اختلاف مراتب الصبر في الثواب
طريق تحصيل الصبر
تتميم
التلازم بين الصبر والشكر
القانون الكلي في معرفة الفضائل
تفضيل الصبر على الشكر
الفسق
الطهارة
حقيقة الطهارة
ما ينبغي للمؤمن في الطهارة
إزالة الأوساخ
آداب الحمام
السر في إزالة الأوساخ
الصلاة
حقيقة الصلاة
حضور القلب
دفع إشكال
شرائط الصلاة
طريق تحصيل المعاني الباطنة
أسرار الصلاة
الوقت
آداب الصلاة
آداب المصلي
الاستقبال
القيام
التكبيرات
النية

تذنيب
لابد من العمل بعد التوبة
فضيلة التوبة
قبول التوبة
طرق التوبة عن المعاصي
تكفير الصغائر ومعنى الكبائر
الصغائر قد تكون كبائر
شروط كمال التوبة
هل يصح التبعيض في التوبة
أقسام التائبين
مراتب التوبة
عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة
علاج الإصرار على الذنوب
الإنابة
المحاسبة والمراقبة
المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة
حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا
مقامات مرابطة العقل للنفس وهي اربع مقامات
المشارطة
المراقبة
المحاسبة
معاتبة النفس
الغفلة
الغفلة موجبة للحرمان
ضد الغفلة النية
تأثير النية على الأعمال
النية روح الأعمال والجزاء بحسبها
عبادة الأحرار والأجراء والعبيد
نية المؤمن خير من العمل
النية غير اختيارية
الطريق في تخليص النية

التسليم
الحزن
عدم الاعتماد
التوكل
فضيلة التوكل
درجات التوكل
السعي لا ينافي التوكل
الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل
إعقل وتوكل
درجات الناس في التوكل
تفنيد زعم
طريق تحصيل التوكل
الكفران
الشكر
الشكر نعمة يجب شكرها
المدار لتمييز محاب الله عن مكارهه
أقسام النعم واللذات
تنبيه
الأكل
لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل
عجائب المأكولات
حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب
تسخير الله التجار لجلب الطعام
نعم الله في خلق الملائكة للإنسان
الأسباب الصارفة للشكر
طريق تحصيل الشكر
الصحة خير من السقم
الجزع
الصبر
مراتب الصبر

تكبيرة الاحرام
دعاء الاستفتاح
الاستعاذة
الركوع
السجود
التشهد
التسليم
إفاضة الأنوار على المصلي
ما ينبغي في إمام الجماعة
ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين
ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات
فضيلة الأذكار
الدعاء
تلاوة القرآن
الصوم
ما ينبغي للصائم
ما ينبغي للصائم عند الإفطار
درجات الصوم
الحج
الغرض من إيجاد الإنسان
ما ينبغي في الحاج
الميقات
ما ينبغي في الميقات
ما ينبغي عند دخول مكة
ما ينبغي عند الطواف
ما ينبغي عند استلام الحجر
السعي
ما ينبغي عند الوقوف بعرفات
المشعر
ما ينبغي عند الرمي والذبح
ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة

		ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء

الغرور
ذم الغرور
طوائف المغرورين، وهم سبعة
الكفار
العصاة والفساق من المؤمنين
أهل العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية المقام الرابع

ومنها[1]:

الغرور

معنى الغرور ـ ذمه طوائف المغرورين! المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين ـ المغترون من أهل العلم وفرقهم ـ المغترون من الوعاظ كثيرون ـ المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة ـ المغترون من المتصوفة اكثر ـ المغترون من الأغنياء اكثر من سائر الطوائف ـ ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد.

وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد انه على خير اما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور. ولما كان اكثر الناس ظانين بانفسهم خيرا، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والافعال وخيريته، مع انهم مخطئون فيه، فهم مغرورون. مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها، يظن ان هذا خير له وسعادة، مع انه محض الغرور، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيرا، وكذا

---

[1] أي من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو بجميعها: وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية. وهذه الرذيلة هي الرذيلة " الواحدة والعشرون " منها.

الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته، يظن انه في طاعة الله، مع انه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته.

ثم لا ريب في ان سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل الطبع إليه عن شبهة ومخيلة، مركب من امرين: (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع، (وثانيهما) حبها وطلبها باطنا لمقتضيات الشهوة أو الغضب. فان الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقدا انه يجلب به الثواب، تكون له رغبة إلى الجاه واعتقاد بكونه خيرا له، إذ الغني إذا امسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة، وواظب على العبادة معتقدا ان مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وان كان بخيلا، يكون له حب للمال واعتقاد بأنه على الخير. ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئا يوافق الهوى، فيكون من رذائل القوة العاقلة، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة. فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث، أو من رذائل العاقلة مع أحدهما.

فصل

(ذم الغرور)

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وام كل شقاوة، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله ـ سبحانه ـ :

" فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور "٢[2]. وقال عز وجل " ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور "٣[3].

---

٢ [2] لقمان، الآية: ٣٣. فاطر، الآية: ٥.

٣ [3] الحديد، الآية : ١٤.

وقال رسول الله (ص): " حبذا نوم الاكياس وفطرهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من ملء الأرض من المغترين ".

وقال الصادق (ع): " المغرور في الدنيا مسكين، وفي الآخرة مغبون، لانه باع الافضل بالادنى، ولا تعجب من نفسك، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك ان لعلك تبقى. وربما اغتررت بطول عمرك واولادك واصحابك لعلك تنجو بهم. وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك، فظننت انك صادق ومصيب. وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك. وربما اقمت نفسك على العبادة متكلفا والله يريد الاخلاص. وربما افتخرت بعلمك ونسبك، وانت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى. وربما توهمت انك تدعو الله وانت تدعو سواه. وربما حسبت انك ناصح لخلق وانت تريدهم لنفسك ان يميلوا إليك. وربما ذممت نفسك وانت تمدحها على الحقيقة "٤[4].

فصل

(طوائف المغرورين)

اعلم ان فرق المغترين كثيرة، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على امر، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين. إلا ان بعض الطوائف كلهم مغترون، كالكفار والعصاة والفساق، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور، وان كان معظم كل طائفة ارباب الغرور. ونحن نشير إلى مجاري الغرور، وإلى غرور كل طائفة ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه ان يأخذ منها حذره، ويبنى على الجزم والبصيرة أمره. فنقول:

الطائفة الأولى

٤ [4] صححناه على مصباح الشريعة: الباب ٣٦.

(الكفار)

وهم المغرورون بأسرهم، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا، وبين من غره الشيطان بالله.

واما الذين غرتهم الحياة الدنيا، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم:

(اولهما) ان الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد خير من النسيئة. (وثانيهما) ان لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها، واليقيني خير من المشكوك، فلا يترك به. وهذه اقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس، حيث قال:

" أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين "٥[5].

وعلاج هذا الغرور ـ بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي (ص)، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والادلة ـ اما ان يتبع مقتضى ايمانه ويصدق الله تعالى في قوله:

" ما عندكم ينفد وما عند الله باق "٦[6]. وفي قوله تعالى: " والآخرة خير وأبقى "٧[7]. قوله: " وما عند الله خير وأبقى "٨[8]. وقوله: " وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور "٩[9]. وقوله تعالى: " ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور "١٠[10].

---

٥ [5] الأعراف، الآية: ١١، ص، الآية: ٧٦.

٦ [6] النحل، الآية: ٩٦.

٧ [7] الاعلى، الآية: ١٧.

٨ [8] القصص الآية: ٦٠. الشورى، الآية: ٣٦.

٩ [9] آل عمران، الآية: ١٨٥.. الحديد، الآية: ٢٠.

واما ان يعرف بالبرهان فساد القياسين، حتى يزول عن نفسه ما تأديا إليه من الغرور.

وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول): ان يتأمل في ان كون الدنيا نقد والآخرة نسيئة صحيح، إلا ان كون نقد خيرا من النسيئة غير صحيح، بل هو محل التلبيس، إذ المسلم خيرية النقد على النسيئة ان كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء، واما ان كان اقل منها في ذلك وادون، فالنسيئة خير، إلا ترى ان هذا المغرور إذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفا من الم المرض في الاستقبال ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهمين نسيئة، ويتعب في الاسفار ويركب البحار في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة. وقس عليه جميع أعمال الناس وصنائعهم في الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فانهم يبذلون فيها المال نقدا ليصلوا إلى اكثر منه نسيئة، فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال، فأنسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحيثيات، فان من عرف حقيقة الدنيا والآخرة، يعلم انه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة إلى الآخرة، على ان لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات.

واما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصليه: هو ان يعرف ان كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ، وان كل يقيني خير من المشكوك غلط: (اما الأول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة. وليقينهم مدركان:

ـ أحدهما ـ ما يدركه عموم الخلق، وهو اتفاق عظماء الناس من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء، فان ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل، كما ان المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا اتفق جميع ارباب الصناعة على ان دواءه كذا، فانه تطمئن نفسه إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين، بل يثق بقولهم ويعمل به، وان كذبهم صبي أو معتوه أو سوادي، ولا ريب في ان المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين

---

١٠ [10] لقمان، الآية: ٣٣. فاطر، الآية: ٥.

بالنظر إلى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الأنبياء والأولياء ادون حالا واقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادي بالنظر إلى اطباء بلد أو مملكة.

ـ وثانيهما ـ مالا يدركه إلا الأنبياء والأولياء، وهو الوحي والالهام، فالوحي للأنبياء والالهام والكشف للاولياء فانه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما هي عليها، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد انت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد، ولا تظنن ان معرفة النبي (ص) لأمر الآخرة ولامور الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه، كما ان معرفتك لها تقليد للنبي، هيهات! فان الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت، وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين، وان اكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه.

واما المغرورون بالله، وهم الذين يقدرون في انفسهم ويقولون بألسنتهم، ان كان لله معاد فنحن فيه اوفر حظا واسعد حالا من غيرنا، كما اخبر الله ـ سبحانه ـ عن قول الرجلين المتحاورين، إذ قال:

" وما أظن الساعة قائمةً ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً "١١[11].

وباعث ذلك: ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال الله ـ تعالى ـ:ـ

" ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير "١٢[12].

---

١١ [11] الكهف، الآية: ٣٧.

١٢ [12] المجادلة، الآية: ٨.

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء محتاجون، فيقولون؛ لو احبهم الله لاحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما احسن الينا فيها، فلما لم يحسن إليهم في الدنيا واحسن الينا فيها فيكون محبا لنا ولا يكون محبا لهم، فيكون الأمر في الآخرة كذلك، كما قال الشاعر:

كما احسن الله فيما مضى   كذلك يحسن فيما بقي

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة، فان من ظن ان النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد اغتر بالله، إذ ظن أنه كريم عند الله، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند اولى البصائر على الهوان والخذلان، لأن نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله، وان الله يحمي أحباءه في الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الاطعمة. ومثل معاملة الله ـ سبحانه ـ مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوي الدنيا عن الأول ويصب نعمها ولذاتها على الثاني، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الاخر، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه، ليعلمه الادب ويمنعه من لذائذ الاطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الادوية البشعة التي تنفعه، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب وياكل كل ما يشتهي، فلو ظن هذا العبد المهمل انه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته، وان الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته، كان مغرورا احمق، وقد كان الخائفون من ذوي البصائر إذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا اقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبا بشعار الصحالين! واما المغرورون فعلى خلاف ذلك، لظنهم ان اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وان ادبارها عنهم هوان لهم، كما اخبر الله ـ تعالى ـ عنه بقوله:

" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه رب فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن "١٣[13].

---

١٣ [13] الفجر، الآية: ١٥ ــ ١٦.

وعلاج هذا الغرور: ان يعرف ان اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والإحسان، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب إلى الله ـ سبحانه ـ والطريق إلى هذه المعرفة، اما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الاتقياء، أو التدبر في الآيات والأخبار. قال الله ـ سبحانه ـ

" أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنينٍ، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون "١٤[14]. وقال سبحانه: " سنستدرجهم من حيث لا يعلمون "١٥[15]. وقال ـ تعالى ـ: " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما اتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون "١٦[16]. وقال ـ تعالى ـ: " انما نملي لهم ليزدادوا اثماً "١٧[17].

إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.

ومنشأ هذا الغرور: الجهل بالله وبصفاته، فان من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة، كيف احسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال:

" فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون "١٨[18]. وقال: " ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين "١٩[19].

---

١٤ [14] المؤمنون، الآية: ٥٦ ــ ٥٧.

١٥ [15] الأعراف، الآية: ١٨١.

١٦ [16] الانعام، الآية: ٤٤.

١٧ [17] آل عمران، الآية: ١٧٨.

١٨ [18] الأعراف، الآية: ٩٩.

الطائفة الثانية

(العصاة والفساق من المؤمنين)

وسبب غرورهم وغفلتهم اما بعض بواعث غرور الكافرين ـ كما تقدم ـ أو ظنهم ان الله ـ تعالى ـ كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة، واين معاصي العباد في جنب بحار رحمته، ويقولون: انا موحدون ومؤمنون، فكيف يعذبنا مع التوحيد والإيمان ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء ـ كما تقدم ـ. وربما اغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف والورع. وعلاج هذا الغرور. أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا، بل هو تمن مذموم، كما قال رسول الله (ص): " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله ". فان الرجاء لا ينفك عن العمل، إذ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه، وكما ان الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو لم ينكح، أو نكح ولم يجامع، أو جامع ولم ينزل، فهو مغرور احمق، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يترك المعاصي، أو تركها ولم يعمل صالحا، فهو مغرور جاهل، كيف وقد قال الله ـ سبحانه ـ:

" إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله "٢٠[20].

يعني ان الرجاء يليق بهم دون غيرهم، وذلك لأن ثواب الآخرة اجر وجزاء على الأعمال، كما قال ـ تعالى ـ:

---

١٩ [19] آل عمران، الآية: ٥٤.

٢٠ [20] البقرة، الآية: ٢١٨.

" جزاءً بما كنوا يعملون "٢١[21].وقال: " وانما توفون اجوركم يوم القيامة "٢٢[22].

وقال: " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى "٢٣[23]. وقال: " كل نفسٍ بما كسبت رهينة "٢٤[24].

أفترى أن من استؤجر على اصلاح اوان وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريماً يفي بوعده وشرطه، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه، فجاء الاجير وكسر الأواني وافسدها جميعا، ثم جلس ينتظر الاجر زعما منه أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره راجيا أو مغروراً متمنيا؟ وبالجملة: سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق.

ثم ان المغرور بعلو ربته آبائه، ظانا ان الله تعالى يحب آباءه، ومن أحب إنسانا أحب أولاده، أشد حمقا من المغرور بالله، لأن الله ـ سبحانه ـ يحب المطيع ويبغض العاصين من غير ملاحظة لإبائهما، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، وليس يمكن أن يسري من الأب إلى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى، إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، فمن زعم انه ينجو بتقوى ابيه كان كمن زعم انه يشبع بأكل ابيه، أو يصير عالما بتعلم ابيه، أو يصل إلى الكعبة بمشي ابيه، فهيهات هيهات! ان التقوى فرض عين على كل أحد، فلا يجزي والد عن ولده شيئاً،

---

٢١ [21] السجدة، الآية: ١٧. الأحقاف، الآية: ١٤. الواقعة، الآية: ٢٤.

٢٢ [22] آل عمران، الآية: ١٨٥.

٢٣ [23] النجم، الآية: ٣٩ ــ ٤٠.

٢٤ [24] المدثر، الآية: ٣٨.

وعند الجزاء يسفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ولا ينفع أحد أحدا إلا على سبيل الشفاعة، بعد تحقق شرائطها.

ثم العصاة المغرورون، اما ليست لهم طاعات، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل ـ كما مر ـ، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم اكثر، وهم عالمون بأكثرية المعاصي، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم وهو أيضاً غاية الجهل، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفا أو ألفين، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن ان طاعاته اكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها وأعتد بها، كالذي يحج طول عمره حجه ويبني مسجدا، ثم لا يكون شيء من عباداته على النحو المطلوب، ولا يجتنب من أخذ أموال المسلمين، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره، ويقول: كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجدا؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذين لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، فهو يتأمل دائما في فضيلة التسبيحات، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفحاشين، ولو كان كتبة أعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته، لكان عند ذلك يسعى في كف لسانه عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه اجرة نسخ الزائد. فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا ان يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين!

الطائفة الثالثة

أهل العلم

والمغترون منهم فرق:

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة، ليتفاخر في اندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال، من غير ان يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد، بل يختار تارة ذلك وتارة هذا، وتكون عقيدته كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا وتارة هكذا، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس واعلمهم بالله وبصفاته.

و(ومنهم) من أقتصر من العلم على علم النحو واللغة، أو الشعر أو المنطق، واغتر به واغنى عمره فيها، وزعم ان علم الشريعة والحكمة موقوف عليها، ولم يعلم أن ما ليس مطلوباً لذاته ويكون وسيلة إلى ما هو مقصود لذاته يجب ان يقتصر عليه بقدر الضرورة، والتعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها. وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته.

و(منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس، واشتغل باجراء الاحكام، وأعرض عن علم العقائد والأخلاق، بل عن فن العبادات من الفقه، واهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات.

و(منهم) من حصل فن العبادات أيضا، بل احكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل، ولكن ترك العلم الالهي وعلم الأخلاق ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي ولم يعمرها بالطاعات.

و(منهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية وتعمق فيها واشتغل بها إلا أنه أهمل العمل رأساً، أو واظب على الطاعات الظاهرة وأهمل صفات القلب، وربما تفقد صفات القلب وأخلاق النفس أيضاً وجاهد نفسه في التبري عنها، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها.

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون، إذا كان اعتقادهم انهم على خير وسعادة، وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة، إذ سعادة النفس وخلاصها عن العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله ـ تعالى ـ ومعرفة صفاته وافعاله واحوال النشأة الآخرة، والعلم برذائل الأخلاق وشرائفها، ثم تهذيب الباطن بفضائل الأخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والأعمال، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم، أعني معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله ـ وظن انه على خير كان مغروراً، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوبا على الله، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة، كما ان من احكم العلوم بأسرها وترك العمل، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه، فانه لا ريب في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه، بل لو كتبت منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئاً، حتى يشترى هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه اصلا، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها، واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، واحكم علم الأخلاق ولم يزك نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها، فهو في غاية الغرور. إذ قال الله تعالى:

" قد أفلح من زكاها "٢٥[25].

ولم يقل: قد أفلح من علم طريق تزكيتها.

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور، أدى بهم إلى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها، وإنما يبتلي بها العوام دون من بلغ

---

٢٥ [25] الشمس، الآية: ٩.

مبلغهم في العلم. ثم إذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال: ما هذا تكبراً، وإنما هو طلب اعزاز الدين وإظهار شرف العلم، وارغام انف المخالفين. ومهما ظهرت منه آثار الحسد، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد، بل يقول: إن هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، ورد عليه قوله، ومنع من منصبه، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن، بل ربما يفرح به، لو كان غضبه للحق لا لحسد على اقرانه وخبث باطنه، لاستوى غضبه في الحالين. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله. ولا يتأمل المغرور انه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان، بل يقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الاجر والثواب لي، ففرحي إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق، هذا ما يظن بنفسه، والله مطلع على سريرته، إذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه في الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار، لاحتال مع ذلك في اظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو امامة و غير ذلك. وإذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثني عليهم ويتواضع لهم، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام، قال له الشيطان: ان ذلك عند الطمع في مالهم، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل أحد، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين، يثقل ذلك عليه، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم المحرمة، وإذا خطر له أنها حرام، قال له الشيطان: هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به إمام المسلمين، وأنت إمامهم وعالمهم، وبك قوام دين الله، فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين، فيغتر بهذا التلبيس ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها في مصرف غيره. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى حيث انه إذا حضرت مائدتهم واكل طعامهم

وقيل له: ان هذا لا يليق بمثلك، قال: الأكل جائز بل واجب، إذ هذا مال لا يعلم مالكه، فيجب التصدق به على الفقراء، ويجب على مثلي بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وايصاله إلى اهله ـ أعني الفقراء ـ واكل منها نوع قدرة على استخلاصه، فآكل منه واتصدق بقيمته على الفقراء، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله، وانما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه، وربما كان بحيث لا يبالي من اخذ مالهم واكل طعامهم خفية، ولو علم انه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به، امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن مائلا إلى الدخول على السلاطين والامراء وتاركا له في الظاهر، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة. ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه. وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام، ومع ذلك لو أم غيره ممن هو اعلم واورع منه في مسجده، أو يتخلف بعض من يقتدى به عن الاقتداء به، قامت عليه القيامة، وربما لم يكن باعثه على الحركة إلى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة، أو مركباً منه ومن نية الثواب وربما اتخذ بعضهم الامامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش، ومع ذلك يظن انه مشتغل بأمر الخير، والظاهر في امثال زماننا ندور الإمام الذين كان قصده من الامامة مجرد التقرب إلى الله. من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب، أو تحصيل المال، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب ان تشد الرحال من المواضع البعيدة إليه ليقتدى به، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب إلى المسجد للامامة ذهب، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف، وصلى منفرداً. وهو الذي يستوي عنده اقتداء الناس به وعدمه، ويستوي عنده كثرة المقتدين وقلتهم، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفرداً، من دون أن يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين.

وبالجملة: أصناف غرور أهل العلم - (لا) سيما في هذه الاعصار - كثيرة، والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الافعال انتهى في بعضهم إلى أن وجودهم مضر بالاسلام والمسلمين وموتهم انفع للايمان والمؤمنين، لأنهم دجالوا الدين وقواموا مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال ابن مريم (ع): " العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص إلى الزرع ".

الوعاظ
أهل العبادة والعمل
المتصوفة
الأغنياء وأرباب الأموال
ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد
طول الأمل

الطائفة الرابعة

(الوعاظ)

والمغترون منهم كثيرون:

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرضا، والصبر، والشكر، ونظائرها، ويظن أنه إذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفاً بها، وهو منفك عنها في الواقع، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من اقرانه وصلحوا على يديه، وكان اقوى منه في الارشاد والاصلاح، لمات غماً وحسداً، ولو اثنى أحد المترددين عليه على بعض اقرانه، لصار أبغض خلق الله إليه.

و (منهم) من اشتغل بالشطح والطامات، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة، وتصنع التشبيهات والمقدمات، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها، طلباً للاعوان والانصار، وشوقاً إلى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات في مجلسه، والتذاذاً بتحريك الرؤوس على كلامه والبكاء عليه، وفرحاً بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الاقران، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار، ظناً منه أنه أوقع في النفوس وأشد تأثيراً في رقة العوام وتواجدهم. ولا ريب في أن هؤلاء شر الناس، بل شياطين الأنس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، إذ الاولون إن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن

سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله، لان سعيهم في ذكر ما يسر به العامة، ليصلوا به منهم إلى اغراضهم الفاسدة، فلا يزالون يذكرون ما يقوي الرجاء، ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، (لا) سيما إذا كان هذا الواعظ أيضاً ممن يرغب إلى الدنيا، ويسر بوصول المال إليه، ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة، وغيرهما من زينة الدنيا. فمثله ممن يضل ويكون افساده اكثر من اصلاحه، ومع ذلك يظن انه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين، فهو اشد المغرورين والغافلين.

و(منهم) من هذب اخلاقه، وراقب قلبه، وصفاه عن جميع الكدورات، وصغرت الدنيا في عينه، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله إلى نصحهم واستخلاصهم عن أمراض المعاصي بالوعظ، فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفياً ـ اخفى من دبيب النملة ـ لا يشعر به، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق: بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة والشمائل، واقبل الناس إليه يعظمونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك، إذ رأوه شافياً لامراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع، فآثروه بأبدانهم وأموالهم، وصاروا له كالخدم والعبيد، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه، وذاق لذة يالها من لذة وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به. وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه: أنه لو ظهر من اقرانه من مالت القلوب إلى قبوله، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه، شق ذلك عليه، إذ لولا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك.

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا إذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم إلى الله ـ تعالى ـ، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على ارشادهم أو اهتدائهم من عند أنفسهم، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حمدهم وذمهم، ولم يبال بذمهم إذا كان الله يمدحه، ولم يفرح بمدحهم إذا لم يقترن به مدح الله، ونظر إليهم كما ينظر إلى من هو أعلم منه وأورع، حيث لا ينكر عليه ويراه خيراً من نفسه، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله

بالخاتمة، وإلى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فانه لا يبالي كيف يراه البهائم، فلا يتزين لها، إذ راعى الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذب عنها، دون نظر الماشية إليه بعين المدح والثناء.

ثم لو ترقى الواعظ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان، واشتغل بنفسه وترك النصح، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: " يا ابن آدم! إذا ظننت أنك بعملك تخلص مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي ". ثم لو دفع عن نفسه العجب، وعلم أن ذلك من الله ـ تعالى ـ لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله، وانه ضعيف عاجز لا يقدر على شيء أصلا، فضلا عن دفع الشيطان، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل. ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها، ان يرى ذلك كله من فضل الله، وكان خائفاً على نفسه من سلب حاله في كل لحظة، وغير آمن من مكر الله، وغير غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع ـ وكان قد بقى له نفس ـ قال: (أفلت مني يا فلان!؟)، فقال: (لا! بعد).

فصل

(أهل العبادة والعمل)

والمغرورون منهم فرق كثيرة:

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء، فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة، وإذا آل الأمر إلى الاكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيدا لحله، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الأولياء. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب احدى يديه

على وجهه أو يده الأخرى، ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل ان كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعاً فهو تضييع للعمر الذي هو اعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، وان كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء إلى البشرة، فما باله يتيقن بوصول الماء إلى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط مع أن حصول القطع بايصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب. ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء، زاعماً أن هذا يكفي لنجاته، فهو مغرور في غاية الغرور.

و (منهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها، فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته، ولا يحضر قلبه، ويغتر بذلك، ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير. وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة، واخرج حروف الفاتحة وسائر الأذكار عن مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة، من غير اهتمام فيما عدا ذلك، من حضور القلب والتفكير في معاني الاذكار، ظناً منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة، وهذا اقبح أنواع الغرور.

و (منهم) من اغتر بالصوم، وربما صام الأيام الشريفة، بل صام الدهر، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا بطنه عن الحرام عند الافطار، ثم يظن بنفسه الخير، وذلك في غاية الغرور.

و (منهم) من اغتر بالحج، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال، ويضيع في الطريق الصلاة، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات، ومع ذلك يظن انه على خير، فهو في غاية الغرور.

و (منهم) من اغتر بقراءة القرآن، فيهذ هذاً، وربما يختم في اليوم والليلة مرة، فيجري به لسانه، وقلبه مردد في اودية الأماني، وربما اسرع في القراءة غاية السرعة، ويظن ان سرعة اللسان من الكمالات، ويتفاخر على الأمثال والأقران.

و (منهم) من اغتر ببعض النوافل، كصلاة الليل، أو مجرد غسل الجمعة، أو أمثال ذلك، من غير اعتداد بالفرائض، زاعماً أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة، فهو أيضاً من المغرورين.

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن، ظانا أنه ادرك رتبة الزهاد، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد، فهو ترك أهون المهلكين باعظمها، إذ حب الجاه اشد فسادا من حب المال، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان اقرب إلى السلامة، فهو مغرور، إذ ظن أنه من الزهاد، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة، وهو يحبها، فكيف يكون زاهداً؟

الطائفة السادسة

(المتصوفة)

والمغترون فيهم اكثر من ان يحصى:

(فمنهم) ارباب البوقات، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسيم الدين، وصرفوا اوقاتهم في التكدي والسؤال من الناس، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة، مع انهم لو ظفروا بشيء من أمور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم، فهؤلاء ارذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى.

و (منهم) من اغتر بالزي، والمنطق، ولبس الصوف، واطراق الرأس وادخاله في الجيب، وخفض الصوت، وتنفس الصعداء، وتحريك البدن في الطول والعرض، والسقوط إلى الأرض، (لا) سيما إذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما. وربما تجاوز بعضهم من ذلك إلى الرقص والتصفيق، وابداء الشهيق والنهيق، واختراع الاذكار، والتغني بالاشعار... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل إلى الدرجات العالية، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه.

و (منهم) من وقع في الاباحة، وطوى بساط الشرع والاحكام، وترك الفصل بين الحلال والحرام، يتكالب على الحرام والشبهات، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين. وربما قال: المال مال الله

والخلق عيال الله، وفهم فيه سواء. وربما قال: ان الله مستغن عن عملي، فأي حاجة إلى أن أتعب نفسي فيه؟ وربما قال: لا وزن لأعمال الجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة إلى حب الله واصلة إلى معرفة الله. وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية، وقالوا إنها لا تصدنا عن طريق الله، لقوة نفوسنا وقوة اقدامنا فيها، وانما يحتاج العوام إلى تهذيب النفس بالأعمال البدنية، ونحن مستغنون عنه. فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الأنبياء (ع) إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الأمور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصي يصدهم عن طريق الله، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح، فهم أشد الناس غروراً، وأعظم الخلق حماقة وجهلا.

و (منهم) من يدعي غاية المعرفة واليقين، والوصول إلى درجات المقربين، ومشاهدة المعبود، ومجاورة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، وتلقف من الطامات كلمات يرددها، ويظن أنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء. وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء بعين الحقارة والازدراء، يقول في العباد: إنهم أجراء مبعوثون، وفي العلماء: انهم بالحديث عن الله لمحجوبون، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي ولا ولي، ويدعي كونه واصلا إلى الحق فارغاً عن أعباء التكليف، لاعلماً أحكم ولاعملا هذب، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيثة. فهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، مع ظنه أنه من المقربين، فهو أشد الغافلين المغرورين.

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الافعال الموجبة للبعد عن طريق المروة. ظناً منهم أن هذا موجب لكسر النفس وازالة ذمائم الأخلاق، ولم يعلموا ان هذه الافعال من الذمائم، وقد نهى صاحب الشرع عنه.

و (منهم) اشتغل بالرياضة والمجاهدة، وقطع بعض المنازل، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات، اما لاعتراض مفسد في اثناء السلوك، أو لوقوعه في الاثناء ظناً منه انه وصل إلى الله ولم يصل بعد، فان لله سبعين حجاباً من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن انه قد وصل، واليه الإشارة في حكاية الخليل، حيث رأى أول كوكباً فقال: "هذا ربي "، ثم انتقل إلى القمر، ثم عنه إلى

الشمس، فانه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الاجسام المضيئة، فان شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة، بل هذا ينافي شأنه ورتبته، فالمراد بها الأنوار التي هي من حجب الله، ويراها السالك في الطريق، ولا يتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض، فاستعير لفظ الكواكب لصغره لاقل مراتبها، والقمر لا وسطها، والشمس لاعظم مراتبها، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل، ثم انكشف له أن وراءه امر، فيترقى إليه حتى وصل إلى الحجاب الاقرب، فقال: هذا اكبر، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال، قال:

" لا أحب الآفلين. إني وجهت وجهي... "١[1].

فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب، وربما يغتر بالحجاب الأول، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه، فانه ـ أيضاً ـ أمر رباني ونور من أنوار الله. تتجلى فيه حقيقة الحق كله، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك ويشرق نوره اشرافاً عظيماً، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول الأمر كان محجوبا، فإذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد إشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما يسبق لسانه في هذه الدهشة، فيقول: انا الحق! فان لم يتضح له ما وراء ذلك،اغتر به، ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعد إلى القمر، فضلا عن الشمس، فهو مغرور. وهذا محل الالتباس، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه، كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج، كما قيل:

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها وتشاكل الأمر

---

١ [1] الانعام، الآية: ٧٦و٧٩.

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولاخمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح، فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه، فغلطوا فيه، كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء، فيمد اليد إليه، فهو مغرور. وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة.

ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين ـ مع كذبهم فيما يدعونه، ونقصانهم في طريق السلوك، وجهلهم بحقيقة الأمر، وعدم قطعهم جل المقامات ـ يشتبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيئتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون إلى مراتبهم، فهيهات هيهات! إن الوصول إلى درجة كل أحد إنما تحصل بالاتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق باخلاقه النفيسة، دون التشبه به في حالاته الظاهرة، وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن تكون مثلهم، فلبست درعاً، ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً، وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إليه، أنفذت إلى ديوان العرض، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع، وينظر إلى حقيقتها، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها، فما جردت فإذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شيء فقيل لها: اجئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته؟ خذوها والقوها قدام الفيل، فداسها ونحتها. فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة، إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا إلى القاضي الحق الذي لا ينظر إلى الزي واللباس بل إلى سر القلب وصفاته.

الطائفة السابعة

(الأغنياء وارباب الأموال)

والمغترون فيهم اكثر من سائر الطوائف:

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالاموال المحرمة، وربما غصب ارض المساجد والمدارس، وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة، ولذا يسعى في كتابة أسمه على احجارها ليتخلد ذكره يبقى بعد الموت أثره، ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك، وأنه مخلص فيه، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي انفاقها، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله، وإذا عصى الله واخذها، كان الواجب عليه التوبة وردها إلى اهلها، فان لم يبق من اخذها منه ولا ورثته، كان الواجب ان يتصدق بها على المساكين، مع انه ربما كان في بلده أو في جواره مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما.

و(منهم) من ينفق الأموال في الصدقات، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف، ويكره التصدق في السر، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب ان يعطى أهل البلاد الآخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده، طلباً لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة، وربما يصرف كثيراً منه إلى رجل معروف في البلاد وان لم يكن مستحقاً، ليشتهر ذلك في البلاد، ولا يعطى قليلا منه إلى فقير له غاية الاستحقاق إذا كان خامل الذكر، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الاجر والثواب، ولم يدر المغرور أن هذا القصد احبط عمله واضاع ثوابه.

و(منهم) من يجمع مالا من غير حله، ولا يبالي بأخذ المال من أي طريق كان. ثم يمسكه غاية الإمساك، إلا انه لا يبالي بصرف بعضه في طريق الحج، إما لنفسه فقط، أو لأولاده وازواجه أيضا، اما للاشتهار، أو لما وصل إليه. ان تارك الحج يبتلى بالفقر.

و(منهم) من غلب عليه البخل، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة، ظناً منه ان ذلك يكفي لنجاته، ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها، وعلاجه: بذل المال دون العبادات البدنية. ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية، وقد اشرف على الهلاك، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفراء، وغافل بأن الحية تقتله الآن، ومن قتلته الحية فأي حاجة له إلى السكنجبين؟

فصل

(ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد)

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب، فضده الفطانة والعلم والزهد، فمن كان فطناً كيساً عارفاً بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا، وعالماً بكيفية سلوك الطريق إلى الله وبما يقربه إليه وبما يبعده عنه، وعالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله، ولا جتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الأمور، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً في هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، عرف كون هذه الشهوات مضرة له وان الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر إلى وجهه فلا يسكن نفسه إلى شهوات الدنيا، ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا ولذاتها، وإذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فان أكل ـ مثلا ـ أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الاغراض والنزوع إلى الدنيا وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه احب إليه من رضاء الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالاصل في علاج الغرور: ان يفرغ القلب من حب الدنيا. ويغلب عليه حب الله، حتى تتقوى به الارادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور. قال الصادق (ع): " واعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني إلا بصدق الانابة إلى الله، والأخبات له، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم، ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى، وان كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد اشقى بعملك منك واضيع عمراً، فورثت حسرة يوم القيامة "٢**[2]**.

(ومنها)

طول الأمل

---

٢ [2] صححناه على مصباح الشريعة ــ الباب ٣٦.

معنى طول الأمل ومرجعه ـ علاجه ـ ضده قصر الأمل ـ اختلاف الناس في طول الأمل ـ ذكر الموت مقصر للامل ـ التعجب ممن ينسى الموت ـ الموت اعظم الدواهي ـ مراتب الناس في ذكر الموت.

وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه إلى مدة متمادية، مع رغبته في جميع توابع البقاء: من المال والاهل والدار وغير ذلك، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة، إذ الاعتقاد المذكور راجع إلى الجهل المتعلق بالعاقلة، وحبه لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا. وجهله راجع إلى تعويله: إما على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولا يتفكر المسكين في ان مشايخ بلده لو عدوا لكانوا اقل من عشر عشير أهل البلد، وانما قلوا لأن الموت في الشباب اكثر، وإلى ان يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب، أو على صحته وقوته. ويستبعد مجيء الموت فجأة، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد، إذ كل مرض انما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً. ولو تفكر هذا الغافل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من شباب وشيب وكهولة، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع، وليل ونهار، وحضر وسفر، لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه، وعظم اشتغاله بالاستعداد له، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه. ويشيع الجنائز ولا يقدر ان تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، والفه بتكرر مشاهدة موت غيره. وأما موت نفسه، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه، لانه لم يقع، وإذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده، فهو الأول وهو الآخر!.

واما حبه لتوابع البقاء: من المال والدار والمراكب والضياع والعقار، فراجع إلى الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة، فيثقل على قلبه مفارقتها، فيمنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، إذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه. والإنسان لما كان مشغوفاً بالاماني الباطلة، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها، فتتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده، ومراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه، ويقدر توابع البقاء من أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه، فان خطر له في بعض الاحيان أمر

الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه إلى ان يكبر فيتوب. وإذا كبر اخر التوبة إلى ان يصير شيخاً، وإذا صار شيخاً يؤخرها إلى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له. ولا يزال يسوف ويؤخر إلى ان يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته، وقد ورد ان اكثر أهل النار صياحهم من سوف، يقولون واحزناه من سوف! والمسوف المسكين لا يدري ان الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً، إذ الخائض في الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط، إذ ما قضى من اخذ منها لبانته، وانما فرغ منها من اطرحها.

علاج طول الأمل
قصر الأمل
اختلاف الناس في طول الأمل
ذكر الموت مقصر للأمل
العجب ممن ينسى الموت
الموت أعظم الدواهي
مراتب الناس في ذكر الموت
المبادرات إلى الحسنات
العصيان
الوقاحة
الإصرار على المعصية

فصل

(علاج طول الأمل)

لما عرفت ان طول الأمل منشأه الجهل وحب الدنيا، فينبغي أن يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فان من تفكر يعلم ان الموت اقرب إليه من كل شيء، وانه لا بد ان تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه، ولعل اكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به. واما حب الدنيا فينبغي ان يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة، وما ورد في الأخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة إليها، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها، وقد تقدم ما يكفي لهذا البيان. وينبغي - أيضاً - ان يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل - اعني قصر الأمل كما يأتي - وما ورد في ذم طول الأمل، كقوله (ص): " أن اشد ما اخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق، واما طول الأمل فانه الحب للدنيا - ثم قال -: ان الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا احب عبداً أعطاه الإيمان، إلا ان للدين أبناء وللدنيا أبناء، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا. إلا ان الدنيا قد ارتحلت مولية، إلا ان الآخرة قد انت مقبلة، إلا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب، إلا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل

"[1]١" وقوله (ص): " نجا أول هذه الامة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل ".

وقول أمير المؤمنين (ع): " ما أطال عبد الأمل أساء الأمل ".

فصل

(قصل الأمل)

ضد طول الأمل قصره، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين، ولذا ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد، قال رسول الله (ص): " إذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فانك لا تدري ما سمك غداً ". وقال (ص) بعد ما سمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر: " ان اسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده! ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت اني واضعه حتى اقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت اني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت "، ثم قال: " يا بني آدم! إن كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده! أن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ". وروى: " انه (ص) قد اطلع ذات عشية إلى الناس، فقال: ايها الناس! اما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله! قال: تجمعون مالا تأكلون، وتأملون مالا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون ". وقال (ص): " اكلكم يحب ان يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسوله الله! قال: قصروا من الأمل، واجعلوا آجالكم بين ابصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء ". وكان (ص) يقول في دعائه: " اللهم إني اعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، واعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، واعوذ بك من امل يمنع خير العمل ". وكان (ص) يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة، ويقول لعلي لا ابلغه. وقال عيسى (ع): " لا تهتموا

---

١ [1] صححنا الحديث على إحياء العلوم: ٣٨٤/٤، وهو يرويه عن علي (ع) عن النبي (ص)، ولكن في كنز العمال: ١٦٩/٢، يرويه: انه من كلام علي (ع) نفسه، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء، وعبارة الكنز أبلغ وأرصن، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين)، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضاً (وهو أبلغ وأعلى من العبارتين)، مروي في نهج البلاغة: رقم٤١ من باب الخطب، فراجع.

برزق غد، فان لم يكن غداً من آجالكم فتأتي أرزاقكم مع آجالكم، وان لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم ".

فصل

(اختلاف الناس في طول الأمل)

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون: (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيه أبداً، كما قال الله ـ سبحانه ـ:

" يود أحدهم لو يعمر ألف سنةٍ "٢[2].

وهو الذي أنغمر في الدنيا وخاض في لذاتها، وليس له من الآخرة نصيب. (ومنهم) من يأمل البقاء إلى اقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً، ويشتغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة، وربما يجتهد جمع الازيد منه. (ومنهم) من يأمل اقل من ذلك إلى ان ينتهي إلى من لا يأمل ازيد من سنة، فلا يستغل بتدبير ما وراءها، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل، فان بلغه حمد الله على ذلك، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، وإذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة. (ومنهم) من يأمل أقل من السنة إلى ان ينتهي إلى من لا يأمل ازيد من يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده، (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه، كأنه واقع به وهو ينتظره، ومثله يصلي دائماً صلاة المودعين. وروي: " أن النبي (ص) سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه، قال: ما خطوت خطوة إلا ظننت اني لا اتبعها اخرى ". وكان بعضهم إذا يصلي يلتفت يميناً وشمالا، ولما قيل له: ما هذا الالتفات؟ قال: " انتظر ملك الموت من أي جهة يأتيني ".

ثم اكثر الخلق ـ (لا) سيما في امثال زماننا ـ قد غلبهم طول الأمل، بحيث لا يامل اقل من اقصى مدة السن، وقل فيهم من قصر امله، والعجب انه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل، وفي عصرنا اكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول املهم اكثر من الشبان، ومن هنا قال رسول الله (ص): "

---

٢ [2]البقرة، الآية: ٩٦.

يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل ". وقال (ص): " حب الشيخ شاب في طلب الدنيا، وان التقت ترقوتاه من الكبر، إلا الذين اتقوا، وقليل ما هم".

ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال: فمن اعتنى بجمع أسباب لا يحتاج إليها في سنة فهو طويل الأمل، وكذلك من انتشرت اموره، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة، كالسنة وازيد منها، وكان عليه ديون من الناس كذلك، ومع ذلك لم يكن مضطرباً ولا خائفاً فهو طويل الأمل. فعلامة قصر الأمل: أن يجمع أمره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على أربعين يوماً، ويصرف اوقاته في الطاعة والعبادة، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد.

فصل

(ذكر الموت مقصر للامل)

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود، ولذا ورد في فضيلته والترغيب فيه أخبار كثيرة، قال رسول الله (ص): " اكثروا ذكر هادم اللذات " قيل وما هو يا رسول الله؟! قال: " الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه ". وقال (ص): تحفة المؤمن الموت ". وقال (ص): " الموت كفارة لكل مسلم ". وقيل له (ص) أهل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: " نعم! من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة ". وقال (ص): " اكثروا من ذكر الموت، فانه يمحص الذنوب، ويزهد في الدنيا ". وقال (ص) " كفى بالموت واعظاً ". وقال (ص): الموت الموت، إلا ولا بد من الموت، جاء الموت بما فيه، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة إلى جنة عالية لاهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم ". وقال (ص): " إذا استحقت ولاية الله والسعادة، جاء الاجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر وإذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة، جاء الأمل بين العينين وذهب الاجل وراء الظهر ". وذكر عنده (ص) رجل، فاحسنوا الثناء عليه، فقال (ص): " كيف ذكر صاحبكم للموت؟ " قالوا. ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، قال: " فان صاحبكم ليس هنالك ". وسئل: أي المؤمنين أكيس واكرم؟ فقال: " اكثرهم ذكراً لموت، واشدهم استعداداً له، اولئك هم

الاكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة ". وقال الباقر (ع): " اكثروا ذكر الموت، فانه لم يكثر ذكره إنسان إلا زهد في الدنيا ". وقال الصادق (ع): " إذا انت حملت جنازة فكن كأنك انت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف ". ثم قال (ع): " عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم، ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون ". وقال (ع) ـ لأبي بصير ـ بعد ما شكى إليه الوسواس ـ: " اذكر يا ابا محمد تقطع أوصالك في قبرك، ورجوع احبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك، وخروج بنات الماء من منخريك، واكل الدود لحمك، فان ذلك يسلي عليك ما أنت فيه "، قال أبو بصير: فوالله! ما ذكرته إلا سلى عنى ما انا فيه من هم الدنيا. وقال (ع): " من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان ما جوراً كلما نظر إليه "٣[3]. وقال (ع): " ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوى القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر اعلام الهوى، ويطفي نار الحرص، ويحقر الدنيا، وهو معنى ما قال النبي (ص): (فكر ساعة خير من عبادة سنة). وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت، وقلة حيلته، وكثرة عجزه، وطول مقامه في القبر، وتحيره في القيامة: فلا خير فيه. وقال النبي (ص): (اكثروا ذكر هادم اللذات...) ثم ذكر تمام الحديث كما مر... ثم قال (ع): والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن اكرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن حسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بني آدم، وهو بعده أبعد، فما أجرأ الإنسان على نفسه، وما اضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبي (ص): (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) "٤[4].

فصل

---

٣ [3]صححنا اكثر الأحاديث على الوسائل ــ ج١:الباب ٢٣ من أبواب الاستحضار في كتاب الطهارة ــ، وعلى إحياء العلوم: ٢٨٣/٤.

٤ [4] صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٨٤.

(العجب ممن ينسى الموت)

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات في العالم، واسرع الأشياء إلى بني آدم، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

" أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيدةٍ "٥[5]. وقال ـ سبحانه ـ: " كل نفسٍ ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور "٦[6].

وقال الصادق (ع): " ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ما انزل الموت حق منزلته من عد غداً من اجله ". وقال (ع): " لو رأى العبد أجله وسرعته إليه، لأبغض العمل من الدنيا ". وقال الصادق (ع): " ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات ". وقد تقدمت أخبار اخر في هذا المعنى.

فصل

(الموت أعظم الدواهي)

اعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى، ومن كل داهية اشد وادهى، وهو من الاخطار العظيمة والأهوال الجسيمة، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته، وتشتد لأجله رزيته، ويرى نفسه في أصحاب القبور ويعدها من الاموات. إذ كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله، قال رسول الله (ص): " لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما

---

٥ [5] النساء، الآية: ٧٧.

٦ [6] آل عمران، الآية: ١٨٥.

اكلتم منها سميناً ". وقال (ص) لقوم يتحدثون ويضحكون: " اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ". ومر (ص) بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: " شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ". قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: " الموت ". ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها، فلا ينفع ذكره في قلبه، فالطريق فيه: أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه، كالذي يريد ان يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه، فانه لا يتفكر إلا فيه، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك، لأثر ذكره في قلبه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وتنزجر نفسه عنها، وينكسر قلبه، ويستعد لأجله.
وأوقع طريق فيه: أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، ونقلوا من انس العشرة إلى وحشة الوحدة. ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ويتذكر مصرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ثم يتفكر كيف محى التراب الان حسن صورتهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساؤهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت أثارهم واوحشت ديارهم، فمهما تذكر رجلا رجلا، وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمؤثثات الأسباب. وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا مالا يتفق احتياجه إليه على مر الاعوام والشهور وكر الازمنة والدهور. ثم يتأمل أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وسيصير حاله في القبر كحالهم، فملازمة هذه الافكار وامثالها، مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى، تجدد ذكر الموت في قلبه، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه، وعند ذلك ربما يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، واما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في التنبيه والايقاظ. ومهما طاب قلبه بشيء من أسباب الدنيا، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته.

كما نقل: أن بعض الأكابر نظر إلى داره فاعجبه حسنها، فبكى وقال: والله لو لا الموت لكنت بها مسروراً.

فصل

(مراتب الناس في ذكر الموت)

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها، وبين تائب مبتدئ، وعارف منتهى.

(فالاول): لا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره ليذمه لصده عما يحبه من الدنيا، وهو الذي يفر منه، وقال الله ـ تعالى ـ فيه:

" قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم..." الآية٧[٧].

وهذا يزيده ذكر الموت بعداً من الله، إلا إذا استفاد منه التجافي عن الدنيا، ويتنغص عليه نعيمه، ويتكدر صفو لذته، وحينئذ ينفعه، لأن كل ما يكدر على الإنسان اللذات فهو من أسباب نجاته.

(والثاني): يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل تحت قوله (ص): " من كره لقاء الله كره الله لقاءه "، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقائه. وعلامة هذا: أن يكون دائم الاستعداد للموت لا شغل له سواه، وإن لم يكن مسعداً له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول.

(واما الثالث): فانه يذكر الموت دائماً، لانه موعد للقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما روي: " أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة

---

٧ [7] الجمعة، الآية: ٨.

لا أفلح من رده، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم احب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة، فسهل علي الموت حتى ألقاك ". وأعلى رتبة منه: من يفوض أمره إلى الله، ولا يختار لنفسه شيئاً: من الموت أو الحياة، والفقر والغنى، والمرض والصحة، بل يكون أحب الأشياء إليه احبها إلى مولاه، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضا، وهو الغاية والانتهاء.

تتميم

(المبادرة إلى الحسنات)

من علامات قصر الأمل وذكر الموت: المبادرة إلى الحسنات واشتياق الخيرات، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير، قال رسول الله (ص): " اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك " وقال (ص): " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة "٨**[8]**.

وكان (ص) إذا احس من اصحابه غفلة وغره، نادى فيهم بصوت عال: " اتتكم المنية، إما بشقاوة أو بسعادة ". وروى: أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس! الرحيل الرحيل!.

وقال بعض الأكابر: التؤدة في كل شيء خير، إلا في أعمال الآخرة.

ومنها:

العصيان

ولا ريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معاً، لأن بعض أنواعه من رذائل إحداهما من جانب الإفراط أو التفريط، أو من باب ردائتها، وبعض آخر من أنواعه من رذائل الأخرى.

وضده (التقوى والورع)، وبالمعنى الاعم: الاجتناب عن مطلق المعصية خوفاً من سخط الله، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما. فتذكر.

---

٨ [8] صححنا الحديث على إحياء العلوم: ٤/٣٩٠. وفي نسخ الكتاب (أولج ومن أولج).

ومنها

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية العقلية أو العرفية، وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر.

وضدها (الحياء)، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم، وهو أعم من التقوى إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً، فهو من شرائف الصفات النفسية، ولذا ورد في فضله ما ورد، قال الصادق (ع): " الحياء من الايمان، والإيمان في الجنة ". وقال (ع): " الحياء والعفاف والعي ـ أعني عي اللسان لا عي القلب ـ من الإيمان ". وقال (ع): " الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه ". وقال (ع): " لا ايمان لم لا حياء له ". ثم حقيقة الحياء ـ كما عرفت ـ هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعاً أو عقلا أو عرفاً، فالانفعال عن غير ذلك حمق، فان الانفعال عن تحقيق أحكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعاً وعقلا لا يعد حياء بل حمقاً، ولذا قال رسول الله (ص): " الحياء حياءان: حياء عقل وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل "٩[9].

ومنها:

الاصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار إلى أي القوى وذمها ـ ضد الاصرار التوبة وتعريفها ـ هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ ـ وجوب التوبة ـ تحقيق في وجوبها ـ عموم وجوبها ـ لا بد من العمل بعدها ـ فضيلتها ـ قبولها ـ طريقة التوبة من المعاصي ـ تكفير الصغائر ومعنى الكبائر ـ الصغائر قد تكون كبائر ـ شروط كمال التوبة ـ هل يصح التبعيض فيها؟ ـ أقسام التائبين ـ مراتب

---

٩ [9] صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الحياء).

التوبة ـ عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة ـ علاج الاصرار على الذنوب ـ الانابة ـ المحاسبة والمراقبة ـ المعنى الظاهر لهما ـ حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ـ مقامات مرابطة الفعل للنفس.

وهو إما ناشئ من رداءة احدى القوتين وخروجها عن إطاعة العاقلة، أو عن رداءتهما معاً، فيكون من رذائل القوتين، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق اولى وأوكد. والأخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية، وأما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً، كقول النبي (ص): " ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان باربعة اصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، فيقول الآخر: فياليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، فيقول الآخر: فياليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا. واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وأنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن ". وقال أمير المؤمنين (ع): " لا تبدين عن واضحة وقد عمتك الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات ". وقال الباقر (ع): " إن الله قضى قضاء حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة ". وقال (ع): " ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما يزال به حتى يغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله ". وقال (ع): " إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق ". وقال الصادق (ع): " يقول الله ـ تعالى ـ: إن أدنى ما اصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذيذ مناجاتي ". وقال (ع): " من هم بسيئة فلا يعملها، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب ـ تعالى ـ فيقول: وعزتي وجلالي! لا أغفر لك بعد ذلك أبداً ". وقال (ع): " أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض، إلا بذنب، وذلك قول الله ـ عز وجل ـ في كتابه:

" وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثيرٍ "١٠[10].

---

١٠ [10] الشورى، الآية: ٣٠.

قال (ع): وما يعفو الله اكثر مما يؤاخذ به ". وقال (ع): إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وان العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم ". وقال الكاظم (ع): " حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحاها المشمس حتى يطهرها "[11] **[11]**.

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل إليه أثر الذنب ووباله، فان هذا محال. فانه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى، فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ويعذبوا في الآخرة عذاباً اكبر واشد، أما سمعت أن أباك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الأولى؟ حتى روى: " أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، وجاء جبرئيل (ع) وأخذ التاج من رأسه وخلى الاكليل عن جنبيه، ونودي من فوق العرش: اهبطا من جواري، فان لا يجاورني من عصاني، فالتفت آدم إلى حواء باكياً، وقال: هذا أول شؤم المعصية، أخرجنا من جوار الحبيب ". وروى: " انه ـ تعالى ـ قال: يا آدم! أي جار كنت لك؟ قال: نعم الجار يا رب! قال: يا آدم! اخرج من جواري وضع عن رأسك تاج كرامتي، فانه لا يجاورني من عصاني ". وقد روى: " ان آدم بكى على ذنبه مائتي سنة، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى ". فان كانت مؤاخذته في نهى تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى.

---

[11] [11] صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الذنوب).

التوبة وتعريفها
هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟
وجوب التوبة
تحقيق في وجوب التوبة
عموم وجوب التوبة
تذنيب
لابد من العمل بعد التوبة

فصل

(التوبة وتعريفها)

ضد الاصرار (التوبة)، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعلي والفكري، وبعبارة اخرى: هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب، وبعبارة أخرى: ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير. وكما ان الاصرار على العصيان من رذائل قوتي الغضب والشهوة، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما، بمعنى أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو إحداهما، ومن فعل النفس باعانتهما وانقيادهما للعاقلة، وان كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين المحبوب، ويمكن ان يقال: إن التوبة هو الرجوع عن الذنب، وهو من ثمرات الخوف والحب. فان مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من المحب، فتكون من فضائل القوتين أيضاً. ويمكن أن يقال: إن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب، وكونها حجاباً بينه وبين الله، والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق بالترك حالا واستقبالا، والتلاقي للماضي والندم، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة، والعلم المذكور من العاقلة، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث.

وتوضيح حقيقة التوبة: أنه إذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه. ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب، وصار متأسفاً على ما صدر عنه من

الذنوب، سواء كانت أفعالا أو تروكا للطاعات. ويسمى تألمه ـ بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه ـ ندماً. وإذا غلب هذا الندم على القلب، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابساً له، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه إلى آخر عمره. وبالماضي بتلاقيه ما فات بالجبر والقضاء. فالعلم ـ أعني اليقين بكون الذنوب سموماً مهلكة ـ هو الأول، وهو مطلع البواقي، إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب، فيتألم به القلب، حيث ينظر باشراق نور الإيمان واليقين أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فيرى محبوبه قد اشرف على الهلاك. فتشتعل نيران الحب في قلبه، وتنبعث بتلك النيران رادته للانتهاض للتدارك. فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معان مترتبة في الحصول، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها. وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم، وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر، وإلى هذا الاعتبار يسير قوله (ص): " الندم توبة ".إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه واثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه، اعني ثمرته ومثمره. وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب، وربما اطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا، وبهذا الاعتبار قيل في حدها، إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود استقبالا. وعلى هذا لا يكون الندم داخلا في حقيقة التوبة، وقد صرح بعض الاعاظم بخروجه عنها، محتجاً بأن الندم ـ وهو تألم القلب وحزنه على الذنب ـ غير مقدور، ولذا ترى تقع الندامة على أمور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدوراً، وانما المقدور تحصيل أسبابه، أعني الإيمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه. وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها، فاللازم فيها التندم دون الندم. وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس، فان أمكن إزالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك، والا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية، وأيضاً إذا امكن تحصيل سبب الندامة ـ اعني العلم بفوات المحبوب ـ لزم ترتب المسبب ـ أعني الندامة عليه ـ فما معنى عدم كونه

مقدوراً، فالندامة في الازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الأخلاق النفسية. وبعضهم يعد ما عدا التندم من شرائط التوبة، قال: " وأما الندم ـ اعني تألم القلب على الذنب الذي هو روح التوبة ـ فغير مقدور، وهو التوبة حقيقة، وانما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والإيمان وتحقيقهما في قلبه " انتهى. وفيه ما لا يخفى بعلاوة ما سبق، قال الصادق (ع): " التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر وتوبة الاولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الاصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصول توبته ومنتهى أمره، وذلك يطول شرحه هنا.

وأما توبة العام، فان يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة. والاعتراف بجنايته دائماً، واعتقاد الندم على ما مضى، والخوف على ما بقي من عمره، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل، ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث إلى الله ـ تعالى ـ ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة، ويقضي عن الفوائت من الفرائض، ويرد المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتفكر دائماً في عاقبته، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن ردجة التوابين، فان في ذلك طهارة من ذنوبه، وزيادة في عمله، ورفعة في درجاته. قال الله ـ عز وجل ـ:

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين "١[1] "٢[2].

تتمة

---

١ [1] العنكبوت، الآية: ٣.

٢ [2] صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة: الباب ٨٠).

(هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟)

التوبة انما تكون عن ذنب سبق مثله، (أما)٣[3] ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة، بل يسمى تقوى، ويسمى صاحبه متقياً لا تائباً، ولذا يصح القول بأن النبي (ص) كان متقياً عن الكفر، ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه. ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة أو المنزلة، فالشيخ الهم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق، ولم يقدر الساعة على فعلهما، إذا أراد التوبة عنهما ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة، كالقذف والسرقة وامثالهما، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة ـ اعني نفس الزنا وقطع الطريق ـ مع عدم قدرته عليهما، ولو لم يكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء، لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة إلى مثل الشيخ الهم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها، وهو باطل، لانفتاح باب التوبة إلى الموت، ولما ذكر، قال بعض المشايخ في حد التوبة: " إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منزلة لا صورة، تعظيماً لله وحذراً من سخطه ". فقوله: " سبق مثله " احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله، فانه لا يسمى توبة بل تقوى، وقوله: " منزلة لا صورة " لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الان، على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً.

قال أبو حامد الغزالي: " إن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ قلت: لا! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه "، ثم قال: " ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم، بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية

---

٣ [3] وفي النسخ (أو) بدل (أما)، والصحيح ما اثبتناه.

لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فاني ارجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه ومباحاً عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وان لم تطرأ عليه حالة تتهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فان كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر انه يقبله.
والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: ـ أحدهما ـ حرقة الندم، و ـ الآخر ـ شدة المجاهدة بالترك في المستقبل، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا: ان التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما يدل ظاهر الشرع على اشتراطه ".

فصل

(وجوب التوبة)

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة: بالاجماع، والنقل، والعقل:

أما الاجماع ـ فلا ريب في انعقاده. وأما النقل ـ فكقوله ـ تعالى ـ :

" وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون "٤[4]. وقوله ـ تعالى ـ: " يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم "٥[5].

---

٤ [4] النور، الآية: ٣١.

٥ [5] التحريم، الآية: ٨.

ومعنى النصوح: الخالص لله خالياً عن شوائب الاغراض، من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم أسباب، والأمر للوجوب، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين.

وأما العقل ـ فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها. (بيان ذلك): أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الابد والنجاة من هلاك السرمد، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد. ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والإنس به، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقي لا محالة، محترق بنار الفراق ونار جهنم. ثم لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والإنس بهذا العالم الفاني، والاكباب على حب ما لا بد من مفارقته قطعاً، ويعبر عن ذلك بالذنوب. ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم.والاقبال بالكلية على الله، طلباً للانس به بدوام الذكر، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته، ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم، ولا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فالتوبة واجبة قطعاً.

تذنيب

(تحقيق في وجوب التوبة)

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة، مع أن العلم بضرورة المعاصي وكونها مهلكة من اجزاء الإيمان ووجوب الإيمان ومما لا ريب فيه، والعالم بهذا العلم إذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الإيمان، لان كل علم يراد ليكون باعثاً على العمل، فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصير باعثاً، فالعلم بضرر الذنوب إنما اريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقول النبي (ص): " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن "، وما اراد به نفي الإيمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فان ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه،

وليس الإيمان باباً واحداً، بل هو ـ كما ورد ـ نيف وسبعون باباً، أعلاها الشهادتان وأدناها اماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحداً، بل هو نيف وسبعون موجوداً، أعلاها الروح والقلب وادناها اماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقي البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة باروائها، المستكرهة الصور بطول مخالبها واظفارها، فالايمان كالإنسان، وفقد الشهادتين كفقد الروح الذي يوجب البطلان بالكلية، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الأعمال، فهو كإنسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين، فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة، إلا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبت في النفس اصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو اصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ليساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل، فلا بقاء للاصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الاصل، ولا فرق بين الاصل والفرع إلا في شيء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعى وجود الاصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، فمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة، وإنما يظهر الفرق إذا عصفت الرياح القوية، فعند ذلك تنقطع أصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على اصلها وفرعها. ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالاً على صحته، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذية إلى المرض والمرض إلى الموت، فكذلك تؤدى ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود في النار،

فالمعاصي للايمان كالسمومات والمأكولات المضرة للابدان، فكما أن مضرة السمومات لا تزال

تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك آثار المعاصي لا تزال تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الإيمان، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة إذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من مأكولات، فالخائف من هلاك الابد اولى بأن يجب عليه ترك الذنوب، ومن تناول السم وندم إذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة، فمتناول سموم الإيمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك.

فالبدار البدار معاشر اخواني إلى التوبة! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملاً لا ينفع بعده الاحتماء، ويخرج الأمر فيه عن ايدي اطباء القلوب، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين، وتحق عليكم كلمة العذاب، وتدخلدون تحت عموم قوله ـ تعالى ـ:

" وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون "٦[6]. وقوله تعالى: **"** ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة "٧**[7]**. وغير ذلك من الآيات.

ثم مقتضى الأدلة المذكورة: كون التوبة واجبة على الفور، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً، ولا يجوز له التأخير. قال لقمات لابنه: " يا بني! لا تؤخر التوبة، فان الموت يأتي بغتة ". ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: ـ أحدهما ـ أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو ـ والثاني ـ أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد: أن اكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من هلك إلا بالتسويف.

فصل

(عموم وجوب التوبة)

---

٦ [6] يس، الآية: ٩.

٧ [7] البقرة، الآية: ٧.

وجوب التوبة يعم الاشخاص والأحوال، فلا ينبغي أن ينفك عنه أحد في حالة، قال الله ـ تعالى ـ:

" وتوبوا إلى الله جميعاً "٨[8].

وهو يعم الكل في الكل. ومما يدل على وجوبها على الكل: أن كل فرد من أفراد الناس إذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة بدنه، بين الشهوات جنود الشياطين، وبين العقول احزاب الملائكة، إذ لا تكمل غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة، وإذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان، بقمعها بكسر الشهوات، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا. ومما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه، فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلوا عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب، فان خلا عن ذلك أيضاً فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة.

ولعدم خلو أحد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة، وان تفاوتوا في المقادير، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت، لزم خروج روحه بلا توبة، لعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة، فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه، قال بعض العرفاء٩**[9]**: " لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره في غير طاعة الله، لكان حقيقاً

---

٨ [8] النور، الآية: ٣١.

٩ [9] هو أبو سليمان الدراني فيما نقل عنه في أحياء العلوم: ١٠/٤.

أن يخزيه١٠[10] ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ".

ومن عرف قدر العمر وفائدته، وما يكتسب به من سعادة الأبد، يعلم أن ما يضيع منه في المعصية وغير التوبة أي حسرة وندامة يترتب عليه، فان العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة، فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، لايصالها العبد إلى سعادة الأبد وانقاذها اياه من شقاوة السرمد، وأي جوهر انفس من هذا، فمن ضيعها في الغفلة خسر خسراناً مبيناً، ومن صرفها في معصية فقد هلك هلاكا أبدياً. وقد قيل: إن الله ـ تعالى ـ إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الالهام. ـ أحدهما ـ إذا خرج من بطن امه يقول له: عبدي! قد اخرجتك إلى الدنيا طاهراً لطيفاً، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني. ـ والثاني ـ عند خروج روحه يقول: عبدي! ماذا صنعت في امانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقاك على الوفاء؟ أو اضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟. واليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ:

" أوفوا بعهدي أوف بعهدكم "١١[11]. وبقوله ـ تعالى ـ: " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون"١٢[12].

وقد روى: أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لاعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها تفريطه، ولا يجد إليها سبيلاً، وقد روى ـ أيضاً ـ: أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت: أخرني يوماً اعتذر فيه إلى ربي واتوب، واتزود صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا

---

١٠ [10] في نسخ جامع السعادات (يجزيه).

١١ [11] البقرة، الآية: ٤٠.

١٢ [12] المؤمنون، الآية: ٨. المعارج، الآية: ٣٢.

ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردد انفاسه في شراسيفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه، فان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة ـ والعياذ بالله ـ خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة.

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصي المذكورة ـ أعني المحرمات وترك الواجبات ـ واحب بفتوى الشرع، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصي يكون معذباً بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً في النظام الكلى. وأما التوبة عن بعض آخر منها، كالخواطر والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك، فليس واجباً بهذا المعنى، لمنافاته انتظام العالم. إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته، لتركوا المعائش ورفضوا الدنيا بالكلية، وذلك يؤدي إلى بطلان التقوى رأساً، لأنه إن فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى. فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار. بل هي واجبة بمعنى آخر، وهو ما لا بد منه للوصول به إلى غاية القرب إلى الله، وإلى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضى باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه، من طلب الوصول إلى ما ذكر وجبت عليه هذا التوبة وجوباً شرطياً، بمعنى توقف مطلوبه عليه، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء واكابر العرفاء والعلماء، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية. وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات، لا عن ذنوب كذنوبنا، لتعاليهم وتقدسهم عن ذلك. قال الصادق (ع): " إن رسول الله (ص) كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم مائة مرة من غير ذنب، ان الله ـ تعالى ـ يخص اولياءه بالمصائب، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا، فان ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله ". وبمضمونه أخبار أخر.

فصل

(لابد من العمل بعد التوبة)

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل، بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فان تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً، كما قال ـ تعالى ـ:

" كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون "١٣[13].

فإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه، كما أن الخبث في وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده، فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه، ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل، كما لا يكفي في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسودّة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما ترتفع إلى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها، ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات، واليه الإشارة بقوله (ص): " اتبع السيئة الحسنة تمحها ". فاذن لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات، بمعنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة، لقوله (ص): " اتق الله حيث كنت ": ولأن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه من حسنة تضادها، إذ الضد إنما يرتفع بالضد، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه، ويكفر مس المصحف محدثاً باكرامه وتقبيله وكثرة قراءته، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو أحب إليه... إلى غير ذلك. وليس ذلك ـ أي ايقاع المناسبة ـ شرطاً في المحو، فقد روى: " أن رجلاً قال لرسول الله

---

١٣ [13] المطففين، الآية: ١٤.

(ص): إني عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس، فاقض عليّ بحكم الله، فقال: أما صليت معنا؟ قال: بلى! فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات ".

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو آثارا قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، قال الله ـ تعالى ـ:

" إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب "١٤[14]. أي عن قرب عد بعمل السوء. وقال: " وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الان "١٥[15].

قال الصادق (ع): " ذلك إذا عاين أمر الآخرة ". وقد ورد مثله عن رسول الله (ص) أيضاً.

---

١٤ [14] النساء، الآية: ١٦.

١٥ [15] النساء، الآية: ١٧.

فضيلة التوبة
قبول التوبة
طرق التوبة عن المعاصي
تكفير الصغائر ومعنى الكبائر
الصغائر قد تكون كبائر
شروط كمال التوبة

فصل

(فضيلة التوبة)

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، ومدحها عظيم، وفضلها جسيم، قال الله ـ تعالى ـ:

" إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين "١[1].

وقال رسول الله (ص): " التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ". وقال الباقر (ع): " إن الله ـ تعالى ـ أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله اشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها ". وقال (ع): " التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ ". وقال الصادق (ع): " إن الله يحب من عباده المفتن التواب ": يعني كثير الذنب كثير التوبة. وقال (ع): " إذا تاب العبد توبة نصوحا، أحبه الله فستر عليه " فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: " ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله ـ عز وجل ـ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب ". وقال الصادق (ع): " إن الله ـ عز وجل ـ اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها: قوله ـ عز وجل ـ :

إن الله يحب التوابين... " إلى آخره٢[2]، وقوله: " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين

---

١ [1] البقرة، الآية: ٢٢٢.

تابوا ـ إلى قوله ـ وذلك هو الفوز العظيم "٣[3]. وقوله: " والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد في مهاناً، إلا من تاب وآمن ـ إلى قوله ـ وكان الله غفوراً رحيماً "٤[4].

وقال أبو الحسن (ع): " أحب العباد إلى الله المنيبون التوابون ".

فصل

(قبول التوبة)

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع، ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ:

" هو الذي يقبل التوبة عن عباد "٥[5]. وقوله ـ تعالى ـ : " غافر الذنب وقابل التوب "٦[6]. وقول ـ تعالى ـ : " ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً "٧[7].

وقول النبي (ص): " إن الله ـ تعالى ـ يبسط يدهُ بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ". وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، وطالب التوبة يقبله البتة.

---

٢ [2] البقرة، الآية: ٢٢٢.

٣ [3] المؤمن، الآية: ٧ ــ ٩.

٤ [4] الفرقان، الآية: ٦٨ ــ ٧٠.

٥ [5] الشورى، الآية: ٢٥.

٦ [6] المؤمن، الآية: ٣.

٧ [7] النساء، الآية: ١٠٩.

وقوله (ص): " إن الحسنات يذهبن السيئات، كما يذهب الماء الوسخ ". وقوله (ص): " لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم، لتاب الله عليكم ". وقوله (ص): " إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة ". قيل: كيف يا رسول الله؟! قال: " يكون نصب عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة ". وقوله (ص): " كفارة الذنب الندامة ". وقوله (ص): " من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته. ثم قال: إن السنة الكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته. وقال: إن الشهر الكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته " وقال الباقر (ص) لمحمد بن مسلم: " ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان ".فقال له: فان عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ قال: " يا محمد بن مسلم! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟ ". قال فانه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر، فقال: " كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فاياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله ". وقوله (ع): " إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ لم تكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة ". وقوله (ع): " إن آدم (ص) قال: يارب! سلطت علي الشيطان، وأجريته منى مجرى الدم، فاجعل لي شيئاً، فقال: يا آدم! جعلت لك: إن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فان عملها كتبت عليه سيئة ومن هم منهم بحسنة، فان لم يعملها كتبت له حسنة، فان هو عملها كتبت له عشراً، قال: يا رب! زدني، قال جعلت لك: إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يارب! زدني، قال: جعلت لهم التوبة، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال: يارب! حسبي " وقول الصادق (ع): " إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة "، قيل: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال: " نعم! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة ". وقوله (ع): " العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات، فان استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وان المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينسى من ساعته ". وقوله (ع): " ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم

بديع السماوات والأرض ذا الجلال والاكرام وأسأله أن يصلى على محمد وآل وحمد وان يتوب علي، إلا غفرها الله له، ولا خير فيمن يقارف في يومه اكثر من اربعين كبيرة "٨[8].

وروى: " إن الله ـ تعالى ـ لما لعن إبليس سأله النظرة، فانظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله ـ تعالى: بعزتي لاحجبت عنه التوبة ما دام في الروح ". وورد في الاسرائيليات: " أن شاباً عبد الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة، فرأى الشيب في لحيته، فساءه ذلك، فقال: إلهي اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول: أجبتنا فاجبناك، فتركتنا فتركناك، وعصيتنا فامهلناك، فان رجعت الينا قبلناك ". والأخبار والآثار في هذا المعنى اكثر من أن تحصى، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضا.

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله، ويعلم ان القلب خلق في الأصل سليماً صافياً، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وإنما مرض واسود بامراض الذنوب وظلماتها، ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار، نعم إذا تراكمت الذنوب بحيث صار ريناً وطبعاً، وافسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك، فمثل هذا القلب لا تفيده التوبة، بمعنى انه لا يرجع ولا يتوب، وإن قال باللسان تبت، إذ اوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب وهلاكه، لصيرورة الاوساخ جزءاً من جوهره، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك إلى انخراقه. وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله فانهم لا يرجعون ولا يتوبون

---

٨ [8] صححنا الأحاديث الواردة في هذا الباب على أصول الكافي: باب الاعتراف بالذنوب، وباب من يهم بالحسنة أو السيئة، وباب التوبة، وباب الاستغفار من الذنوب، وباب فيما اعطى الله ــ عز وجل ــ آدم وقت التوبة.

لصيرورة ذمائم الأخلاق ورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت اوساخها في تجاويف قلوبهم، بحيث لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان، والقلب غافل خال عن الإيمان، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها.

فصل

(طريق التوبة عن المعاصي)

اعلم ان ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب وهي ـ كما ذكرناها ـ لا تخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والافعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم إلى أقسام ثلاثة:

أحدها ـ ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها: أن يجهتد في قضائها بقدر الامكان.

وثانيا ـ المحرمات التي بين العبد وبين الله، اعني المنهيات التي هي حقوق الله: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل. وطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

وثالثها ـ الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والأمر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض، أو في الحرمة، أو الدين:

فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فان عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحله أو عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليتصدق عنه إن أمكنه. والا فعليه بالتضرع والابتهال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضاً عن حقه، اما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته.

وما كان في (النفس): فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطى الدية، وان كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجني عليه أو اولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه، أو يجعل في حل، وان عجز عن ذلك فعليه بكثرة إعتاق الرقاب. لأن ذلك نوع إحياء وايجاد لا يقدر الإنسان على اكثر منه، فيقابل به الاعدام والامانة، وعليه الرجوع أيضاً إلى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (العرض): بأن شتمه، أو قذفه، أو بهته، أو اغتابه، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه، ويستحل من صاحبه مع الامكان، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره، فان خاف ذلك، فليكثر الاستغفار له، ويبتهل إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (الحرمة): بأن خان مسلماً في اهله وولده أو نحوهما، فلا وجه للاستحلال، إذ اظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمته ووطأ زوجته، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه عرق من الدياثة، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال إلى الله المتعال، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانته، وإن كان حياً فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الأموال، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج، ويسعى في مهماته واغراضه، ويتلطف به، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال، فان أبى أن يكون إنعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانته، فان كل ظلم وايذاء وحق من حقوق العباد إذا لم يحل صاحبه يوم القيامة يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض، سواء رضى الظالم ام لا، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا، كما أنه يحكم في الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل، ويقهر على ذلك، ويحكم على هذا الغير بقبوله، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن القبول، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة، فيقتص من كل ظالم موذ بأخذ حسناته ووضعها في موازين ارباب المظالم، فان لم تف بها حسناته، حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك المسكين بسيئات غيره. وبذلك يعلم: أنه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات، ومع الرجحان ـ ولو

بقدر مثقال ـ تحصل النجاة، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال في الليل والنهار إلى الله ـ سبحانه ـ، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر، ويرضى خصمه بخفي ألطافه.

وما كان في (الدين): بأن نسب مسلماً إلى الكفر أو الضلالة أو البدعة. فليكذب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده، ويستحل من صاحبه مع الامكان، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال إلى الله ليرضيه عنه يوم القيامة.

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس: ارضاء الخصوم مع الامكان، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشية الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده، ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله.

فصل

(تكفير الصغائر ومعنى الكبائر)

اعلم ان صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصغائر، قال الله ـ تعالى ـ:

" إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم "٩[9]. وقال: " الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم "١٠[10].

---

٩ [9] النساء، الآية: ٣٠.

١٠ [10] النجم، الآية: ٣٢.

وقال رسول الله (ص): " الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر " واجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس، فان مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه، فهذا معنى تكفيره، فان كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك، فلا يصلح للتكفير، فكذلك من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه. فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله.

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف، لأن الكبير والصغير من المصافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالاضافة إلى ما دونه، وصغير بالاضافة إلى ما فوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافاً لا يكاد يرجى زواله، واختلفت الروايات فيها أيضا.

والأظهر بالنظر إلى الروايات وإلى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه، ويعني بوصفه بالكبيرة: ان العقوبة بالنار عظيمة، أو أن تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه. ويمكن ان يقال: ان الشرع لم يعينها، وابهمها ليكون العبد على وجل منها، فيجتنبون جميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها، وواظبوا في ليال متعددة على العبادات، وكما ابهم الاسم الاعظم ليواظبوا على جميع اسماء الله. والحاصل: أن كل ما لا يتعلق به حكم الدنيا جاز أن يتطرق إليه الابهام، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة، فأن موجبات الحدود معلومة بأساميها، وانما حكم الكبيرة ان اجتنابها يكفر الصغائر وان الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والابهام أليق به، حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

فصل

(الصغائر قد تكون كبائر)

اعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب:

احدها ـ الاصرار والمواظبة، ولذلك قال الصادق (ع): " لا صغيرة مع الاصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار ". والسر فيه: أن الصغيرة لقلة تأثرها لا تؤثر في القلب باظلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في القلب، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله (ص): " خير الأعمال أدومها، وإن قل". وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت. ثم معرفة الاصرار موكول إلى العرف، قال الباقر (ع) ـ في قوله ـ تعالى ـ:

(ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)١١[11]:

" الاصرار: أن يذنب الذنب، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الاصرار ".

وثانيها ـ استصغار الذنب، فان العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الالف به، وذلك يوجب شدة الاثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة، لعدم تأثره به. ولذلك ورد في الخبر: " أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فاطاره ". وقال رسول الله (ص): " اتقوا المحقرات من الذنوب، فانها لا تغفر "، قيل: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك ". وروى: " انه (ص) نزل بارض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتونا بالحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه. فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال (ص): هكذا تجتمع الذنوب، إياك والمحقرات من الذنوب فان لكل شيء طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين ". وقال أمير المؤمنين (ع): " لا تصغر ما ينفع يوم القيامة، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم

---

١١ [11] آل عمران، الآية: ١٣٥.

الله كمن عاين ". وقال الباقر (ع): " اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالباً، يقول أحدكم: أذنب واستغفر الله. إن الله ـ تعالى ـ يقول:

" ونكتب ما قدموا آثارهم وكل شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين "١٢[12]. وقال ـ عز وجل ـ: " إنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل فتكن في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير "١٣**[13]**.

وقال الصادق (ع): " إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير ". وقال الكاظم (ع): " لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسكم النصف "١٤**[14]**. والسر في عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه: " لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ". ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين: " إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات ". إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالاضافة إلى جلال الله كبائر.

وثالثها ـ أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغتراراً بستر الله عليه، وحلمه عنه، وامهاله إياه، ولا يعلم أنه انما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً، فتزهق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكامن الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون.

---

١٢ [12] يس، الآية: ١٢.

١٣ [13] لقمان: الآية: ١٦.

١٤ [14] صححنا الأحاديث كلها على أصول الكافي (باب التوبة، وباب تفسير الذنوب).

ورابعها ـ السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله، أو غبنه في ماله في المعاملة ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث ان العدو ـ اعني الشيطان ـ ظفر به وغلب عليه، لا أن يفرح بغلبة العدو عليه، فالمريض الذي يفرح بانكسار انائه الذي فيه داؤه لتخلصه من ألم شربه. لا يرجى شفاؤه.

وخامسها ـ أن يذنب ويظهر ذنبه بان يذكره بعد اتيانه، أو ياتي به في مشهد غيره، فان ذلك خيانة منه على الله الذي اسدله عليه، وتحريك الرغبة والشر فيمن اسمعه ذنبه أو اشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانته فتغلظت به، فان انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة، وتفاحش الأمر. وهذا لان من صفات الله انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالاظهار كفران لهذه النعمة، قال رسول الله (ص): " المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له ". وقال الصادق (ع): " من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله فنحوه ".

وسادسها ـ ان يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدي به الناس، فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه، كبر ذنبه، وذلك كلبسه الذهب والابريسم، واخذه مال الشبهة، واطلاقه اللسان في اعراض الناس، ونحو ذلك. فهذه ذنوب يقتدي العالم فيها ويتبع عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وفي الخبر: " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيء " قال الله ـ تعالى ـ :

" ونكتب ما قدموا وآثارهم "١٥[15]

١٥ [15] يس، الآية: ١٢.

والآثار: ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل. فعلى العالم وظيفتان: ـ إحداهما ـ ترك الذنب، والأخرى ـ اخفاؤه، وكما تتضاعف اوزار العالم على السيئات إذا اتبع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبع.

فصل

(شروط كمال التوبة)

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر: من طول الندم، وقضاء العبادات، والخروج عن مظالم العباد، وطول البكاء والحزن والحسرة، واسكاب الدموع، وتقليل الاكل، وارتياض النفس، ليذوب عن بدنه كل لحم نبت من الاغذية المحرمة والمشتبهة، قال أمير المؤمنين (ع) لمن قال بحضرته: استغفر الله: " ثكلتك أمك! أتدرى ما الاستغفار؟ ان الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان: اولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود عليه أبدا، والثالث: ان تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله املس ليس عليك تبعة، والرابع: ان تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤديا حقها، والخامس: ان تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد، والسادس: ان تذيق الجسم الم الطاعة كما اذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: استغفر الله ".

هل يصح التبعيض في التوبة
أقسام التائبين
مراتب التوبة
عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة
علاج الإصرار على الذنوب
الإنابة
المحاسبة والمراقبة
المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة
حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا

فصل

(هل يصح التبعيض في التوبة)

اعلم ان التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح، بشرط إلا تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيساً أو غصباً أو قهراً، أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر. كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر. والدليل على إمكان ذلك وصحته: ان العبد إذا علم ان الكبائر اعظم اثماً عند الله واجلب لسخط الله ومقته والصغائر اقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يبعد ان يتوب عن الاعظم دون الاصغر، وكذا إذا تصور ان بعض الكبائر اشد واغلظ عند الله من بعض، فلا يبعد ان يتوب عن الاغلظ دون الاخف، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة، فلا يقدر على الصبر عنها، وتكون ضراوته بنوع آخر منها اقل، فيمكنه الترك بسهولة، فيتوب عنه دون الأول، وان كان الأول اغلظ واشد اثماً، كالذي شهوته بالخمر اشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافهما نوعاً بأي نحو كان ممكن وصحيح، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه، ويكتب عليه اثم ما لم يتب عنه، بل ربما كان اكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل، إذ كثر التائبون في الاعصار الخالية والقرون الماضية، ولم يكن أحد منهم معصوماً، فيكون كل منهم جازاً بأنه يصدر عنه معصية البتة. ويدل على الصحة قوله (ع): " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " حيث

لم يقل: التائب من الذنوب. نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول، لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله، فلا معنى للتوبة عن اخذ الخبز الحرام، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر، إذ لو كان ذلك صحيحاً لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز، أو عن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم... وهكذا. والحاصل: ان التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح، ومع تماثلهما فيهما غير معقول. ومن العلماء من قال: إن التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم، وإنما يندم على السرقة ـ مثلاً ـ لكونها معصية لا لكونها سرقة، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لأجل المعصية، إذ العلة شاملة لهما، لان من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لان التوجع هو بفوات المحبوب، ساء كان بالسيف أو بالسكين، وكذلك توجع التائب انما هو لفوات المحبوب بالمعصية، سواء عصى بالسرقة أو بالزنا، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه.

فصل

(أقسام التائبين)

التائبون بين من سكت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها، وبين من بقى في نفسه الشروع إليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها: والأول بيّن من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط: والأول من الأول أفضل من الثاني، والثاني منه أدون من الثاني، والوجه ظاهر. وأيضاً التائبون بين من نسى الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه. ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر إلى المبتدي ومن يخاف عليه العود أفضل، لأنه يصده عنه، والنسيان بالنظر إلى المنتهى السالك والواصل إلى مرتبة الحب والإنس الواثق من نفسه انه لا يعود أفضل، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجب من الحضور بلا فائدة. ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب، لانهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بالامة، فانهم بعثوا لارشادهم، فعليهم التلبس بما ينتفع الامة بمشاهدته، وإن كان نازلا عن ذروة مقامهم.

ولذا قال رسول الله (ص): " أما إني لا أنسى، ولكن انسى لأشرع "١[1]. ولا تعجب من هذا، فان الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة، والاب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير ينزل إلى درجة نطق الصبي، والراعي لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صفيراً شبيهاً بالبهيمة والطائر، تلطفاً في تعليمه.

فصل

(مراتب التوبة)

اعلم أن التائب اما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة هي التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على امهات الطاعات، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي إليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها، ولها حسن الوعد من الله ـ تعالى ـ بقوله:

" الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة "٢[2].

والى مثلها الإشارة بقوله (ص): " خياركم كل مفتن تواب ". وفي خبر آخر: " المؤمن كالسنبلة، يفيء احياناً ويميل احياناً ". وفي خبر آخر: " لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة "٣[3]:

---

١ [1] الحديث نبوي مروي في إحياء العلوم: ٤/٣٨.

٢ [2] النجم، الآية: ٣٢.

أي الحين بعد الحين. وكل ذلك شاهد صدق على ان هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرين، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن ينل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في اوقات نادرة. ولا ريب في نقضانه. فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات. إذ امثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الاصلاح، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب، فيقدم عليه عمداً وقصدا، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم، ويقول سأتوب عنها، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤول صاحبها، واليها الإشارة بقوله ـ تعالى ـ:

" وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً "٤[4].

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليها، ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها، فربما اختطفها الموت قبل التوبة، ويقع أمرها في المشيئة، فيدخل في زمرة السعداء، أو يسلك في سلك الاشقياء، أو يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب عمداً وقصداً، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات وهذا معدود من المصرين، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير، ومثله إن مات على التوحيد وختم له

---

٣ [3] صحbackup

٤ [4] التوبة، الآية: ١٠٣.

بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة، وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار، وإن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره إلى الله، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته، ثم يخلص منه بعميم لطفه.

فصل

(عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة)

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنعه ذلك عن التوبة، علماً منه أنه لا فائدة فيه فان ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب.

وأما الخوف من العود، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم، فان وفى به فقد نال مطلبه، والا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن. وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة فانك من التوبة أبداً بين احدى الحسنيين: ـ إحداهما العظمى: وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال. ـ وثانيهما ـ وهي الصغرى: غفران الذنوب الماضية، وإن لم يمنع العود إلى الذنب في المستقبل. ثم إذا عاد إلى الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة، ويتبعه بحسنة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً. والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب: وهي الندم، والتضرع إلى الله والتذلل له، وإضمار الخير للمسلمين، والعزم على الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والاساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها. وفي الخبر: ان الذنب، إذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجوا: أربعة من اعمال القلوب، وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة، وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله ـ تعالى ـ بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوماً. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين، وفي بعضها: تصلي أربع ركعات. ولا تظنن أن الاستغفار باللسان بدون

حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلا، بل هو توبة الكذابين، لما ورد من أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلا هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة، أي ما يكون مجرد حركة اللسان من دون مدخلية للقلب، كما إذا سمع شيئاً مخوفاً، فيقول على الغفلة. استغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه، وأما إذا إنضاف إليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص رغبة وميل قلبي إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها، وان علم أن نفسه الامارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة، فالاستغفار بالقلب وان خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله ـ تعالى ـ:

" فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره "٥[5].

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات إلى ان يثقل فتسل كفة السيئات، فاياك وان تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وتستحقر ذرات المعاصي فلا تتقيها، كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، واي غنى يحصل منه، وما وقع ذلك في الثياب، ولا تدري أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطا. وان أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات. قال الصادق (ع): " إن الله ـ تعالى ـ خبأ ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عباده، فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولي الله ". فاذاً الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع اصلا، بل ربما قيل: الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالنظر إلى

---

٥ [5] الزلزلة، الآية: ٧ ــ ٨.

السكوت عنه، وإن كان نقصاً بالاضافة إلى عمل القلب، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار، ويجتهد في اضافة حركة القلب إليها، ويتضرع إلى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل

(علاج الاصرار على الذنوب)

اعلم أن الطريق إلى تحصيل التوبة، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب: أن يتذكر ما ورد في فصلها ـ كما مر ـ وتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الأنبياء وأكابر العباد، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته ـ كما دل عليه الأخبار الكثيرة ـ ويتذكر ما ورد من العقوبات على احاد الذنوب: كالخمر، والزنا، والسرقة، والقتل، والكبر، والحسد، والكذب، والغيبة، وأخذ المال الحرام... وغير ذلك من احاد المعاصي مما لا يمكن حصره، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالي. إذ لعله كان من الاملاء والاستدراج. فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعذ ذلك، فهو إما معتوه احمق أو غير معتقد بالمعاد، وينبغي أن يجتهد في قلع أسباب الاصرار من قلبه: اعني الغرور، وحب الدنيا، وحب الجاه، وطول الأمل... وغير ذلك.

فصل

(الانابة)

اعلم أن الإنابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والاقبال على الله ـ تعالى ـ بالسر والقول والفعل، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب إلى الله والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً إليه ـ سبحانه ـ، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية. قال الله ـ سبحانه ـ:

" وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له "٦[6]. وقال ـ سبحانه ـ: " وما يتذكر إلا من ينيب "٧[7]. وقال:

" وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيدٍ، هذا ما توعدون لكل أوابٍ حفيظٍ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلبٍ منيبٍ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد "٨[8].

وانابة العبد تتم بثلاثة أمور:

الأول ـ أن يتوجه إليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.

الثاني ـ ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه.

الثالث ـ أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

المحاسبة والمراقة

[تذنيب] ـ اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتهما من وجه الاصرار على الذنوب. ومثلها في كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها، فنحن نشير هنا إلى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتها عليهما في فصول.

فصل

(المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة)

[المحاسبة]: أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه، ليعاتب نفسه، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة، أو مرتكبة لمعصية،

---

٦ [6] الزمر: ٥٤.

٧ [7] المؤمن: ١٣.

٨ [8] ق، الآية: ٣١ ــ ٣٥.

ويشكر الله ـ سبحانه ـ لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة.

[والمراقبة]: أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً، حتى لا يقدم على شيء من المعاصي، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة. هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة، ويأتي اعتبار أمور وأعمال أخر فيه عرفاً.

فصل

(حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا)

اعلم ان الكتاب والسنة واجماع الامة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذر من الأعمال والخطرات واللحظات، قال الله ـ سبحانه :-

" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين "٩[9]. وقال: " يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيءٍ شهيد "١٠[10]. وقال: " ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً "١١[11]. وقال: " يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً

---

٩ [9] الأنبياء، الآية: ٤٧.

١٠ [10] المجادلة، الآية: ٦.

١١ [11] الكهف، الآية: ٥٠.

يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره "١٢[12]. وقال: " يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً "١٣[13]. وقال: " ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون "١٤[14]. وقال: " فوربك لنسئلنّهم أجمعين عما كانوا يعملون "١٥[15].

وقال رسول الله (ص): " ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان ". وورد بطرق متعددة: ان كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما ابلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير اكثر من أن تحصى، وبازائها أخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا، والترغيب عليها، وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة، وخطره ومناقشته. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وطالبها في الانفاس والحركات، وحاسبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه: دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيئاته، قال الله ـ سبحانه ـ:

" ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ "١٦[16].

---

١٢ [12]الزلزال، الآية: ٦ ــ ٨.

١٣ [13]آل عمران، الآية: ٣٠.

١٤ [14] البقرة، الآية:٢٨١، آل عمران، الآية: ١٦١.

١٥ [15]الحجر، الآية: ٩٢.

١٦ [16] الحشر، الآية: ١٨.

والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال. وقال رسول الله (ص): " حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا ". وقال الصادق (ع): " إذا اراد احدكم إلا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله ـ تعالى ـ، فإذا علم الله ـ تعالى ـ ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه، فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فان للقيامة خمسين موقفاً، كل موقف مقام أف سنة. ثم تلا:

" في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنةٍ "١٧[17].

وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله، يدل على أن الإنسان إنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك، وأن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم، وقال (ع): " لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله ـ تعالى ـ، وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحق للمرء ألا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوى إلى عمران، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام، إلا عن اضطرار متصل بالتلف، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كانه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل، قال الله ـ تعالى ـ :

" وإن كان مثقال حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين "١٨[18]. "١٩[19].

---

١٧ [17] المعارج، الآية: ٤.

١٨ [18] الأنبياء، الآية: ٤٧.

١٩ [19] صحنحا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٨٥، ص١٨٦.

وقال الكاظم (ع): " ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فان عمل حسنة استزاد الله ـ تعالى ـ، وان عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه ". وفي بعض الأخبار: ينبغي ان يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه....

مقامات مرابطة العقل للنفس وهي اربع مقامات
المشارطة
المراقبة
المحاسبة
معاتبة النفس
الغفلة
الغفلة موجبة للحرمان
ضد الغفلة النية

فصل

(مقامات مرابطة العقل للنفس)

اعلم ان العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة، ورأس ماله العمر، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس، فهي بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في ماله، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة إلى نعيم الأبد وسعادة السرمد. وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية إلى العذاب المقيم في دركات الجحيم، أو نقول: رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة مدة العمر، وكما ان التاجر يشارط شريكه اولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، وإن قصر في التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى ان يرتكب هذه الأعمال، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ(المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه، وقد يسمى (مرابطة) أيضاً.

فأول الأعمال في المرابطة (المشارطة): وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله. ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس! مالي بضاعة سوى. العمر، ومهما فني فني رأس المال. ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلني الله فيه بعظيم لطفه، ولو توفاني لكنت أتمنى أن

يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت، فاياك أن تضيعي هذا اليوم، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشترى بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد. ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار: من أن كل عبد خلقت له بازاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصفوفة فإذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فإذا فتحت له خزانة خلقت بازاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها مملوة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشا ظلامها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينغص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانة بازاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوئه، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تركني إلى الكسب والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق، ثم يستأنف لها وصية في اعضائه السبعة: أعني العين، والأذن، واللسان، والفرج، والبطن، واليد، والرجل، ويسلمها إليها، لأنها رعايا خادمة لها في التجارة، ولا يتم أعمال هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الاعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرر المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشارطة فيه، وبقيت الحاجة إليها في الباقي، وكل من

يشتغل بشيء من أعمال الدنيا: من ولاية، أو تجارة، أو تدريس أو امثال ذلك: لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله فيها حق، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها، وينبغي ان يوصيها بالتدبر في عاقبة كل أمر يرتكبه في هذا اليوم والليلة. وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها، وقد روى: " أن رجلاً أتى النبي (ص) وقال: يا رسول الله اوصني، فقال له: فهل أنت مستوص إن أنا اوصيتك؟ ـ حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل: نعم يا رسول الله! ـ فقال له رسول الله (ص): إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فان يك راشداً فامضه، وإن يك غياً فانته " ويظهر من هذا الخبر: أن التأمل في عاقبة كل أمر اعظم ما يحصل به النجاة فينبغي ان يؤكد العهد والميثاق في ذلك عل النفس ويحذرها عن الاهمال، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق، فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو المشارطة، وهو اول مقامات المرابطة.

وثانيها (المراقبة): وهو ان يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فانها إن تركت طغت وفسدت، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون، بأن يعلم ان الله ـ تعالى ـ مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وان سر القلب في حقه مكشوف، كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل اشد من ذلك، قال الله ـ سبحانه ـ:

" إن الله كان عليكم رقيباً "١[1]. وقال: " ألم يعلم بأن الله يرى؟ "٢[2].

---

١ [1] النساء، الآية: ١.

٢ [2] العلق، الآية: ١٤.

وقال رسول الله (ص): " الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك ".

وفي الحديث القدسي: " إنما يسكن جنات عدن، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت اصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي! إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب ". وحكى: " ان زليخا لما خلت بيوسف، فقامت وغطت وجه صنمها، فقال يوسف. مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا استحيي من مراقبة الملك الجبار؟! ". وهذه المعرفة - اعني معرفة اطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم - إذا صارت يقيناً - أي خلت عن الشك - ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة إليه، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين: - إحداهما - مراقبة المقربين، وهي مراقبة التعظيم والاجلال، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً، وكفاه الله سائر الهموم، - واخراهما - مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وباطنهم، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يجمحون إلا بعد التثبت ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فانهم يرون الله مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة. ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها.

وحالاته لا تخلو عن ثلاثة، لأنه إما أن تكون في طاعة، أو معصية، أو مباح. فمراقبته في الطاعة. بالقربة، والاخلاص، والحضور، والاكمال، وحراستها عن الآفات، ومراعاة الادب. ومراقبته في المعصية: بالتوبة، والندم، والإقلاع، والحياء، والاشتغال بالتكفير. ومراقبته في المباح: بمراعاة الادب، بأن يأكل بعد التسمية، وغسل اليدين، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل، ويقعد مستقبل القبلة، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة،

وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة، وبالشكر عند كل نعمة، ويتذكر شهود المنعم وحضوره، ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده إلى الغضب والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال، فان لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل، كالذكر والفكر وتخليص النية، فان الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح، والناس عند الأكل على أقسام: (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك، وهؤلاء هم أولو الألباب. (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطرار إليها، ويتمنون الإستغناء عنه، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته، وهؤلاء هم الزهاد. (وقسم) يرون فيه خالقه، ويشاهدون في الصنع الصانع، ويترقون منه إلى صفات الخالق، من حيث إن كل معلول اثر من العلة، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته، فمشاهدته تذكر العلة، بل التأمل يرشدك إلى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وايجابها لحضوره عند وظهوره لديك وتوجهه إليك وقربه منك اشد واقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك، وسر ذلك ظاهر واضح. وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع والخالق في كل مخلوق، هم العرفاء المحبون، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب إليه اشتغل قلبه بالمحبوب، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر إليه من الموجودات هو صنع الله ـ تعالى ـ، فله في النظر منها إلى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت. (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة، وليس نظرهم إلى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم، وهؤلاء اكثر أهل الدنيا.

وثالثها ـ أي ثالث مقامات المرابطة وأعمالها ـ هو (المحاسبة) بعد العمل، فان العبد كما يختار وقتاً في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق، ينبغي له أن يختار وقتاً في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء. وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة. وقد ورد في الأخبار: أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب. ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه اتم من محاسبة شريكه، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة، إذ العاقل المعتقد به مع اهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح، إذا علم ان محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أو توجب خفته، كيف يجوز له ان يتركها؟.

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل: ان يطالب نفسه اولاً بالفرائض التي هي بمنزلة راس ماله، فان ادتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها، وان فوتتها من اصلها طالبها بالقضاء، وإن ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل، وان ارتكب معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه. وكما انه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، كذلك ينبغي ان يفتش من افعال النفس ويضيق عليها، وليتق غائلتها وحيلتها، فانها خداعة مكارة ملبسة. فليطالبها اولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل ان يتولاه غيره في صعيد القيامة، ثم بتصحيح الجواب عن جميع افعاله واحواله: من نظره، وقيامه، وقعوده، ونومه، واكله، وشربه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لم سكن، وعن خواطره، وافكاره، وصفاته

النفسية، واخلاقه القلبية، فان خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع، بحيث ادت الحق في الجميع، ولم يترك شيئاً مما يجب عليها ولم ترتكب شيئاً من المعاصي: حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم، ولم يكن شيئاً باقياً عليها، وان ادت الحق في البعض دون البعض، كان قدر ما ادت الحق فيه محسوباً لها، ويبقى غيره باقياً عليها فيثبته عليها، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته. ثم النفس غريم يمكن ان تستوفى منها الديون، اما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ورابعها ـ وهو آخر مقامات المرابطة ـ (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة، والزامها الرياضات الشديدة، فانه إذا حاسب نفسه، فوجدها خائنة في الأعمال، مرتكبة للمعاصي، مقصرة في حقوق الله، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل، فلا ينبغي ان يهملها، إذ لو اهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها. فينبغي للعاقل ان يعاتبها اولاً ويقول: اف لك يا نفس! اهلكتيني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار، فيا ايتها النفس الأمارة الخبيثة! اما تستحيين وعن عيبك لا تنتهين؟! فما اعظم جهلك وحماقتك! اما تعرفين ان بين يديك الجنة والنار وانت صائرة إلى إحداهما عن قريب؟ فمالك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين؟ اما علمت ان الموت يأتي بغتة من غير أخبار، وهو اقرب إليك عن كل قريب؟ فمالك لا تستعدين له؟ اما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولا تستحيين منه؟ تعصين بحضرته وانت عالمة بأنه مطلع عليك؟ ويحك يا نفس! جرأتك على معصية الله ان كانت لاعتقادك انه لا يراك فما اعظم كفرك، وان كانت مع علمك باطلاعه عليك فما اشد وقاحتك واقل حياؤك، وما اعجبك نفاقك، وكثرة دعاويك الباطلة! فانك تدعين الإيمان بلسانك، وأثر النفاق ظاهر عليك! فتنبهي عن رقدتك وخذي حذرك! لو ان يهودياً اخبرك في الذ اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه! ولو اخبرك طفل بعقرب في

ثوبك نزعتيه! فقول الله وقول انبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الاولياء والحكماء والعلماء اقل تأثيراً عندك من قول يهودي أو طفل؟!... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه، جبراً لما فات منها وتداركا لما فرط فيها، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي ان يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وإذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة، وكذلك يعاقب كل عضو من اعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته، وإذا استخف بصلاة الزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها. وإذا استهان بفقير أعطاه صفو ماله، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات.

وطريق العلاج في إلزام النفس ـ بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات ـ أمران:

الأول ـ تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق (ع): " طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله ـ تعالى ـ فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله ـ تعالى ـ من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع، والجوع والظماء بالنهار، والسهر بالليل، فان مات صاحبه مات شهيداً، وان عاش واستقام اداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله ـ عز وجل ـ :

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين "٣[3].

وإذا رأيت مجتهداً ابلغ منك في الاجتهاد فوبخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثاً على الازدياد عليه، واجعل لها زماماً من الأمر، وعناناً من النهي، وسقها كالرابض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صح اولها وآخرها، وكان رسول الله (ص) يصلي حتى

---

٣ [3] العنكبوت، الآية: ٦٩.

تورمت قدماه، ويقول: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، أراد أن يعتبر به امته. فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت ارباً ارباً، فما أعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق "[4] ٤. قيل لربيع بن خثيم! مالك لا تنام بالليل؟ قال: " لأني اخاف البيات ". والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى اكثر من أن تحصى.

الثاني ـ مصاحبة أهل السعى، والاجتهاد في العبادة، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات، فملاحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعالهم، حتى قال بعضهم: " إذا اعترتني فترة في العبادات، نظرت إلى بعض العبّاد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً ". إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة اجتهاد الاولين، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة ادنى رجل من سلفنا الصالحين. فينبغي أن يعدل عن المشاهدة إلى سماع احوالهم، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع على كيفية اجتهادهم في طاعة الله، يعلم أنهم عباد الله واحباؤه وانهم ملوك الجنة. قال بعض أصحاب أمير المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ: " صلينا خلفه الفجر، فلما سلم انتقل إلى يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد (ص) وما أرى اليوم شيئاً شبههم، وكانوا يصبحون شعثاً غبرا صفرا، فقد باتوا لله سجداً وقياماً. يتلون كتاب الله ـ عز وجل ـ، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم، وكأن القوم باتوا غافلين ". وكان اويس القرني يقول في بعض الليالي: " هذه ليلة الركوع " فيحيى الليل كله في ركعة، ويقول في بعضها "

---

٤ [4] الحديث بطوله مروى عن (مصباح الشريعة): باب ٨١ص١٨٤، مع اختلاف يسير هنا، فصححناه عليه كما كان هناك.

هذه ليلة السجود " فيحيى الليل كله في سجدة. وقال ربيع بن خثيم: " أتيت اويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر، فجلست موضعاً، وقلت: لا أشغله عن التسبيح. فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه، فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع ". وروى: " أن رجلاً من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذها. ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت٥**[5]** عقوبة لها. وبعضهم نظر إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ومر بعضهم بغرفة فقال: متى بنيت هذه الغرفة؟ ثم اقبل على نفسه وقال: تسألين عما لا يعنيك؟! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها ". وروى: " أن ابا طلحة الأنصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة، فتصدق بالحائطة جبراً لما فاته من الحضور في الصلاة ". وكان بعضهم اعتلت احدى قدميه فيصلى على قدم واحدة حتى يصلي الصبح بوضوء العشاء. وكان بعضهم يقول: " ما اخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين صلاة الليل ". وحكى رجل: " أنه نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب٦**[6]** وكان له أهل وبنات، وفي كل ليل يقوم ويصلى إلى السحر، فإذا كان السحر ينادى بأعلى صوته: ايها الركب المعرسون!٧**[7]** أكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب، فيتواثبون بين باك وداع، وقارىء ومتوضئ، وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى "، وهكذا كان عمل عمال الله، وسلوك سالكي طريق

---

٥ [5] النشيش: صوت غليان الماء

٦ [6] المحصب ــ بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد ــ: موضع بمكة على طريق منى، ويسمى (بطحاء).

٧ [7] النعرس: نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من قولهم: عرس القوم.

الآخرة، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء، اشرنا إلى انموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها، ويعلمون ان عباد الله ليسوا امثالنا، بل هم قوم آخرون. قال بعض الحكماء: " إن لله عباداً انعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوز٨**[8]** بحجب العيون، ثم ترجع ومعا طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً، وطريقهم لا يبلغ إليها بالتكليف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء ". فعليك يا حبيبي بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك، واياك أن تنظر إلى أهل عصرك، ولعمرك! قل في امثال زماننا من يذكرك الله رؤيته، ويعينك في طريق الدين صحبته، فان تطع اكثر من في بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله.

ومنها:

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلاً أو آجلاً. وضدها: النية، وترادفها: الارادة والقصد، وهي انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مآلاً. والموافق لغرض النفس إن كان خيراً لها وسعادة في الدنيا أو الدين، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس إلى تحصيله رذيلة، والنقصان والنية له والقصد إليه فضيلة وكمال، وإن كان شراً وشقاوة، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة والنية له وارادته رذيلة. ثم باعث النفس على النية أو الغفلة والكف، إن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه

٨ [8] في القاموس: اللوز ــ بالزاي ــ: الملاذ والملجأ.

القوة كذلك. فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية، وعلى دفع كافر يؤذي المسلمين متعلقة بقوة الغضب، والنية في العبادات مع انضمام التقرب إليها تسمى اخلاصاً. ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وارباب البصيرة، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك، كان بهذا الاعتبار. والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار كما وصف الله الغافلين وقال:

" إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا "[9]. وقال: " أولئك هم الغافلون "[10].

[تنبيه]: الغفلة بالمعنى المذكور اعم من ان يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث إلى ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم، أو مع العلم به ومع النسيان عنه، أو مع التذكر له، وربما خص في عرف أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر. ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات.

تتميم

(الغفلة موجبة للحرمان)

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سعادة الدارين، وتؤدى إلى شقاوة النشأتين، إذ الاهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدى إلى هلاكة الشخص وانقطاع النوع، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن اداء الفرائض والنوافل تنجر إلى ابطال غاية الايجاد ـ اعني بلوغ كل شخص إلى كماله

---

[9] الفرقان، الآية: ٤٤.

[10] الأعراف، الآية: ١٧٨.

المستعد له ـ وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد.

فصل

ضد الغفلة النية ـ تأثير النية على الأعمال ـ النية روح الأعمال والجزاء بحسبها ـ عبادة الاحرار والاجراء والعبيد ـ نية المؤمن من العمل ـ النية غير اختيارية ـ الطريق في تخليص النية.

قد عرفت أن ضد الغفلة النية، وهي انبعاث النفس وتوجهها إلى ما يراه موافقاً لغرضها، وقد عرفت أيضاً ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهي واسطة بين العلم والعمل، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد، وما لم يقصد لم يفعل، فالعلم مقدم على النية وشرطها، والعمل ثمرتها وفرعها، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فانه لا يتم إلا بعلم وشوق وارادة وقدرة. إذ كل إنسان خلق بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع، والمنافي الضار، إذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه، وهو العلم، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه، وهو الشوق، إذ من أدرك الغذاء أو النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب، ما لم يكن شوق إلى التناول والهرب، وعلى القصد والشروع والتوجه إليه، وهو النية، إذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق إليه لا يريده لكونه مؤذياً أو حراماً أو لعذر آخر، وعلى القدرة المحركة للأعضاء إليه ـ أي إلى جلب الملائم أو دفع المضار ـ وبها يتم الفعل، فهي الجزء الأخير للعلة التامة التي بها يتم فعل الفاعل المختار، فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل ولا توجده إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر النية، والنية تنتظر الداعية الباعثة ـ اعني الشوق ـ، والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقاً له، فان كان الشوق صادراً عن القوة البهيمية، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة، كأكل، وشرب، وجماع، وكسب مال، وأمثال ذلك من الالتذاذات الشهوية، كانت النية والقصد أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها، وإن كان مما تقتضيه القوة

السبعية: من دفع مؤذ، أو طلب الاستعلاء، أو تفوق، وامثال ذلك، كانت النية أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلهما أو رذائلهما، وقد ظهر بما ذكر: أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب ـ أعني المقصود المنوي بعد تعلق العلم به ـ وهو الباعث الأول، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثاني، ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء إلى جانب العمل.

تأثير النية على الأعمال

النية روح الأعمال والجزاء بحسبها

عبادة الأحرار والأجراء والعبيد

نية المؤمن خير من العمل

النية غير اختيارية

فصل

(تأثير النية على الأعمال)

العمل غرضه الباعث، أي باعثه الأول، إما واحد: كالقيام للاكرام، أو للهرب من السبع المتهجم عليه، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساوياً أو متفاوتاً: كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر إلى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء، أو بدون استقلال واحد لو انفرد، بل المستقل المجموع، كالمثال المذكور بالنظر إلى من يعطي ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد، أي لا يعطيه قريبه الغني، ولا الأجنبي الفقير، أو مع استقلال بعض دون بعض. بأن يكون للثاني تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث، إن خيراً فخير! كالدخول في المسجد لزيارة الله، ولانتظار الصلاة، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر، وترك الذنوب، وملاقاة الأتقياء وإخوانه المؤمنين، واستماع المواعظ واحكام الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وان شراً فشرك كالقعود فيه للتحدث بالباطل، وملاحظة النساء، والمناظرة للمباهاة والمرآة، وربما كان بعض البواعث خيراً وبعضها شراً: كالتصدق للثواب والرياء، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول، وبعض البواعث الثانية، والعمل الذي باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص. ثم باعث العمل المباح ان كان خيراً بجعله عبادة، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة، وتعظيم المسجد واليوم، ودفع الأذى بالنتن، والاكل لقوة العبادات، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة، والترفه بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة، وان كان شراً بجعله معصية، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة والتزين للزنا، ولا يؤثر في الحرام، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الاقران والاخوان، فالمعاصى لا تتغير موضوعاتها بالنية، بخلاف الطاعات والمباحات، فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالفاسدة تصير اعظم المهلكات، فما اعظم خسران من يغفل عن

النية، ويتعاطى الأعمال تعاطي البهائم المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة، وقد كانت غاية سعى السلف ان يكون لهم في كل شيء نية صحيحة، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء.

ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح، بحيث يترتب عليه الثواب، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي، فان من تلف له مال، فان قال: هو في سبيل الله، كان له أجر، وان سرقه أحد اوغصبه يمكن أن ينوي كونه من ذخائر الآخرة، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن ان يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته، فاياك أن تستحقر شيئاً من نياتك وخطرات قلبك، ولا تقدم على عمل إلا بنية صحيحة، فان لم تحضرك النية توقف، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار، وقد قيل: " ان من دعا اخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في اجابته، فان اجابه فعليه وزران: النفاق، وتعريضه اخاه لما يكرهه لو علمه، وان لم يجبه لم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق! ". فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لانه إذا لم يكن كذلك كان غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله ـ تعالى ـ فقال:

" إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا "١[1].

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم، قال الصادق (ع): " صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها، قال الله ـ عز وجل ـ :

" يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم "٢[2].

---

١ [1] الفرقان، الآية: ٤٤.

٢ [2] الشعراء، الآية: ٨٨ ــ ٨٩.

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوته وضعفه، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله ـ تعالى ـ والحياء منه، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه، في تعب، والناس منه في راحة"٣[3].

فصل

(النية روح الأعمال، والجزاء بحسبها)

النية روح الأعمال وحقيقتها، والجزاء يكون حقيقة عليها، فان كانت خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ كانت ممدوحة، وكان جزاؤها خيراً وثواباً، وان كانت مشوبة بالاغراض الدنيوية كانت مذمومة، وكان جزاؤها شراً وعقاباً، قال الله ـ سبحانه ـ:

" ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه "٤[4].

والمراد بالارادة: النية، لترادفهما ـ كما تقدم ـ واوحى الله إلى داود: " يا داود لاتطاول على المريدين، ولو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم ارضاً يمشون عليها، يا داود! لئن تخرج مريداً من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميداً، ومن كتبته حميداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين ". وقال رسول الله (ص): " انما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ". وانما قال ذلك حين قيل له: ان بعض المهاجرين إلى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين

---

٣ [3] هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة ــ الباب الرابع ص١٣٥ ــ، وفي البحار ــ الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر، باب النية وشرائطها ومراتبها، ص٧٧. ط امين الضرب ــ. لكن المذكور في البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح، فصححناه على البحار، لكون المذكور في البحار اصح مما في المصباح.

٤ [4] الانعام، الآية: ٥٢.

(ص): أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه، كائناً ما كان. دنيوياً كان أو أخروياً. وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو اول ما يعلمونه اولادهم، وكانوا يقولون: انه نصف العلم. وقال (ص): " ان الله لا ينظر إلى صوركم واموالكم، وانما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وانما ينظر إلى القلوب لانها مظنة النية ". وقال (ص): " ان العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة، فتلقى بين يدي الله ـ تعالى ـ، فيقول: القوا هذه الصحيفة، فانه لم يرد بما فيها وجهي، ثم ينادي الملائكة: اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا! انه لم يعمل شيئاً من ذلك. فيقول الله ـ تعالى ـ انه نواه ". وقال (ص): " الناس أربعة: رجل أتاه الله ـ عز وجل ـ علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو اتاني الله ـ تعالى ـ مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يتخبط بجهله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه؟! ". ولما خرج (ص) إلى غزوة تبوك، قال: " ان بالمدينة اقواماً، ما قطعنا وادياً، ولا وطأنا موطئاً يغيظ الكفار، ولا انفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة ". قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله، وليسوا معنا؟! فقال: " حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية ". وفي الخبر: ان رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي بعض الكفار، وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه، فقتل على ذلك فاضيف إلى نيته. وهاجر رجل إلى الجهاد مع أصحاب النبي (ص)، كانت نيته من المهاجرة ان يأخذ أمرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها ـ وتسمى أم قيس ـ فاشتهر هذا الرجل عند أصحاب النبي بمهاجر أم قيس ". وفي أخبار كثيرة: " من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة " كما تقدم، وقد ورد: أنه إذا التقى المسلمان بسيفهما. فالقاتل في النار، وكذا المقتول، لأنه أراد قتل صاحبه. وقال (ص): " إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله ألا لمن قاتل

لتكون كلمة الله هي العليا ". وقال (ص): " من تزوج أمرأة على صداق هو لا ينوى اداءه فهو زان، ومن استدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق، ومن تطيب لله ـ تعالى ـ جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة "٥[5]، وكل ذلك مجازاة على حسب النية. وقال الصادق (ع): " ان العبد المؤمن الفقير ليقول: يارب! ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فإذا علم الله ـ عز وجل ـ ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله، إن الله واسع كريم ". وسئل (ع) عن حد العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤديا، فقال: " حسن النية بالطاعة ". وقال (ع): " وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله ـ تعالى ـ أبدا، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبدا، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ.

" قل كل يعمل على شاكلته "٦[6]

قال: على نيته "٧[7]. وأمثال هذه الأخبار وأكثر من أن تحصى. وأي شبهة في أن عماد الأعمال النيات، والعمل مفتقر إلى النية ليصير خيرا، والنية في نفسها خير وان تعذر العمل، وعون الله ـ تعالى ـ للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره، فرب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، ونقل: " أن بعض المريدين كان يطوف على العلماء ويقول. من يدلني على عمل لا ازال فيه عاملا لله ـ تعالى ـ، فاني لا احب أن تأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من

---

٥ [5] صححنا النبويات كلها على إحياء العلوم: ٤/٣١٠، ٣١١، ٣١٧، باب فضيلة النية.

٦ [6] الإسراء، الآية: ٨٤.

٧ [7] صححنا الأخبار كلها على أصول الكافي ــ الجزء الثاني، باب النية.

عمال الله ـ تعالى ـ فقال له بعض العلماء: أنت قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله، إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به ". ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية، وكون النية حقيقة العمل وعمادا وروحاً له: ان العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه، وانما فائدته للأثر الذي يصل منه إلى النفس من النورانية والصفاء، ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال إليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة. ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال انما هو مع صحة النية وخلوصها، وكونها لله ـ سبحانه ـ من دون شوب الاغراض، بل التأمل يعطي ان هذا الاثر انما هو حقيقة من محض النية، وان كانت حادثة لأجل العمل.

فصل

(عبادة الاحرار والاجراء والعبيد)

قد ظهر مما ذكر: أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب إلى الله والدار والآخرة، أي يراد به وجه الله من حيث هو، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية، أو يراد به التوصل إلى ثوابه، أو الخلاص من عقابه، فمن أراد بعبادته محض وجه الله، واخلصها له لكونه أهلا للعبادة، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله، فاحبه واشتاق إليه، ولا يريد سواه، ولا يبتهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه إليه بطاعته. فجزاؤه أن يحبه الله ويجتبيه، ويقربه إلى نفسه وبدنه قرباً معنوياً ودنوا روحانياً، كما قال في حق بعض من هذا صفته:

" وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب "٨[8].

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله: " إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك ".

---

٨ [8] ص، الآية: ٢٥، ٤٠.

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب، نظراً إلى انه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهرا عالما، وان له جنة ينعم بها المطيعين، ونارا يعذب بها العاصين، فعبده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره: فجزاءه بمقتضى نيته ان يدخله جنته، وينجيه من ناره، لأن جزاء الأعمال على حسب النيات، كما اخبر الله ـ تعالى ـ عنه في غير موضع من كتابه، فان لكل امرئ ما نوى، ولا تصغ إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد مناف للإخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده، وان من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع إلى نفسه، ودفع الضرر عنها، لا وجه الله ـ سبحانه ـ، فان هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها، فان حقيقة النية عبارة عن انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها وطلبها، إما عاجلا أو آجلا، لا مجرد قول المنادي عند العبادة: افعل كذا قربة إلى الله ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث إلى التقرب، هيهات هيهات! إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس، وما ذلك إلا كقول الشبعان: اشتهي هذا الطعام، قاصدا حصول الاشتهاء، وهذا الانبعاث إذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقرباً إليه، لانهم لا يعرفون من الله ـ تعالى ـ إلا المرجو والمخوف، فغاية مرتبتهم ان يتذكروا النار ويحذروا أنفسهم عقابها، ويتذكروا الجنة ويرغبوا أنفسهم ثوابها، وخصوصاً من كان ملتفتاً إلى الدنيا، فانه قلما تنبعث له داعية إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة، فضلا عن عبادته على نية اجلال الله ـ تعالى ـ لاستحقاقه الطاعة والعبودية، فانه قل من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها، فلو كلف بها لكان تكليفاً بما لا يطاق، وليس معنى الإخلاص في العبادة إلا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس، كمدح الناس، ونيل المال، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك، وظاهر انه لا تنافيه ارادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة، وان كان من جنس المألوف في الدنيا، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً، إذ كل ما وعد به الجنة واوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب واوعد عليه. وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار اكثر من ان يحصى، قال الله ـ سبحانه ـ :

" ويدعوننا رغباً ورهباً "٩[9]

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا شيئاً مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغني عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه. ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة باحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته إلى إحداهما وهو لا يشعر به.

ومما يدل صريحاً على ما ذكرناه قول الصادق (ع): " العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ خوفاً، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله ـ تبارك وتعالى ـ طلب الثواب، فتلك عبادة الاجراء. وقوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ حباً له، فتلك عبادة الاحرار، وهي افضل العبادة "١٠**[10]**. وهذا يدل على ان العبادة على الوجهين الاولين لا تخلو من فضل أيضا، فضلا عن أن تكون صحيحة. نعم، لا ريب في أن العبادة على الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين، فان من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المصنوعة من الطين، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن وتلتفت إلى صاحبتها وتألف بها، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة اعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال النسوان الجميلة والخنفساء، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه، واي نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؟

فصل

(نية المؤمن خير من العمل)

---

٩ [9] الأنبياء، الآية: ٩٠.

١٠ [10] صححنا الرواية على أصول الكافي: الجزء الثاني، باب العبادة.

لما عرفت ان النية روح العمل وحقيقته، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل إلى الله ـ تعالى ـ وتوقفه على النية، فهي خير من العمل، بمعنى أن العمل إذا حلل إلى جزئيه يكون جزؤه القلبي ـ اعني النية ـ خيرا من جزئه الجسماني ـ اعني ما يصدر من الجوارح ـ، والثواب المترتب عليه اكثر من الثواب المترتب عليه، ولذا قال الله ـ سبحانه ـ :

" لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم "١١[11].

فان المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها ايثارا لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم، وميل القلب انما يحصل عند جزم النية والهم، وان عاق عن العمل عائق، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)، والتقوى صفة القلب، ولذا ترى ان المجامع امرأته على قصد انها غيرها آثم، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته، ولذا ورد: أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، لان هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى، وهو غاية الأعمال والحسنة، وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا. وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور: " نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله ". وكل عامل يعمل على نيته.

وحاصله: أن كل طاعة تتضمن نية وعملا، وكل منهما من جملة الخيرات، وله أثر في المقصود، وتكون النية خيرا من العمل وأثرها اكثر من اثره. والغرض: أن للمؤمن اختيارا في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما، أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر.

فان قيل: ما ذكرت لا يفيد ازيد من ان العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيرا وذا ثواب. وإذا كان بدونها لا يكون خيرا ولا يكون له ثواب، والمقصود كون النية خيرا من العمل في الصورة الأولى وكون ثوابها اعظم، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت.

---

١١ [11] الحج، الآية: ٣٧.

قلت: ذلك وان ظهر اجمالا، لا انه لابد لتوضيحه لتظهر جلية الحال، فنقول:

الوجه في كون النية خيرا من العمل وراجحة عليه في الثواب: انه لا ريب في ان المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله ـ سبحانه ـ، والوصول إلى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها إلى الله ـ سبحانه ـ، فإذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه إلى الله ـ تعالى ـ كان ضعيفاً غير راسخ، وانما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الأخر، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس، وأن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها إلى صفة النفس ـ اعني التوجه والميل إلى الله سبحانه ـ، فالنفس هو الأصل والمتبوع والأمير، والجوارح كالخدم والأتباع، وصفات القلب هي المقصودة ذاتها، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس ـ اعني الميل والنية والتوجه ـ ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض، وثوابه أعظم من ثوابه.

ومن المعاني الصحيحة للحديث: أن المؤمن بمقتضى ايمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها. أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول إلى اسبابها، كالذي ينوي إن آتاه الله مالا ينفقه في سبيله، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الأنفاق، فهذا نيته خيرا من عمله، وايضاً المؤمن ينوي دائماً أن تقع عباداته على احسن الوجوه، لأن ايمانه يقتضي ذلك. ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك. ولا يأتي بها كما يريد، فما ينويه دائماً خير مما يعمل به في كل عبادة. وإلى هذا أشار الباقر (ع): " نية المؤمن خير من عمله، وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شر من علمه، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه ". وقيل للصادق (ع): سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال (ع): "لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين،

فيعطي ـ عز وجل ـ على النية ما لا يعطي على العمل " ثم قال: "إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته وتكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة ". وبعض الأخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكده أيضا. وقيل: معنى الحديث: " إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلا نية ". وفيه: أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً. فلا معنى للترجيح في الخيرية، وقيل: سبب الترجيح: " إن النية سر لا يطلع عليه إلا الله، والعمل ظاهر، وفعل السر أفضل ". وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً، إلا أنه ليس مراداً من الحديث، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله ـ تعالى ـ بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذي هو الذكر والتفكر، مع اشتراك النية والعمل في السرية، وبداهة كون الذكر والتفكر خيراً من نيتهما.

فصل

(النية غير اختيارية)

النية غير داخلة تحت الاختيار، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً، وهذا الميل إذا لم يكن حاصلاً للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الاخطار بالبال والاجراء على اللسان، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن اشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه، فلا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه، إلا باكتساب اسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وإنما قد تنبعث النفس إلى الفعل اجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه قصده نحوه وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً، وإذا اعتقد فانما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والأحوال والأعمال، فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية اجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة

من الطاعات إذا لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرني نية، وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب وروى: " أنه اتى الصادق (ع) مولى له، فسلم عليه وجلس، فلما انصرف (ع) انصرف معه الرجل، فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل، فقال له ابنه إسماعيل: يا أبه! ألا كنت عرضت عليه الدخول؟ فقال: لم يكن من شأني إدخاله، قال: فهو لم يكن يدخل قال: يا بني! إني اكره أن يكتبني الله عراضاً ".

. الطريق في تخليص النية
الكراهة
الشوق

تعلق الحب بجميع القوى

تتميم

(الطريق في تخليص النية)

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية إيمانه بالشرع، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية، وإذا قوى ايمانه فربما انبعث من نفسه رغبة إلى فعل الطاعة مع خلوص النية، مثلاً من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة، فينبغي له أن يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد (ص)، ويدفع عنه نفسه جميع المنفرات عن الولد، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره، وإذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب.

ومنها:

الكراهة

وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب، فإذا قويت سميت مقتاً، وضدها الحب، وهو ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً.

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد أمور متناسبة مترتبة بعضها على بعض، وكذا اضدادها ـ اعني الشوق والنية والحب والإنس ـ أمور متناسبة يترتب بعضها على بعض، فنحن هنا نشير اجمالا إلى معانيها والفرق بينها، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب.

فنقول: قد عرفت ان الغفلة والنية ضدان، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاثها إلى ما فيه غرضها الملائم اما عاجلاً أو آجلاً، واما عدم الرغبة والشوق فهما ضدان ومبدآن للغفلة والنية.

بيان ذلك: ان معنى عدم الرغبة ظاهر، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشيء الذي لم يصل إليه وكان مفقوداً عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق. ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فان الشوق مجرد الرغبة إلى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس إلى طلبه في مفهومه، والنية هي الانبعاث المذكور، فالشوق مبدأ النية، والنية مترتبة عليه، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما أيضاً ـ اعني عدم الرغبة والغفلة.

واما (الكراهة والحب): فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم، وعن ميله إلى الملذ، سواء انبعثت النفس عن طلبه ام لا، وبهذا يفترق الحب عن النية، فان النية هي انبعاث النفس، وهو مغاير لمجرد الميل، بل الميل منشأ للانبعاث، وسواء حصل الوصول إلى الملذ أم لا، وبهذا يفترق عن الشوق، فان الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول، فالشوق والنية والارادة لا ينفكان عن الحب، والحب يكون مقارنا لهما ألبته، فإذا حصل الوصول إلى المطلوب زال الشوق والارادة وبقى الحب بدونهما. وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة.

وأما (الانس): فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه، والبعد عبارة عن عدم الوصول إلى المحبوب أو الوصول إلى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته، لعدم الرغبة إليه أو للتنفر عنه، فالحب منشأ الانس، والإنس يترتب عليه، وهو غاية المحبة، فلا يخلو انس عن المحبة، والمحبة قد تكون بدونه، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوباً للقوة العاقلة، كالعلم بحقائق الأشياء، وقد يكون مطلوباً للقوة الغضبية، كالاستيلاء والغلبة، وقد يكون مطلوباً للقوة الشهوية، كالمال والازواج، وعلى كل تقدير تكون الأمور المذكورة ـ اعني عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد ـ واضدادها ـ اعني الشوق والارادة والحب والإنس ـ متعلقة بتلك القوة، معدودة من رذائلها أو فضائلها. ثم المحبوب ان كان يستحسن حبه وطلبه شرعاً وعقلاً، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والإنس من الفضائل واضدادها من الرذائل، وان كان مما يذم حبه وطلبه شرعاً وعقلاً كان بالعكس.

فصل

الشوق ـ افضل مراتب الشوق الشوق إلى الله. تعلق الحب بجميع القوى ـ أقسام الحب بحسب مباديه ـ لا محبوب حقيقة إلا الله ـ الشهود التام هو نهاية درجات العشق ـ سريان الحب في الموجودات ـ رد المنكرين لحب الله ـ معرفة الله اقوى سائر اللذات ـ تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه ـ الطريق إلى الرؤية واللقاء ـ تفاوت المؤمنين في محبة الله ـ الواجب اظهر الموجودات ـ علائم محبة الله ـ معنى حب الله لعبده ـ الحب في الله والبغض في الله ـ الوفاء في الحب ـ الانس ـ الانس قد يثمر الادلال.

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة.

واما الشوق، فنقول في بيانه: قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشيء عند غيبته، فان الحاصل الحاضر لا يشتاق إليه، إذ الشوق طلب يسوق إلى نيل امر، والموجود لا يطلب، فالشوق لا يتصور إلا إلى شيء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه، فما لا يدرك أصلاً لا يشتاق اليه، إذ لا يتصور ان يشتاق أحد إلى شخص لم يره ولم يسمع وصفه، وما ادرك بكماله لا يشتاق إليه أيضا، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والوصل إليه من جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق، فالشوق يختص تعلقه بما ادرك من وجه دون وجه، وهذا انما يكون باحد وجهين:

(أحدهما) ان يتضح الشيء اتضاحاً ما، ولم يستكمل الوضوح، فاحتاج إلى استكماله. فيكون الشوق إلى ما بقى من المطلوب مما لم يحصل. مثال ذلك: ان من غاب عنه معشوقه، وبقى في قلبه خياله. يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، ومن رأى معشوقه في ظلمة، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته، يشتاق إلى استكمال رؤيته باشراق الضوء عليه، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق، كما انه لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده.

(ثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب، ووصل اليه، وعلم اجمالا ان له كمالات اخر، ولم يدركها ولم يصل إليها، فيكون له شوق إلى ادراك تلك الكمالات. مثال ذلك: ان يرى وجه محبوبه، ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه، فيشتاق إلى رؤية ذلك.

فصل

(افضل مراتب الشوق الشوق إلى الله)

افضل مراتب الشوق هو الشوق إلى الله - سبحانه - وإلى لقائه، وهي المظنة إلى الوصول إليه، وإلى حبه وانسه والتقرب لديه، وهو رأس مال السالكين، ومفتاح أبواب السعادة للطالبين، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين، فلا يخلو عارف من الشوق إلى الله:

أما الوجه الأول، فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن بلغ غاية الوضوح، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقيني، (لا) سيما إذا انضاف إليها شواغل الدنيا، فكمال الوضوح في الأمور الإلهية إنما هو بالمشاهدة واشراق التجلي، ولا يكون ذلك في هذا العالم، بل يكون في الآخرة، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين إلى الله - سبحانه -. وهو الشوق إلى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما.

وأما الثاني، فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عارف بعضها، وتبقى أمور غير متناهية خفية عنه، والعارف اجمالا وجودها، وكونها معلومة لله - تعالى، ويعلم أن ما غاب من علمه من المعلومات اكثر مما حضر، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها اصلاً، لا مع الوضوح ولا مع الابهام والاجمال، والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة إذا حصل الشهود واللقاء المعنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وأفعاله ما هو معلوم لله - تعالى - وهو محال، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة، فتمتنع احاطة الإنسان بها، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقى من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له، فلا يسكن قط شوقه، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها، فيشتاق إليها ألبته، وإذا كان اصل الوصال واللذة حاصلاً، فربما كان الشوق إلى المراتب التي فوق مرتبتها شوقاً

لذيذاً لا يظهر فيه ألم، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهما متوالية إلى غير النهاية، وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدريج، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى إليها، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له المه، فان امكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا، لكان حصول المعارف والابتهاجات والانوار وتجددها في الآخرة ممكناً، وإن لم يكتسب اصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهي إلى حد. وربما كان قوله ـ تعالى ـ:

" نورهم يسعى بين أيدهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا "١[1].

اشارة إلى هذا المعنى، ويكون المراد به إتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة إلى الظهور، ثم إلى زيادة الاستكمال والاشراق، وإن اختص حصول نعم الآخرة وانوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات فيكون ترقي العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له اصله، وعلى هذا، فربما انتهى إلى حد ووقف هناك ولا يتضاعف، وقوله ـ تعالى ـ: " نورهم يسعى.. إلى آخر الآية " يحتمل لهذا المعنى أيضا، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله. (قيل): وقوله تعالى:

" أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً "٢[2]:

يدل على أن الأنوار لابد أن يتزود أصلها في الدنيا، ثم يزداد في الآخرة اشراقاً، فاما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا.

---

١ [1] التحريم، الآية: ٨.

٢ [2]الحديد، الآية: ١٣.

ثم لا يخفى أن تعيين الاصل والفرع للانوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل، وليس لنا طريق إلى القطع بأن أي شيء أصل لاي نور وبهجة، وربما كان المظنون عندنا: أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بأن الواجب ـ سبحانه ـ في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال، وأنه تام فوق التمام، وكل ما سواه من المهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله، وأن ذاته الاقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الاذهان العالية، ولا لمدرك من المدارك المتعالية عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما، لو أمكن أن يكون مدركاً، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله، بل كلما تصور اجمالا فهو فوقه، وكذا صفاته الكمالية وافعاله، وأن صفاته الكمالية: من عظمته، وجلاله، وقدرته، وجماله، وعلمه، وحكمته، وغير ذلك غير متناهية، وليس لها حد وغاية، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوة وكمالا، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال مالا يطيق اشرف الموجودات واقواها لا دراك أولها، فمن عرف ذلك وتيقن به، وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له إلى عالم الآخرة وما فيه، وأن ألطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم إليه، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب إليه والوصول إلى حبه وانسه، فقد وصل إلى أصل كل سعادة ونور وبهجة، لاسيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائلها. وقد ظهر مما ذكر: أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد إلى الله ـ سبحانه ـ والعجب ممن انكر حقيقة الشوق إلى الله ـ سبحانه ـ لانكاره المحبة له ـ كما يأتي ـ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار. ولا ريب في ثبوته ـ أيضاً ـ من الآيات والأخبار: قال الله ـ سبحانه ـ:

" فمن كان يرجو لقاء ربه...." إلى آخر الآية٣[3].

٣ [3]الكهف، الآية: ١١١.

فان الرجاء لا ينفك عن الشوق. وقال رسول الله (ص) في دعائه: " اللهم إني اسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك ". وفي بعض الكتب السماوية: " طال شوق الأبرار إلى لقائي. وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً ". وفي أخبار داود (ع): " إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي ". وفيها أيضا: " أنه تعالى اوحى إلى داود: يا داود! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق الي؟ قال: يا رب! من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر، ونبهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم ادعو بملائكتي، فإذا اجتمعوا سجدوني، فأقول: اني لم اجمعكم لتسجدوني، ولكن دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى، واباهي بهم إياكم، فان قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لاهل الأرض، يا داود اني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، ونعمتها بنور وجهي، فاتخذتهم لنفسي محدثين، وجعلت ابدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلى، يزدادون في كل يوم شوقاً ". واوحى الله إليه أيضا: " يا داود! لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلي، وتقطعت اوصالهم عن محبتي ". وفي بعض الأخبار القدسية: " ان لي عباداً يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إلى واشتاق إليهم، ويذكرونني واذكرهم، واول ما اعطيتهم ان اقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما اخبر عنهم، ولو كانت السماوات والارض وما فيهما في موازينهم لا ستعد بها لهم، واقبل بوجهي عليهم، لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ". وقال الصادق (ع): " المشتاق لا يشتهي طعاماً، ولا يلتذ شراباً، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوى داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ثياباً، ولا يقر قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه، ويناجيه بلسان الشوق معبراً عما في سريرته، كما أخبر الله - تعالى - عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله: (وعجلت إليك رب لترضى)، وفسر النبي (ص) عن حاله: (أنه ما أكل ولا شرب ولا نام، ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه)، فإذا دخلت ميدان الشوق، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا، وودع جميع المألوفات، وأصرفه عن سوى مشوقك، ولب بين حياتك وموتك: لبيك اللهم لبيك! أعظم الله أجرك، ومثل المشتاق مثل

الغريق، ليس له همة إلا خلاصه، وقد نسى كل شيء دونه "[4]٤. وما ورد في الادعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من ان يحصى، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والأُنس تثبت الشوق أيضاً.

وأما (الكراهة والبغض وضدهما ـ اعني الحب ـ) فنقول: قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، والحب الذي هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع إلى الملائم الملذ.

وتوضيح ذلك: أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وادراك، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الإنسان ما لا يعرفه ولم يدركه، فالحب من خاصية الحي الدراك، بعد حصول الادراك بالفعل.

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرك ويلذه، وإلى ما يخالفه ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بالذاذ وايلام، فالقسم الأول يكون مرغوباً عند المدرك، ويسمى رغبة، وميله إليه حباً، والقسم الثاني يكون منفوراً عنده، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضاً، والثالث لا يوصف بميل وكراهة، فلا يوصف بكونه محبوباً، ولا مكروهاً. ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم الملذ ونيله، فالحب الذي هو الميل والرغبة إليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله، هذا فانك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعاً وعقلاً، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل، وإن كان مما يذم حبه، كان بالعكس من ذلك.

فصل

(تعلق الحب بجميع القوى)

---

٤ [4]صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب٩٩، ص١٩٣ ــ ١٩٤.

الحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة، التي هي الحواس الظاهرة، والحواس الباطنة، والقوة العاقلة. فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الجميلة المرئية، والنغمات الموزونة، والروائح الطيبة، والمطاعم النفيسة، والملبوسات اللينة بالنظر إلى الخمس الظاهرة. ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الملائمة الخيالية، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة إلى المتخيلة والواهمة. ومنه ما يتعلق بالعاقلة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالمعاني الكلية، والذوات المجردة. ولا ريب في أن العقلي من الحب واللذات أقوى اللذات وابلغها، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً في حقائق الأشياء وبواطنها من الحس، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة، فتكون لذة العقلة وحبه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن ادراك الحواس اتم وابلغ، ولذا جعل رسول الله (ص) الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا، حيث قال: " حبب إلى من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة "، فان الالتذاذ بالصلاة لذة عقلية، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمّية، وبالنساء نظرية ولمسية.

فان قيل: حقيقة الإنسان نفسه الناطقة، ولها ثلاث قوى، وهي: العاقلة، والشهوية، والغضبية، وقوى اخرى هي: الحواس الظاهرة والحواس الباطنة، وشأن العاقلة ـ كما ذكرت ـ ادراك المعاني الكلية، والحقائق المجردة، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعاني الجزئية، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتي الغضب والشهوة. من الغلبة والاستيلاء والوصول إلى المناكح والمطاعم وضدهما، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره؟.

قلنا: المحب والملتذ أولاً في كل من هذه المدركات هو المدرك، وثانياً وبالواسطة هو النفس، إذ كل ادراك يتعلق باحدى القوى ليصل بالآخرة إلى النفس، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والالم، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لا بد أن يصل إليهما أيضا، فيحصل لهما اللذة أو الالم، وبواسطتهما يصل إلى النفس، فالمدرك أولاً للغلبة أو العجز هو الوهم، فيلتذ أو يتألم، ثم يصل منه أثر الادراك والالتذاذ والالم إلى القوة الغضبية، ويصل منها الاثر إلى النفس فيلتذ أو يتألم، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة، فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطتها للقوة الشهوية، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة، وإن كانت معنى جنسياً شاملاً لجميعها فالأمر ظاهر. وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى.

أقسام الحب بحسب مباديه
لا محبوب حقيقة إلا الله
الشهود التام هو نهاية درجات العشق

فصل

(أقسام الحب بحسب مباديه)

اعلم ان أسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لاجلها على أقسام:

الأول ـ حب الإنسان وجود نفسه وبقاءه وكماله، وهو أشد أقسام الحب واقواها، لان المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة، ولا شئ أشد ملاءمة لاحد من نفسه، ولا هو بشيء اقوى معرفة منه

بنفسه، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه١[١]. وكيف لا يكون حب الشيء لذاته اقوى

"من عرف نفسه فقد عرف ربه".

المراتب، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة، كما بين الشيء ونفسه، فالمحب والمحبوب واحد، وسبب الحب غريزة في الطباع بحكم سنة الله:

" ولن تجد لسنة الله تبديلاً "[٢].

ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده، ومكرها لعدمه وهلاكه، فالبقاء ودوام الوجود محبوب، والعدم ممقوت، ولذا يبغض كل أحد الموت، لا بمجرد ما يخافه بعده، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه، ولذا لو اختطف من غير الم وتعب، واميت من غير ثواب وعقاب، كان كارهاً لذلك، وكما ان دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب، لأن فاقد الكمال ناقص، والنقص عدم بالاضافة إلى القدر المفقود، فالوجود محبوب في اصل الذات وبقائه وفي صفات كماله، والعدم ممقوت فيها جميعاً.

والتحقيق: أن المحبوب ليس إلا الوجود، والمبغوض ليس إلا العدم، وجميع الصفات الكمالية راجعة إلى الوجود، وجميع النقائض راجعة إلى العدم، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة، فإذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض اجزاء وجوده، وبذلك يظهر: أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم، كان اجمع لمراتب الوجودات في لقوة والشدة والعدة، وكانت صفاته الكمالية اقوى واكثر، لكونها من مراتب الوجودات، فالوجود الواجب الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي فيه جميع الوجودات، ويكون محيطاً بالكل، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم، لان الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لاجله، وان لم يصل منه إليه نفع وحظ، لعلمه بأنه خليفته في الوجود بعد عدمه، فكأن بقاءه نوع بقاء له، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه،لما عجز من الطمع في بقاء نفسه، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب إليه

من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله، وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال

نفسه، فانه يرى نفسه كبيراً قوياً لاجلهم، متجملا بسببهم، إذ العشيرة كالجناح المكمل للإنسان[٣]

الثاني ـ حبه لغيره لاجل انه يلتذ منه لذة حيوانية. كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لاجل الجماع، وحب الإنسان المأكولات والملبوسات، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة، وهو سريع الحصول وسريع الزوال واضعف المراتب، لخساسة سببه وسرعة زواله.

الثالث ـ حبه للغير لاجل نفعه واحسانه، فان الإنسان عبد الاحسان، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولذا قال رسول الله (ص): " اللهم لا تجعل لفاجر على يداً فيحبه قلبي ". فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والإحسان، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان إلى القسم الأول، لان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصولة إلى دوام الوجود وكمال الوجود، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود.

والفرق أن الاعضاء، والصحة، والعلم، والطعام، والشراب، والجماع محبوبة لان بها كمال وجوده وهي عين الكمال، وأما الطبيب الذي هو سبب الصحة، والعالم الذي هو سبب العلم، ومعطى الطعام والشراب، والمرأة التي هي آلة الوقاع: محبوبة لا لذواتها، بل من حيث انها وسائل إلى ما هو محبوب لذاته، فاذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، والكل يرجع إلى محبة الإنسان نفسه، فمن أحب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقاً، بل أحب احسانه، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد زاد. وبالجملة: يتطرق إلى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه.

الرابع ـ أن يحب الشيء لذاته، لا لحظ يناله منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به، وذلك كحب الجمال والحسن، فان كل جمال محبوب عند مدركه، وذلك لعين الجمال، لأن ادراك الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فان قضاء الشهوة لذة حيوانية قد يحب الإنسان الصور الجميلة لأجلها. وادراك نفس الجمال لذة اخرى روحانية يكون محبوباً لذاتها. ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم، وبالجهة الثانية ممدوح، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية،

ويكون ممدوحاً إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال، ولأجل التباس السبب في هذا العشق اختلف العقلاء في مدحه وذمه. وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر، مع أن الخضرة والماء الجاري محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية، وقد كان رسول الله (ص) تعجبه الخضرة والماء الجاري. والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والازهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل، حتى الإنسان لتنفرج عنه الغموم بمجرد النظر إليها من دون قصد حظ آخر منها. وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته، ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى ادراك ذاته، ولم يعلموا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة ، إذ يقال: هذا صوت حسن، وهذا طعم حسن، وهذا ريح طيب، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس، لوجودهما في غيرها، فان اكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذا يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شيء من هذه الصفات بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع، والموصوف بها أيضاً محبوب عند من عرف صفاته.

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوباً: أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة (ع) مع أنهم لم يشاهدوهم، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع امواله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه أو متبوعة، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة: من الوع، والتقوى، والتوكل، والرضا، وغزارة العلم، والاحاطة لمدارك الدين، وانتهاضه لافاضة علم الشرع، ونشره هذه الخيرات في العالم، وجملتها ترجع إلى العلم والقدرة، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات، وهما ـ اعني العلم والقدرة ـ غير مدركين بالحواس، مع أنهما محبوبان بالطبع. ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاتما) بالسخاء و (انو شيروان)

بالعدالة، أحبهما القلوب حباً ضرورياً، من دون نظرهم إلى صورهما المحسوسة، ومن غير حظ ينالونه منهما، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه إليهم، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية، كان حبه للمعاني الباطنة اكثر من حبه المعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب سيد الرسل (ص) لجمال صورته الباطنة.

الخامس ـ محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما عن غير ملاحظة جمال، ولا طمع في جاه ومال، بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال النبي (ص): " الارواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف ".

السادس ـ محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع، لاسيما إذا كان من المواضع الغريبة، كالسفن والاسفار البعيدة. والسبب فيه: كون افراد الإنسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الإنسان سمي إنساناً، فهو مشتق من الانس دون النسيان ـ كما ظن ـ، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد، أو بينهم وبين أهل القرى، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة، من جملة أسرار الأمر بالجمعة والجماعة وصلاة العيدين، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد.

السابع ـ محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر، كميل الصبي إلى الصبي لصباه، والشيخ إلى الشيخ لشيخوخته، والتاجر إلى التاجر لتجارته، وهكذا... فان كل شخص مائل إلى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في والوصف والصنعة.

الثامن ـ حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلولة وبالعكس، فان المعلول لما كان مثالا من العلة، ومترشحاً عنها ومنبجسا منها، ومناسباً لها لكونه من سنخها، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منطوية فيها، والمعلول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه فكان كلا منهما في حبه للآخر يحب نفسه.

ثم السبب ان كان علة حقيقية موجدة، تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة. فأقوى أقسام المحبة ما يكون للواجب ـ سبحانه ـ بالنسبة إلى عباده، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه ـ سبحانه ـ، فان محبتهم له من حيث كونه موجدا مخرجا لهم من العدم الصرف إلى الوجود، ومعطياً لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين، ومن حيث انه ـ تعالى ـ تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكمال المطلق، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل (ص): " ما اتخذ الله ولياً جاهلا قط ". وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم، من حيث إن الأب سبب ظاهر لوجود الابن، وإن لم يكن سبباً حقيقياً، بل علة معدة له، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه في ويظنه مثالا من ذاته، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته، ويعد وجوده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له، ويفرح بترجيحه عليه، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال: انه في الآن أفضل من السابق، ومما يؤكد محبته له: أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن، بل هو أضعف، لفقد بعض الأسباب الباعثة له، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وافاضة الصورة الإنسانية عليه، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية، فهو والد روحاني له، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب، وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب، وقد ورد في الحديث: " ان آباءك ثلاثة: من ولدك، ومن علمك، ومن زوجك، وخير الاباء من علمك ". وسئل من ذي القرنين: ان أباك احب إليك ام معلمك؟ قال: " معلمي احب الي، لأنه سبب لحياتي الباقية، وابي سبب لحياتي الفانية ". وقال أمير المؤمنين (ع): " من علمني حرفاً فقد صيرني عبداً ". وعلى هذا ينبغي ان يكون حب النبي (ص) واوصيائه الراشدين (ع) اوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله ـ سبحانه ـ، لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الأول، ولذا قال (ص): " لا يؤمن احدكم حتى اكون احب إليه من نفسه واهله وولده ".

التاسع ـ محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض، كمحبة الاخوان والأقارب. وكلما كان السبب اقرب كانت المحبة اوكد، ولذا تكون محبة الاخوين اشد من محبة أبناء الاعمام مثلا، ومن عرف الله وانتساب الكل إليه، وبلغ مقام التوحيد، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته، ويحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي. ثم قد يجتمع بعض أسباب المحبة اكثرها في شخص واحد، فيتضاعف الحب، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى والده وإلى الخلق، كان حب والده له في غاية الشدة، لاجتماع اكثر أسباب الحب فيه، وربما احب شخصا آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه، وقد تختلف فيهما أسباب الحب، فيحب كل منهما الآخر من جهة، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب، فكلما كان السبب اكثر واقوى كان الحب اشد واوكد.

فصل

(لا محبوب حقيقة إلا الله)

اعلم انه لا مستحق للحب غير الله ـ سبحانه ـ ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا هو، ولو كان غيره ـ تعالى ـ قابلا للحب وموضعا له فانما هو من حيث نسبته إليه ـ تعالى ـ فمن احب غيره ـ تعالى ـ لا من حيث نسبته إليه، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله، وكيف يكون غيره ـ سبحانه ـ من حيث هو، لا من جهة انتسابه إليه، مستحقا للحب، وهو في نفسه مع قطع النظر عنه ـ تعالى ـ وعن انتسابه إليه ليس إلا العدم، والعدم كيف يصلح للحب، فينبغي ان يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة، أي من حيث انها منه ـ تعالى ـ وآثاره، ومعلولاته، واضوائه واظلاله، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة إليه ـ تعالى ـ كالحب، والإنس، والمعرفة، والاطاعة لخصوص النسبة أيضا.

ومما يوضح المطلوب: ان جميع أسباب الحب مجتمعة في حق الله ـ تعالى ـ ولا توجد في غيره حقيقة، ووجودها في حق غيره وهم تخيل ومجاز محض لا حقيقة له.

اما السبب الأول ـ اعني محبة النفس: فمعلوم ان وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له، ولا وجود له من ذاته، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله، فهو الموجد المخترع له، وهو المبقي له، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات الكمال فيه، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء، وناقص بعد بقائه لولا فضله عليه بالتكميل، فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره. وحينئذ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع إلى محبة ربه، وان لم يشعر المحب به، وكيف يتصور ان يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ مع ان من احب الظل احب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل، ومن احب النور احب لا محالة الشمس التي بها قوام النور، وكل ما في الوجود بالاضافة إلى قدرة الله ـ تعالى ـ كالظل بالاضافة إلى الشجر والنور بالاضافة إلى الشمس، إذا الكل من آثار قدرته، ووجوده تابع لوجوده، كما ان وجود الظل تابع لوجود الشخص، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثال انما هو للتفهم، والاضافة إلى اوهام العوام، حيث يتوهمون ان الظل والنور تابعان للشخص والشمس وفايضان عنهما، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما، بل هما فايضان من الله ـ تعالى ـ، موجودان به بعد حصول الشرائط، كما ان اصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه ـ تعالى ـ.

اما السبب الثاني، والثالث ـ اعني الالتذاذ والإحسان، سواء كان متعدياً إلى المحب ام لا: فمعلوم انه لا لذة ولا احسان إلا من الله ـ تعالى ـ، ولا محسن سوى الله، فانه خالق الاحسان وذويه، وفاعل اسبابه ودواعيه، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله، وقطرة من بحار كماله وافضاله.

واما الرابع ـ اعني الحسن والجمال والكمال: فلا ريب في انه ـ تعالى ـ هو الجميل بذاته والكامل بذاته، وهو الجمال الخالص، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة به ـ تعالى ـ، وما يوجد في غيره ـ تعالى ـ من الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات وانما تتفاوت في درجات النقص. وقد عرفت ان الجمال المعنوي اقوى من الجمال

الصوري، ومن كان من أهل البصيرة وكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي اكثر واقوى من حبه للجمال الصوري، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود، وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل، واستناد الجميع إليه، منحصر بالله ـ تعالى ـ، فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوباً، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوبا، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو.

باده‌ء خاك آلودتان مجنون كند   صاف اگر باشد ندانم چون كند٤[٤]

على ان كل جميل بالجمال الظاهر الصوري، أو بالجمال الباطن المعنوي، رشحة من رشحات جماله، وكل كامل فكماله فرع كماله، فكل من احب جميلا احب خالقه وما احب احداً غير الله ـ تعالى ـ، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الأحباب واستار الأسباب، هذا مع ان عمدة جمال المخلوقين انما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب إلى الله ـ تعالى ـ، وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة إلى الله، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة، ومعلوم ان هذه الأمور اضافات إلى الله ـ سبحانه ـ، فحبها يرجع إلى حبه ـ تعالى ـ.

وأما الخامس ـ اعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية: فلا ريب في ان للنفس الناطقة الإنسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها، إذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله، ولذا قال الله ـ سبحانه ـ:

" قل الروح من أمر ربي "٥[٥]. وقال: " إني جاعل في الأرض خليفة "٦[٦].

[redacted]

٥ [5] بني إسرائيل، الآية: ٨٥.

٦ [6] البقرة، الآية: ٣٠.

إذ لم يستحق آدم خلافة الله لا بتلك المناسبة، وبهذه المناسبة ينقطع العبد إلى ربه، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية، وهذه المناسبة لا تظهر ظهوراً تاماً إلا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض، كما قال الله ـ تعالى ـ: " لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه، فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به ". وهذا موضع تزل فيه الاقدام، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر، وآخرون في الحلول والاتحاد، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد، وفساد طرفي التفريط والافراط، واتضحت لهم حقيقة الشر، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها: هم الاقلون. ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والأخلاق الإلهية: كالعلم، والبر، والإحسان، واللطف، وافاضة الخير والرحمة على الخلق، وارشادهم إلى الحق... إلى غير ذلك من الصفات الإلهية، ولذا قيل: تخلقوا باخلاق الله. ولا ريب في ان ذلك يقرب العبد إلى الله، ويصيره مناسباً له. واما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر، وباقي الأسباب أسباب ضعيفة نادرة، اعتبارها في حق الله نقص.

وقد ظهر مما ذكر! أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله ـ تعالى ـ تحقيقاً لا مجازاً، وفي اعلى الدرجات لا ادناها. ثم كل من يحب احداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور ان يحب غيره لمشاركته اياه في السبب. والشركة نقصان في الحب، لا يتصف أحد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه، والله ـ سبحانه ـ هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال، لا وجوداً ولا امكاناً، فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرق إليه نقصان، كمالا تتطرق الشركة والنقصان إلى اوصاف كماله، فهو المستحق لاصل المحبة وكمالها، ولا متعلق للمحبة إلا هو، إلا انه لا يعرف ذلك إلا العارفون من اوليائه واحبائه، كما قال سيد الشهداء (ع) في دعاء عرفة بقوله: " وانت الذي ازلت الاغيار عن قلوب احبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك ".

تكميل

(الشهود التام هو نهاية درجات العشق)

قد صرح اساطين الحكمة: " ان الأشياء المختلفة لا يمكن ان يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينهما الاتحاد والمحبة، واما الأشياء المتماثلة المتشاكلة فيشتاق بعضها إلى بعض ويسر بعضها ببعض، ويحصل بينهما التآلف والحب والوحدة والاتحاد ".

والتوضيح: ان الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها إلى بعض فيحصل بينها التآلف التام، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق، بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف، إذ التغاير من لوازم المادية. وما الماديات فلا يمكن ان يحصل بينهما هذا التآلف والتوحد، ولو حصل بينها تآلف وشوق، فانما هو بتلاقي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات، وليس يمكن ان يبلغ مثل هذه الملاقاة إلى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال. فالجوهر البسيط المودع في الإنسان - اعني النفس الناطقة - إذا صفى عن الكدورات الطبيعة، وتطهر عن الاخباث الجسمانية، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية، انجذب بحكم المناسبة إلى عالم القدس، وحدث فيه شوق تام إلى اشباهه من الجواهر المجردة، ويرتفع منها إلى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي، ومطالعة جمال الخير المحض، وينمحي في انوار تجلياته القاهرة، ويصل إلى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على خاطر، فيحصل له من البهجة واللذة ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً في حالتي التعليق بالبدن والتجرد عنه، إذا استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة:

امروز در آن كوش كه بينا باشى

حيران جمال آن دلا را باشى

شرمت بادا چون كودكان در شب عيد

تـا چنـد در انتظار فـردا بـاشي؟٧[٧]

نعم، الشهود التام، والابتهاج الصافي عن الشوب، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن، فانها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة، إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشية من الطبيعة، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي، ولذا تشتاق أبداً إلى رفع هذا الحجاب، ويقول:

حجـاب چهـره جـان ميشـود غبـار تنـم

خوشـا دمـي كه از أين چهـره پرده بر فكنم

چنين قفس نـه سراي چون من خوش الحانـي است

روم بروضــه رضوان كـه مـرغ آن چمنـم٨[٨]

وهذه المحبة نهاية درجات العشق، وغاية الكمال المتصورة لنوع الإنسان، وذروة مقامات الواصلين، وغاية مراتب الكاملين، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها، كالانس والرضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالصبر والزهد وسائر المقامات. وهذا العشق

---

٧ [7] جاهد اليوم لكي تمسي بصير
ولكـــي يسحرك الحسن المثير

افـــلا تخجل والعمـــر قصير
في مساء العيد كالطفل الغرير

ترقب الصبح
بقلب مستطير؟!

٨ [8] درن الأبدان قد مد على القلب
الغطاءا   ما احيلى ساعة انفض عن
روحي الغشاءا

لم يكن مألف مثلى قفص..
فلأنتفض   عنـــه للرضوان إذ
كـــنت له اشدو غناءا

هو الذي افرط العرفاء وارباب الذوق في مدحه، وبالغوا في الثناء عليه نثراً ونظماً. وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق، ولا كمال إلا هو، ولا سعادة إلا به، كما قيل:

وقيل:

عشق است هر چه هست بگفتیم وگفته اند عشقت بوصل دوست وساند بضرب دست[9] [٩]

جز محبت هر چه بردم سود در محشر نداشت دين ودانش عرض كردم كس بچيزي بر نداشت[10] [١٠]

---

[9] ٩ كل ما في الحياة عشق، وقد قالوا وقلنا: بالسعي وصل الحبيب!

[10] ١٠ لم يفدني في الحشر إلا الغرام! فعلى العلم والرشاد السلام!

سريان الحب في الموجودات
رد المنكرين لحب الله
معرفة الله اقوى سائر اللذات

فصل

(سريان الحب في الموجودات)

اكثر أقسام المحبة فطرية طبيعية، كمحبة المتناسبين والمتجانسين، والعلة والمعلول، ومحبة الجمال وغير ذلك، والارادي الكسبي منها قليل، كمحبة المتعلم للمعلم، وربما أمكن ارجاعه أيضاً إلى الطبيعي. وإذا كان الحب طبيعياً فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون أيضاً طبيعياً، فيكون لذلك افضل من العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي. ثم مع وجود المحبة لا حاجة إلى العدالة إذ هي فرع الكثرة المحوجة إلى الاتحاد القشري، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج إليه، وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة، والمحبة الفطرية ثابتة بينها، وليس شيء من الموجودات خالياً عنها كما أنه ليس شيء منها خالياً عن الوجود والوحدة، وقد صرّحوا بأنه كل الوحدة، فهو سار في جميع الكائنات: من الافلاك والعناصر والمركبات، إذ الحب والشوق إلى التشبه بالفاعل رقص الافلاك وادار رحاها، (بسم الله مجراها ومرساها) والحب هو سبب ميل العناصر إلى اجسادها الطبيعية، وميل المركبات بعضها إلى بعض:

سرّ حب ازلي برهمه اشيا ساريست | ورنه بر گل نزدي بلبل بيدل فرياد١[١]

١ [1] آه لولا الحب يسري في جميع الكائنات
ما على الورد غدا البلبل يزجى النغمات

ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال، وضدها موجباً للفساد والاختلال، ولكل منهما مراتب ودرجات، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان. والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر إلى مراكزها وميل المركبات بعضها إلى بعض، كميل الحديد إلى المغناطيس، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها، كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل، بل يسمونها بالميل والهرب، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العجم من الحيوانات، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض، بل يسمونها بالألف والنفرة.

فصل

(رد المنكرين لحب الله)

قد ظهر مما ذكر: ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والإنس لله ـ تعالى ـ، وأنه المستحق للحب دون غيره، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر إمكان حصول محبة العبد لله ـ تعالى ـ وقال: " لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله، واما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل ".

ولما انكروا المحبة، انكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول ـ مضافاً إلى ما ذكر ـ اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه، واتصاف الأنبياء والأولياء به، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل، فمن شواهد القرآن قوله ـ تعالى ـ:

" يحبهم ويحبونه "٢"[٢]. وقوله: " والذين آمنوا أشد حبا لله "٣"[٣]. وقوله ـ تعالى ـ : " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم..." ـ إلى قوله ـ: " أحب إليكم من الله ورسوله... " إلى آخر الآية٤[٤].

---

٢ [2] المائدة، الآية: ٥٧.

وأما الأخبار الواردة والآثار، فقد قال رسول الله (ص): " لا يؤمن احدكم حتى يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما ". وقال (ص): " الحب من شروط الإيمان ". وقال (ص): " احبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، واحبوني لحب الله ". وقد نظر (ص) إلى بعض اصحابه مقبلاً وعليه اهاب كبش، فقال (ص): " انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون ". وقال (ص) في دعائه: " اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني إلى حبك، واجعل حبك احب الي من الماء البارد ". وفي الخبر المشهور: " ان إبراهيم (ع) قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت: الآن فاقبض ". واوحى الله إلى موسى (ع): " يا ابن عمران! كذب من زعم انه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، اليس كل محب يحب خلوة حبيبة، ها ان ذا يا ابن عمران مطلع على احبائي، إذا جنهم الليل حولت ابصارهم إلى من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين اعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا ابن عمران! هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، فانك تجدني قريباً ". وروى: " ان عيسى (ع) مرّ بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما ارى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حق على الله ان يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة اخرى، فإذا هم اشدّ نحولاً وتغيراً، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما ارى؟ فقالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله ان يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة اخرى، فإذا هم اشد نحولاً وتغيراً، كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما ارى؟ قالوا: حب الله ـ عز وجل ـ فقال: انتم المقربون ". وفي بعض الروايات: " انه (ع) قال الطائفتين الأولين: مخلوقاً خفتم، ومخلوقا رجوتم،

---

٣ [3] البقرة، الآية: ١٦٥.

٤ [4] التوبة، الآية: ٢٥.

وقال للطائفة الثالثة: انتم اولياء الله حقاً، معكم امرت ان اقيم ". وقال رسول (ص): " ان شعيباً (ع) بكى من حب الله ـ عز وجل ـ حتى عمى، فرد الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمى، فرد الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة اوحى الله إليه: يا شعيب! إلى متى يكون هذا ابدلً منك، ان يكن هذا خوفاً من النار فقد اجرتك، وان يكن شوقاً إلى الجنة فقد ابحتك. فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم اني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست اصبر أو اراك. فاوحى الله: اما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران ". وروى: " أنه جاء اعرابي إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟ فقال (ص) : ما اعددت لها؟ قال: ما اعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا اني احب الله ورسوله، فقال له النبي: المرء مع من احب ". وفي أخبار داود: " قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التمستم رضاي ". وفيها أيضا: " يا داود! انك تزعم انك تحبني، فان كنت تحبني فاخرج حب الدنيا عن قلبك، فان حبي وحبها لا يجتمعان في قلب ". وقال أمير المؤمنين (ع) في دعا كميل: " فهبني يا الهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك، فكيف اصبر على فراقك؟ ". وقال (ع): " ان لله ـ تعالى ـ شرابا لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم "٥[٥]. وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة: " أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك ". وقال (ع): " يا من أذاق احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين ". وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين (ع): " وعزتك! لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها، وانست نفسي ببشارتها، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدى محبتك ". وفي

---

٥ [5] لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية ــ (رض).

مناجاته الأخرى: " إلهي فاجعلنا من الذين توشحت اشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم "... ثم قال: " والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، واياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وانجحت له المطالب، وقضيت لهم من وصلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم صافي شرابك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا "... ثم قال: " فقد انقطعت إليك همتى، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادى، ولك لا سواك سهرى وسهادي. ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، واليك شوقي، وفي محبتك ولهى، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علتي، وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي "... ثم قال: " ولا تقطعني عنك، ولا تباعدني منك، يا نعيمي وجنتى! ويا دنياى وآخرتى! ". وقال (ع) أيضاً: " إلهي! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا، إلهي! فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك "... ثم قال: " وهيمت قلبه لارادتك، واجتبيته لمشاهدتك، واخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك "... ثم قال: " اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم معلقة بمحبتك، وافئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من انوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة! يا منى قلوب المشتاقين، وغاية آمال المحبين! اسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي ممن سواك ". وقال (ع) أيضا: " إلهي! ما الذ خواطر الالهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك ". وقال (ع) أيضا: " وغلتي لا يبردها إلا وصلك، ولوعتي لا يطفيها إلا لقاؤك وشوقي إليك لا يبله إلا النظر إلى وجهك، وقراري لا يقر دون دنوي منك، ولهفتي لا

يردها إلا روحك، وسقمي لا يشفيه إلا طبك، وغمي لا يزيله إلا قربك، وجرحي لا يبرؤه إلا صفحك، ورين قلبي لا يجلوه إلا عفوك، ووسواس صدري لا يزيحه إلا امرك "٦[٦]. وقال الصادق (ع): " حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله، والمحب اخلص الناس سراً لله، وأصدقهم قولا، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، واعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه ". وقال أمير المؤمنين (ع): " حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلا اضاء، وسماء الله ما ظهر من تحته شيء إلا غطاه، وريح الله ما تهب في شيء إلا حركته، وماء الله يحيى به كل شيء، وارض الله ينبت منها كل شيء، فمن احب الله أعطاه كل شيء من الملك والملك ". وقال النبي (ص): " إذا أحب الله عبداً من امتي قذف في قلوب اصفيائه وارواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه، فذلك المحب حقاً، طوبى له ثم طوبى له! وله عند الله شفاعة يوم القيامة "٧[٧]. إلى هنا كلام الصادق (ع). وما ورد في الحب من الأخبار والادعية المعصومية أكثر من أن يحصى، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حداً يمكن انكاره، وقد روى: " أن داود (ع) سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: ائت جبل لبنان، فان فيه أربعة عشر نفساً، فيهم شبان وكهول ومشايخ، وإذا أتيتهم فاقرأهم منى السلام، وقل لهم: يقول ربكم: ألا تسألوني حاجة، فانكم أحبائي واصفيائي واوليائي، افرح لفرحكم واسارع إلى محبتكم. فاتاهم داود، فوجدهم عند عين من العيون، يتفكرون في عظمة الله وملكوته، فلما نظروا إلى داود، نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال لهم داود:

---

٦ [6] صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الأخرى على (البحار) باب ادعية المناجاة: مج١٩/١٠٧ ــ ١١٤، ط امين الضرب.

٧ [7] صححنا الأحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) ــ الباب السابع والتسعون، ص١٩٣.

انا رسول الله اليكم، جئتكم لابلغكم رسالة ربكم. فاقبلوا نحوه والقوا اسماعهم نحو قوله، والقوا ابصارهم إلى الأرض، فقال داود: ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فاسمع صوتكم وكلامكم؟ فانكم احبائي واصفيائي واوليائي، افرح لفرحكم واسارع إلى محبتكم، وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة. ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم، وسبح الله كل واحد منهم ومجده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق ".

فصل

(معرفة الله اقوى سائر اللذات)

قد عرفت ان الحب هو الميل إلى الشيء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله، واللذة هي نفس ادراك الملائم الملذ ونيله، وهذا الادراك إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة - أي ان كان المدرك هو القوة العاقلة - عبر عنه بالعلم والمعرفة، وقد عرفت انه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية، والتي هي الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس.

ثم هذا الادراك - اعني العلم والمعرفة - يختلف أيضاً في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك، أي المعلوم. فكما كان المدرك اجل واشرف كان الادراك - أي المعرفة به - اجل واعلى. ولا ريب في ان الواجب - سبحانه - اشرف الموجودات واجلها، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها ويثبت من ذلك: ان اجل اللذات واعلاها هو معرفة الله - تعالى - والنظر إلى وجهه الكريم، ولا يتصور ان يؤثر عليها لذة اخرى إلا من حرم هذه اللذة. وبيان ذلك بوجه اوضح: ان اللذات تابعة للادراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذي خلقت له، فغريزة الغضب لما خلقت للتشفي والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، فلا جرم لذتها في نيل الغذاء، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والإبصار والاستشمام، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنية خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها، فلذتها في العلم والمعرفة، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص

صفات الربوبية، يكون اقوى اللذات والابتهاجات، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه، فيعجب بنفسه، ويلتذ به.

والتحقيق: ان الادراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم، وسائر الادراكات ـ اعني نيل الغلبة والغذاء والاسماع والابصار والاستشمام ـ لا تعد كمالات. ثم ليست لذة كل حلو واحدة، فان لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فان كان في المعلومات ما هو الأشرف والاجل والاعظم والأكمل، فالعلم به ألذ العلوم واشرفها واكملها واطيبها، وليت شعري هل في الوجود شيء اعلى واجمل واشرف واكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها، ومكملها ومربيها، ومبدئها ومعيدها، ومدبرها ومرتبها؟! وهل يتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء اعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية؟ فان كنت لا تشك في ذلك، فينبغي إلا تشك في ان لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغتلم٨[٨] من الجماع، ولذة الفاتر الشهوة منه، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل ولذة النظر إلى الوجه الاجمل، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات، وإنما يعرف اقوى اللذتين من اضعفهما بأن يؤثر عليه، فان المخير بين النظر إلى صورة جميلة وبين استنشاق روايح طيبة، إذا اختار الأول كان عنده الذهن الثاني، والخير بين الاكل

---

٨ [8] الغلمة ــ وزان غرفة ــ: شدة الشهوة. وغلم غلماً: من باب تعب، إذا اشتد شبقه. المغتلم! المنقاد للشهوة.

واللعب بالشطرنج، إذا اختار الثاني كانت لذة الغلبة في الشطرنج اقوى عنده لذة من الاكل، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات.

وحينئذ نقول: لا ريب في ان المعاني واللذات الباطنة اغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء، فان كان عالي الهمة كامل العقل، اختار الرئاسة وترك الاكل، وصبر على الجوع أياماً كثيرة فضلا من مدة قليلة. نعم، ان كان خسيس الهمة ميت القلب، ناقص العقل والبصيرة، كالصبي والمعتوه، ربما اختار لذة الاكل، وفعل مثله ليس حجة. ثم كما ان لذة الرئاسة والكرامة اغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وادركهما، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلا للترجيح ومحلا للكلام، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبتها وذاقها، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له قلب، كما لا تثبت لذة الابصار عند الأعمى، ولذة الاستماع عند الأصم، ولذة الوقاع عند العنين، ولذة الرئاسة عند الصبي المعتوه، وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر إلى وجه الله ـ تعالى ـ وليس له شبه وشكل وصورة؟ فحقيقة الحال كما قيل: " من ذاق عرف ". فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت، ويختار لذة المعرفة بالله، ومطالعة صفاته وافعاله، ونظام مملكته من اعلى عليين إلى اسفل السافلين، فانها خالية عن الانقطاع والمكدورات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق بكثرتهم دائماً، وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل اعظم من السماوات والأرض، ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية الاطراف والاقطار، يرتع في رياضها، ويكرع٩[٩] في حياضها، ويقطع من اثمارها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل هي ابدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم النفس

٩ [9] كرع ــ من باب نفع ــ : هو الشرب بفيه من موضعه.

الناطقة التي هي محل المعرفة، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض، بل اقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية، ميدان للعارفين، يتبوئن منها حيث يشاؤن، من غير حاجة إلى حركة اجسامهم، ومن غير ان يضيق بعضهم على بعض اصلا، إلا انهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف:

" ولكل درجات مما عملوا "١٠[١٠]

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته، وصار قلبه مستغرقا بنعيمها، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها، وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه، فلو ألقي في النار لم يحس به لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، ولعل سيد الرسل (ص) عبر عن هذه اللذة ـ أي لذة مطالعة جمال الربوبية ـ حيث قال حاكياً عن الله ـ سبحانه ـ: " أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ". وهذه اللذة هي المرادة من قوله ـ تعالى ـ:

" فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعينٍ "١١[١١]

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ومع ذلك لا يخو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول إلى كنهها، ما لم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري، ولذلك قال بعضهم: إني اقول : " يارب يا الله! فاجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟! ". ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة، عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة، كما قيل:

---

١٠ [10] الانعام، الآية: ١٣٢، والاحقاف، الآية: ١٩.

١١ [11] السجدة، الآية: ١٧.

كـــانت لقلبـــي أهـــواء مفـــرقة فـــاستجمعت مـــذ رأتك العين اهـــوائى

فصار يحسدني مـــن كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تـــركت للناس دنيـــاهم ودينهم شغـــلا بذكـــرك يـــا دينـــي ودنيـــائى

تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه
الطريق إلى الرؤية واللقاء
تفاوت المؤمنين في محبة الله
الواجبات أظهر الموجودات

فصل

(تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه)

اعلم ان معرفة الله إذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدورة ما ـ كما اشير إليه ـ، إلا أنه اكتسب اصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافاً وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية، إلى أن يصير اجلى واظهر من المشاهدة بمراتب، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء.

مثال ذلك: ان من رأى إنساناً، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وابصر، ادرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لاتحادهما، بل الافتراق انما هو بمزيد الكشف والوضوح، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافاً، فاذاً الخيال أول الادراك، والرؤية استكمال لادراك الخيال، وهي غاية الكشف، لا لأنها في العين، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلي في الصدر أو الجبهة أو أي عضو فرض استحق ان يسمى رؤية. وإذا فهمت هذا في المتخيلات ـ أي المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والاجسام ـ فقس عليه الحال في المعلومات ـ أي ما يدرك بالعقل ـ ولا يدخل في الخيال كذات الباري، وكل ما ليس بجسم، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها، فان لمعرفتها وادراكها أيضاً درجتين: إحداهما: اولى، والثانية: استكمال لها، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي، فتسمى الثانية بالاضافة إلى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية، وهذه

التسمية حق، لان الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما ان سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات، فكذلك سنته ان النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته، لم يحصل لها تمام الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، فإذا ارتفع بالموت حجاب البدن، وخلصت النفس، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا، بل كانت ملوثة بها، إلا ان النفوس مختلفة في ذلك: فمنها: ما تراكم عليه الخبث والصدى، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل. وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد. نعوذ بالله من ذلك. ومنها: ما لم ينته إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب. إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات. وهذه النفوس المتلوثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج إلى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلي الحق فيها، وتطهيرها انما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية. وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات اولها سكرة الموت، وآخرها الدخول في النار، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بانواعها، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها: فمنها: ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع، ومنها: ما يتطهر بها، وينقص عقوبات البرزخ، ومنها: ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الذي تدنست به. فربما كان ذلك لحظة حقيقة، وربما كان سبعة آلاف سنة ـ كما وردت به الأخبار ـ وربما كان اقل أو اكثر، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله ـ سبحانه ـ، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين في النار.

ثم النفوس القابلة للتطهير إذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها، وبلغ الكتاب أجله، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيها جلية الحق، فتتجلى فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالاضافة إلى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلى المرئيات بالاضافة إلى

المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر، بل هو فوقه بمراتب شتى، إذ الرائي في الأول العقل، وفي الثاني البصر، وشتان ما بينهما، فان الاختلاف في مراتب الادراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك، واي نسبة لنورية البصر إلى نورية العقل واشراقه، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا، لان المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى، إذ لا يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، فلا يحصد المرء إلا ما زرع، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه.

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، يكون التجلي أيضاً على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالاضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة إلى اختلاف البذور، إذ يختلف لا محالة: بكثرتها، وقلتها، وجودتها، ورداءتها، وضعفها. ثم كلما كان التجلي والمشاهدة اقوى، كان ما يترتب عليه من حب الله والإنس به اشد واقوى، وكلما كان الحب والإنس أزيد، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة، بل ربما بلغت حداً تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله، وحب الله بقدر معرفته، فاصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ(الإيمان).

فان قيل : اللقاء والمشاهدة ان كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة، وان كانت اضعاف لذة المعرفة، إذ هي في الدنيا ضعيفة. فتضاعفها إلى أي حد فرض لا ينتهي في القوة، إلا ان يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها.

قلنا: هذا الاستحقار والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها، فان من خلا عن المعرفة، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا لا يدرك لذتها، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته، قويت بهجته واشتدت لذته بحيث لا توازنها لذة، فان للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله ـ عز وجل ـ ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوها بها. ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها اصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الطيبة إلى ذوقها واكلها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

ومما يوضح ذلك، ان لذة النظر إلى وجه المعشوق تتفاوت بأمور:

احدها ـ كمال جمل المعشوق ونقصانه.

وثانيها ـ كمال قوة الحب والشهوة وضعفه.

وثالثها ـ كمال الادراك وضعفه، فان الالتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة، أو من بعد، أو من وراء ستر رقيق، ليس كالالتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء.

ورابعها ـ عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها، فان التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات، فلو كان العاشق ضعيف الحب، ناظراً إلى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق، مشغول القلب بمهمات، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلذعه، لم يكن خالياً عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر واشراق الضوء، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية، وفراغ قلبه من المهمات، وحدوث عشق مفرط، وشهوة قوية، بحيث بلغت أقصى الغايات، تضاعفت لذته، بحيث لم تكن للذته الأولى نسبة إليها بوجه. فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها: من الجوع، والعطش، والشبق، والغضب، والحزن، والهم، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق إلى الملأ الأعلى لالتفاتها إلى اسفل السافلين إلى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع

ذلك عن النفس، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وان قويت معرفته لا يمكن ان تكمل لذته وتصفو بهجته، وان ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقى سالماً، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، إلا ان ذلك كالبرق الخاطف، ولا يمكن ان يدوم، إذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن ان يدوم، بل هو آني، ويعرض بعد الآن من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينقصه، وهذه ضرورة قائمة في الحياة الفانية. فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت. وانما الحياة الطيبة بعده، وانما العيش عيش الآخرة، فان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون. ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة، فان المعرفة ـ كما عرفت ـ بمنزلة البذر. وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته قويت المشاهدة واشتدت، وكثر النعيم في الآخرة وعظم، كما انه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن، ولا ريب في ان المعرفة لا تنتهي إلى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة، إذ بحر المعرفة لا ساحل له. والاحاطة بكنه جلال الله محال. فالعارف وان قويت معرفته، ربما احب طول العمر وكره الموت لتزداد معرفته.

ثم أهل السنة قالوا: " ان الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصور والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان: تكون بالعين دون القلب ": (وهو عندنا باطل): إذ الرؤية بالعين محال في حق الله ـ تعالى ـ، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، فكما لا تجوز رؤية الله ـ سبحانه ـ في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا تجوز في الآخرة، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لاهل البصائر ـ اعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء ـ فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد، فان العارفين واولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع احوالهم ومنصرفاتهم، وإن كان الحاصل في الآخرة ازيد انكشافاً واشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها ومجردها عن العلائق الدنيوية ـ كما تقدم مفصلاً ـ، وقد

ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) ـ رحمهما الله ـ باسنادهما الصحيح عن الصادق (ع): " أنه سئل عما يروون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر، فان كانوا صادقين فليملأوا اعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب ". وباسنادهما عن احمد بن اسحاق قال: " كتبت إلى أبى الحسن الثالث (ع) أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس، فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان ذلك التشبيه، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات ". وعن أبى بصير عن الصادق (ع) قال: " قلت له: اخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم! وقد رأوه قبل يوم القيامة. فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ألست بربكم، قالوا: بلى.... ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟! قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك! فاحدث بهذا عنك؟ فقال: لا! فانك إذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين. تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون ". وسئل أمير المؤمنين (ع): " هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك! ما كنت أعبد رباً لم أره. قيل. وكيف رأيته؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الابصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان "[١][1]. وقال سيد الشهداء (ع): " كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين

---

[١] [1] صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): الجزء الأول، باب ابطال الرؤية.
وعلى (الوافي): ١/٦٩، باب ابطال الرؤية.

لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً! "، وقال (ع) أيضا: " تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء "، وقال: " وأنت الذي تعرفت الي في كل شيء، فرأيتك ظاهراً في كل شيء، وأنت الظاهر لكل شيء "٢[٢]. وأمثال ذلك مما ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ اكثر من أن تحصى.

فصل

(الطريق إلى الرؤية واللقاء)

الطريق إلى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران:

أحدهما ـ تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، والتبتل إلى الله بالذكر والفكر، ثم اخراج حب غير الله من القلب، إذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء ـ مثلاً ـ ما لم يخرج منه الخل. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله، إلا أن يكون التفاته إلى الغير من حيث إنه صنع الله ـ تعالى ـ وفعله، ومظهر من مظاهر اسماء الله ـ تعالى ـ، وإلى هذا التجريد، والتفريد الإشارة بقوله ـ تعالى ـ:

" قل الله ثم ذرهم "٣[٣].

وثانيهما ـ تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب، والأول، اعني قطع العلائق، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش، والثاني، أي المعرفة، بمنزلة البذر فيها، ليتولد منه شجر المحبة.

ثم لتحصيل المعرفة طريقان:

---

٢ [2] صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان): ص٢٧٢ –٢٧٤، طبعة الكراوري.

٣ [3] الأنعام، الآية: ٩١.

أحدهما ـ الأعلى، وهو الاستدلال بالحق على الخلق، وذلك بأن يعرف الله بالله، وبه يعرف غيره، أي افعاله وآثاره، وإلى هذا اشير في الكتاب الالهي بقوله:

" أولم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيد "٤[٤].

وهذا الطريق غامض، وفهمه صعب على الأكثرين. وقد اشرنا إلى كيفيته في بعض كتبنا الالهيات.

وثانيهما ـ وهو الادنى، الاستدلال بالخلق على الحق ـ سبحانه ـ وهذا الطريق في غاية الوضوح، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه، وهو متسع الاطراف، ومتكثر الشعوب والأكناف، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات، تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى.

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي "٥[٥].

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق إلى معرفة الله مع وضوحه، انما هو للاعراض عن التفكر والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس. ثم سلوك هذا الطريق، أي الاستدلال على الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته وعظمته، بالتفكير في الآيات الآفاقية والأنفسية، خوض في بحار لا ساحل لها، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الافهام، فان القدر الذي تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضي الاعمار دون ايضاحه، ولا نسبة لما احاط به علمنا إلى ما احاط به علم العلماء، ولا نسبة له إلى ما احاط به علم الأنبياء، ولا نسبة له إلى ما احاط به الخلائق كلهم، ولا نسبة له إلى ما استأثر الله بعلمه، بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً

---

٤ [4] فصلت، الآية: ٥٣.

٥ [5] الكهف، الآية: ١١٠.

في جنب علم الله، ونحن قد اشرنا إلى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكر.

فصل

(تفاوت المؤمنين في محبة الله)

اعلم ان المؤمنين جميعاً مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الإيمان، ولكنهم متفاوتون في قدرها، وسبب تفاوتهم امران:

أحدهما ـ اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا، فان اكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع اسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا، من دون وصول إلى حقيقة معناها، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها واما العارفون، فلهم الخوض في بحر التفكر والتدبر في أنواع المخلوقات، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية، والمصالح العجيبة، التي كل واحد منها كمشعلة في إزالة ظلمة الجهل، والهداية إلى كمال عظمة الله، ونهاية جلاله وكبريائه، فمثل الأكثرين كمثل عامي أحب عالماً بمجرد استماعه انه حسن التصنيف، من دون علم ودراية بما في تصانيفه، فتكون له معرفة مجملة، ويكون له بحسنه ميل مجمل، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه، واطلع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات. ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه، فمن عرف ذلك مجملاً تكون له بحسبه محبة مجملة، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازدادا حبه، فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله ـ تعالى ـ اياها، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الاشكال، لا يكون في معرفة الله وادراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه. ثم كما أن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية، ولا يمكن لاحد ان يحيط بها، وانما ينتهي كل إلى ما يستعد له، فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضاً غير متناهية، وكل عبد ينتهي إلى مرتبة تقتضيها معرفته.

وثانيهما ـ اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب، فان من يحب الله لكونه منعماً عليه ومحسناً إليه، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والإحسان ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرجاء والنعماء. وأما من يحبه لذاته، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان إليه.

فصل

(الواجب اظهر الموجودات)

عجباً لاقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله ـ سبحانه ـ، مع أن الله ـ تعالى ـ أظهر الموجودات وأجلاها، لان البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته، أي ما هو صرف الوجود، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية، قال الله ـ سبحانه ـ:

" الله نور السماوات والارض "٦[٦].

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره، ومبدأ الادراك من المدرك إنما هو الوجود، فكلما ادركته إنما تدرك أولا وجوده، وإن لم تشعر بذلك. ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره، وايضاً كل موجود سوى الله ـ سبحانه ـ يعلم وجوده بقليل من الآثار، فان وجود الحياة لزيد ـ مثلا ـ لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض أخر من اعراض نفسه، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات، وكذا وجود السماء ـ مثلا ـ لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها.

وأما وجود الواجب ـ تعالى ـ فيدل عليه كل شيء، إذ ليس في الوجود مدرك محسوس أو معقول، وحاضر أو غائب، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده، فالسبب في خفائه مع كونه

---

٦ [6] النور، الآية: ٥٣.

أجلى وأظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخفائه، لانه يكل المدارك ويحسرها، فشدة ظهوره ـ سبحانه ـ بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها، فضعفت عن ادراكه. وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش، فان بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا اشرق، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الاشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والارض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب باشراق نوره، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره!ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره، فان الأشياء إنما تستبان باضدادها، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه. فلو اختلفت الأشياء، فدل بعضها على الله ـ تعالى ـ دون بعض، ادركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد، اشكل الامران، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الاعراض يحدث في الأرض، ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها، لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما، وأما الضوء فلا تدركه وحده، لكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين، فعلمنا أن الاجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه. وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير، لا نهدت السماوات والارض، وبطل الملك والملكوت، وادركت التفرقة بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به، وبعضها موجوداً بغيره، لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن

دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل:

خفي لافراط الظهور تعرضت لادراكه أبصار قوم أخافش

وحظ عيون الزرق من نور وجهه لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المؤمنين (ع): " لم تحط به الاوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها ". وقال (ع): " ظاهر في غيب، وغائب في ظهور ". وقال (ع): " لا تجنه البطون عن الظهور، ولا تقطعه الظهور عن البطون، قرب فنأى، وعلا فدنا، وظهر فبطن، وبطن فعلن، ودان ولم يدن ": أي ظهر وغلب ولم يغلب. ومن هناك قيل " عرفت الله بجمعه بين الاضداد ".

علائم محبة الله

معنى حب الله لعبده
الحب في الله والبغض في الله

فصل

(علائم محبة الله)

محبة العبد لله ـ سبحانه ـ له علامات:

الأولى ـ أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه، إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله، وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لاحب الموت لا محالة. وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، ولذا قال (حذيفة) عند موته: " حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم ". قال بعض الأكابر: " لا يكره الموت إلا مريب، لان الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال ".

ثم من يكره الموت، فان كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والاولاد والأموال، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال، بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلاً بما يترتب عليه من لقاء الله ـ تعالى ـ، ولم يجد في قلبه شوقاً إليه مطلقاً، فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافياً لاصل الحب، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال، بحيث لم يجد في قلبه ميلاً إلى ما يترتب على الموت من لقاء اله، بل كان محباً للدنيا إلا أنه كان له شوق إلى لقاء الله ـ تعالى ـ أيضاً، أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله، لان الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله، فان الناس متفاوتون في حب الله، فمنهم من يحبه بكل قلبه، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه، بل يحب معه غيره أيضاً من الاهل والولد والمال، فلا جرم يكون فرحة بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها، وإن كانت كراهته للموت لاجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم

والعمل، لا لحب الاهل والمال، ولا للتأسف على فراق الدنيا، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي اصله، وهو كالمحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيئ أسبابها، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل، وعلامة ذلك: الجد في العمل، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة، والاستعداد للآخرة.

الثانية ـ أن يؤثر مراد الله ـ سبحانه ـ على مراده، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه، كما قيل:

اريد وصاله ويريد هجري   فاترك ما اريد لما يريد

فمن كان محباً لله: يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويحترز عن اتباع الشهوات، ويدع الكسالة والبطالة، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده، ويكون مبتهجاً متنعماً بالطاعة ولا يشغلها، ويسقط عنه تعبها، وقد روى: " أن زليخا لما آمنت، وتزوج بها يوسف (ع)، انفردت عنه، وتخلت للعبادة، وانقطعت إلى الله ـ تعالى ـ، وكان يوسف يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، وإذا دعاها ليلا سوفت إلى النهار، فعاتبها في ذلك، فقالت: يا رسول الله! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك، فاما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه، وما أريد به بدلاً ". ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه، ويحب صحته، والسبب ضعف المعرفة، وغلبة الشهوة، فيعجز عن القيام بحث المحبة.

الثالثة ـ ألا يغفل عن ذكر الله ـ سبحانه ـ، بل يكون دائما مستهتراً بذكره، إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به، فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته، لانه كلامه، ويكون محباً للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته، ويكون له كمال الانس والالتذاذ بمناجاته، وفي أخبار داود: " كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني ".

الرابعة ـ ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء، ولا يفرح بوجود شيء، سوى ما يقر به إلى الله أو يبعده عنه: فلا ينبغي ان يحزن ويجزع في المصائب ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية، ولا

يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة إلى محبوبه، أو على صدور معصية مبعدة، أو على ساعة خلت عن ذكر الله والإنس به.

الخامسة ـ أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله، رحيماً على اوليائه، وشديداً على اعداء الله، وكارهاً لمن يخالفه ويعصيه، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لأحباء المحبوب والمنسوبين إليه، والبغض لأعدائه ومخالفيه.

السادسة ـ أن يكون في حبه خائفاً متذللا تحت سلطان العظمة والجلال، وليس الخوف مضاداً للحب، كما ظن، إذ ادراك العظمة يوجب الهيبة، وادراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين خوف الاعراض، وخوف الحجاب، وخوف الابعاد، وخوف الوقوف، وسلب المزيد. وقال بعض العرفاء: " من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريقهما أحبه الله، فقربه ومكنه وعلمه ".

السابعة ـ كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب الدعوى، تعظيماً للمحبوب واجلالاً له، وهيبة منه وغيرة على سره، فان الحب سر من اسرار المحبوب، فلا ينبغي افشاؤه،، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع، فيكون من الافتراء، وتعظم به العقوبة في العقبى والبلية في الدنيا. نعم، ربما غشيته سكرة في حبه، حتى يدهش فيها، وتضطرب أحواله، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل. فمثله معذور، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد، وأن يطلع على ما اعترف عظماء الإنسان ـ أعني الأنبياء والأولياء ـ من العجز والقصور، وان صنفا واحدا من الاصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، هم أهل المحبة لله، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله ـ وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم ـ سوى الله ـ سبحانه ـ، وما ذكروا غيره، لا ستحيى منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. وروى في بعض الأخبار: " ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله ـ تعالى ـ أن

يعطيه ذرة من معرفته، ففعل ذلك، فحار عقله، وذهل لبه، ووله قلبه، وهام في الجبال، وبقى شاخصا سبعة ايام. لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي أعطاه، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه: (إنا اعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك ان مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت اجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما اعطيته، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك). فقال: سبحانك سبحانك! أنقصه مما أعطيته، فأذهب الله عنه جملة ما أعطاه، وأبقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه، وسكن، وصار كسائر الكمل من العارفين "١[١].

والحق ان حقائق الصفات الإلهية أجل واعظم من ادراك العقول البشرية، ولا يطيق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الاجزاء الغير المتناهية منها، فالوصول إلى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال، فاين يحصل لأحد ما يليق له من المعرفة والمحبة؟ فلو امكن ان تدخل امثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والارضين وما فوقهما واضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة، لامكن أن تدخل في اعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله، وغاية المعرفة ان يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات، وهي أيضاً لو ضوعفت إلى غير النهاية في ازمة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته!.

ومن علامات المحبة الانس والرضا ـ كما يأتي ـ وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في ابيات، فقال:

لا تخدعن فللمحب دلائل   ولديه من تحف الحبيب وسائل

---

١ [1] صححنا الرواية على (إحياء العلوم): ٤/٢٨٨.

منها تنعمه بمر بلائه وسروره في كل ما هو فاعل

فالمنع منه عطية مقبولة والفقر اكرام وبر عاجل

ومن الدلائل ان ترى من عزمه طوع الحبيب وان ألح العاذل

ومن الدلائل ان يرى متبسما والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل ان يرى متفهما لكلام من يحظى لديه سائل

ومن الدلائل ان يرى متقشفا متحفظا عن كل ما هو قائل

ومن الدلائل ان تراه مشمراً في خرقتين على شطوط الساحل

ومن الدلائل خزنه ونحيبه خوف الظلام فما له من عاذل

ومن الدلائل أن تراه باكيا ان قد رآه على قبيح فاعل

ومن الدلائل أن تراه راضياً بمليكه في كل حكم نازل

ومن الدلائل زهده فيما ترى من دار ذل والنعيم الزائل

ومن الدلائل ان تراه مسلما كل الأمور إلى المليك العادل

ومن الدلائل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الثاكل

ومن الدلائل أن تراه مسافراً نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

(معنى حب الله لعبده)

اعلم ان شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله ـ سبحانه ـ يحب العبد، كقوله ـ تعالى ـ:

" يحبهم ويحبونه "٢[٢]. وقوله ـ تعالى ـ: " إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله "٣[٣]. وقوله ـ تعالى ـ: " إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين "٤[٤]. وقوله ـ تعالى ـ: " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم "٥[٥].

وقال رسول الله (ص): " ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ". وقال (ص): " إذا احب الله عبدا لم يضره ذنب ". وقال (ص): " إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فان صبر اجتباه، وان رضي اصطفاه ". وقال (ص): " من أكثر ذكر الله أحبه الله ". وقال (ص) حاكيا عن الله: " لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به ". وقال (ص): " إذا احب الله عبدا، جعل له واعظا من نفسه، وزاجرا من قلبه، يأمره وينهاه "... وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى،

ثم حقيقة الحب ـ وهو الميل إلى موافق ملائم ـ غير متصور في حق الله ـ تعالى ـ، بل هذا انما يتصور في حق نفوس ناقصة، والله ـ سبحانه ـ صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وابداً، إذ لا يتصور تجدده وزواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث انه غير، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وافعاله. وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وافعاله، ولذلك قال بعض العرفاء ـ لما قرىء قوله ـ تعالى ـ: (يحبهم ويحبونه) ـ: " نحن نحبهم، فانه ليس يحب إلا نفسه ". على معنى انه الكل وانه في الوجود ليس غيره. فمن لا يحب إلا ذاته، وصفات ذاته، وافعال ذاته وتصانيف ذاته، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي

---

٢ [2] المائدة، الآية: ٥٧.

٣ [3] الصف، الآية: ٤.

٤ [4] البقرة، الآية: ٢٢٢.

٥ [5] آل عمران، الآية: ٣١.

متعلقة بذاته، فهو إذاً لا يحب إلا ذاته، وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له ـ تعالى ـ بافعاله له، إذ المستفاد من الآيات والأخبار: أن له ـ تعالى ـ خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه اياه من القرب إليه، وإلى ارادته ذلك به في الازل، وإلى تطهير باطنه عن حلول الغير به، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق، ولا يبصر إلا به، ولا ينطق إلا به ـ كما في الحديث القدسي ـ فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، وكل ذلك من فضل الله ـ تعالى ـ ولطفه به.

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيرا وتجددا في صفات الله ـ تعالى ـ، إذا التغير عليه ـ سبحانه ـ محال، لانه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في ازل الآزال، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في مدارج الكمال، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فكلما صار اكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الأمور، واثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل، وأقوى تصرفا في ملكوت الأشياء، صار اقرب إلى الله. ودرجات القرب غير متناهية، لعدم تناهي درجات الكمال، فمثل تقرب العبد إلى الله ليس كتقرب أحد المتقاربين إلى الآخر إذا تحركا معا، بل كتقرب أحدهما مع تحركه إلى الآخر الذي كان ساكنا، أو كتقرب التلميذ في درجات الكمال إلى استاذه، فان التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاع العلم، ويطلب القرب من استاذه في درجات العلم والكمال، والاستاذ ثابت واقف، وان كان التلميذ يمكن ان يصل إلى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهي كمالاته، وأما العبد، كائنا من كان، لا يمكن أن يصل إلى كمال يمكن أن يكون له نسبة إلى كمالاته ـ سبحانه ـ، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة، وعلامة كون العبد محبوبا عند الله. أن يكون هو محبا له ـ تعالى ـ، مؤثرا اياه على غيره من المحاب، وان يرى من بواطن اموره وظواهره انه ـ تعالى ـ يهيئ له أسباب السعادة فيها، ويرشده إلى ما فيه خيره، ويصده عن المعاصي باسباب يعلم حصولها منه ـ سبحانه ـ، انه ـ تعالى ـ يتولى أمره، ظاهره وباطنه، وسره وجهره، فيكون هو

المشير عليه، والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل لهمومه هما واحدا، والمبغض للدنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.

تذنيب

(الحب في الله والبغض في الله)

إعلم ان الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه، ومعناه لا يخلو عن ابهام، فلا بد أن نشير إلى بعض هذه الأخبار، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه.

أما الأخبار: كقول النبي (ص): " ود المؤمن للمؤمن في الله اعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحب في الله. وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله فهو من اصفياء الله ". وقال (ص) لاصحابه: " أي عرى الإيمان اوثق؟ " فقالوا: الله ورسوله اعلم ـ فقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم، الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد ـ فقال رسول الله (ص): " لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن اوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي اولياء الله والتبري من اعداء الله ". وقال (ص): " المتحابون في الله يوم القيامة على ارض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه ـ وكلتا يديه يمين ـ وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل، يقول الناس: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله ". وقال سيد الساجدين (ع): " إذا جمع الله ـ عز وجل ـ الأولين والآخرين، قام مناد فنادى ليسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب. قال: فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، فيقولون: أي حزب أنتم من الناس: فيقولون: نحن المتحابون في الله. قال فيقولون واي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نعم اجر العاملين ". وقال الباقر (ع): " إذا اردت ان تعلم ان فيك خيرا فانظر إلى قلبك، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك. وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك. والمرء مع من

احبه ". وقال (ع): " لو ان رجلا احب رجلا لله لأثابه الله على حبه اياه، وان كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو ان رجلا ابغض رجلا لله، لاثابه الله على بغضه إياه، وان كان المبغض في علم الله من أهل الجنة ". وقال الصادق (ع): " من احب لله، وابغض لله، واعطى لله، فهو ممن كمل ايمانه ". وقال (ع): " ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد اضاء نور وجوههم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابون في الله ". وقال (ع): " وهل الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله؟ ثم تلا هذه الآية:

" حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون "٦[٦] ".

وقال (ع): " ما التقى المؤمنان قط إلا كان افضلهما اشدهما حباً لأخيه ". وقال (ع): " من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له ". والأخبار بهذه المضامين كثيرة٧[٧].

وإذا عرفت ذلك، فلنشر إلى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول:

الحب الذي بين إنسانين، اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية، كالصحبة بحسب الجوار، أو بحسب الاجتماع في سوق، أو مدرسة، أو سفر، أو باب سلطان، أو أمثال ذلك، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله بل هو الحب بحسب الاتفاق، أو لا يحصل بمجرد ذلك، بل له سبب وباعث آخر، وهذا على أربعة أقسام:

الأول ـ أن يحب إنسان إنساناً لذاته، لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، بأن يكون هو في ذاته محبوباً عنده، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة اخلاقه، لاستحسانه له، فان كل جميل لذيذ في حق من ادرك جماله، وكل لذيذ محبوب، واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان

---

٦ [6] الحجرات، الآية: ٧.

٧ [7] صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): ج٢، باب الحب في الله والبغض في الله. وعلى (الوافي): ٣/٣٤٤، باب الحب في الله والبغض في الله.

يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع. ثم ذلك المستحسن، اما أن يكون جمال الصورة، وكمال العقل، وغزارة العلم، وحسن الأخلاق والافعال، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق، ومن دون ملاحة في صورة، ولا غيرها من الاعضاء، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة، فان شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والاشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها، وإلى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله (ص) بقوله : " الارواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف ". فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف، والبغض نتيجة التناكر. ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله، إلا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً، والا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم.

الثاني ـ أن يحبه لا لذاته، بل لينال منه محبوباً وراء ذاته، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية. ولا ريب في أن كلما هو وسيلة إلى المحبوب محبوب، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر.

الثالث ـ أن يحبه لا لذاته، بل لغيره، وذلك راجع إلى حظوظه في الآخرة دون الدنيا، وذلك كحب التلميذ للاستاذ، لأن يتوسل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصود من العلم والعمل سعادة الآخرة، وهذا الحب من جملة الحب في الله، وصاحبه من محبي الله، وكذلك حب الاستاذ للتلميذ، لأنه يتلقف منه العلم، وينال بواسطته مرتبة التعليم، ويترقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء. قال عيسى (ع): " من علم وعمل وعلم، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء ". ولا يتم التعليم إلا بمتعلم، فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فان احبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه، فهو محب لله.

بل التحقيق: أن كل من يحب احداً لصنعته، أو فعله الذي يوجب تقربه إلى الله، فهو من جملة المحبين في الله، كحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين، وحب طباخ يحسن صنعته

في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقرباً إلى الله، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل.... وقس على ما ذكر امثاله، والمعيار أن كل من احب غيره من حيث توسله لأجله إلى فائدة اخروية فهو محب لله وفي الله.

الرابع ـ أن يحبه لله وفي الله، لا لينال منه علماً أو عملاً، أو يتوسل به إلى أَمر وراء ذاته، وذلك بأن يحبه من حيث انه متعلق بالله ومنسوب إليه، إما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق إلى الله، أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً، من تقربه إلى الله، وشدة حبه وخدمته له ـ تعالى ـ ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق به ويناسبه، ولو من بعد، فمن احب إنساناً حباً شديداً، أحب محب ذلك الإنسان واحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثني عليه أو يثني محبوبه، وأحب أن يتسارع إلى رضاء محبوبه، كما قيل:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلب ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله، فهو ان يبغض إنسان إنسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له ـ تعالى ـ فان من يحب في الله لا بد ان يبغض في الله، فانك إن احببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فان عصاه لا بد ان تبغضه، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله، قال عيسى (ع): " تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاء الله بسخطهم ". وروى: " انه ـ تعالى ـ اوحى إلى بعض انبيائه: اما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، واما انقطاعك إلى فقد تعززت بي، ولكن هل عاديت في عدواً، أو واليت ولياً؟ ".

ثم للمعصية درجات مختلفة، فانها قد تكون بالاعتقاد، كالكفر والشرك والبدعة، وقد تكون بالقول والفعل، وهذا إما ان يكون مما يتأذى به غيره، كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر أنواع الظلم، أو لا يكون مما يتأذى به غيره، وهذا إما يوجب فساد الغير، كالجمع بين الرجال والنساء، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور، أو ل يوجب

فساد الغير، كالزنا وشرب الخمر، وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة. وإظهار البغض أيضاً له درجات مختلفة، كالتباعد والهجران، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة، والتغليظ في القول، والاستخفاف والاهانة، وعدم السعي في إطاعته، والسعي في اساءته وافساد مآربه، وبعض هذا أشد من بعض، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك، فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق، والوسط بازاء الوسط، والأضعف بازاء الأضعف، وينبغي ألا يترك أولا النصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتغليظ القول في الوعظ والارشاد، لا سيما إذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبه متأكدة. ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة، كالايمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو امثال ذلك، ينبغي أن يكون مبغوضاً لأجل معصيته ومحبوباً لأجل صفته المحمودة، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد إليه والتوحش عنه، فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك، ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في اهانة من خالفك في جميع اغراضك.

الوفاء في الحب
الأنس بالله
الأنس قد يثمر الادلال
العزلة
السخط
الرضا

تتميم

(الوفاء في الحب)

اعلم ان من تمام الحب للاخوان في الله (الوفاء)، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته إلى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه، وضده (الجفاء)، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة أو بعد الموت بالنسبة إلى أولاده وأحبته، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة، إذ الحب إنما يراد للآخرة، فان انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل، ولذلك قال رسول الله (ص) في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة: " واخوان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ". وروي: " أنه (ص) كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وان كرم العهد من الدين ". فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء والاقارب والمتعلقين، ومراعاتهم اوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه، فان فرحه بتفقد من يتعلق به اكثر من فرحه بتفقد نفسه. إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى ان من قوي حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب. ولا ريب في ان المحبة التي تنقطع ـ ولو بعد الممات ـ لا تكون محبة في الله، إذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها. فما قيل من ان (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) انما هو لدلالته على كون الحب في الله. وبالجملة: الوفاء بالمحبة تمامها. ومن آثار الوفاء ان يكون شديد الجزع من مفارقته، والا يسمع بلاغات الناس عليه، وان يحب صديقه ويبغض عدوه، وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة له وارشاده إلى الحق.

هذا واما البعد والأُنس، فقد عرفت ان الانس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول، والبعد خلافه، والأنس والخوف والشوق كلها من آثار المحبة، وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره، ومما يغلب عليه في وقته، فاذ غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال، انبعثت النفس وانزعجت له وهاجت إليه، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقاً)، وهو بالاضافة إلى أمر غايب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه فيه. فيسمى استبشاره (انساً)، وان كان نظره إلى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة، واستشعر إمكان الزوال والبعد، تألم قلبه بهذا الاستشعار، فيسمى تألمه (خوفاً)، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، فان غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمه ولذته، وغلب عليه الأنس بالله، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كلما يعوق من الخلوة يكون اثقل الأشياء على القلب، كما روى: " ان موسى (ع) لما كلمه ربه، مكث دهراً لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا اخذه الغشيان "، لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه، فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، ومخالط بالبدن، متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر، قال أمير المؤمنين (ع) في وصفهم: " هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بابدان ارواحها متعلقة بالمحل الاعلى، اولئك خلفاء الله في ارضه، والدعاة إلى دينه ".

فصل

(الانس بالله)

من انكر وجود الحب والشوق انكر وجود الانس أيضاً وظناً انه يدل على التشبيه، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية، وعن القصور في طريق المعرفة، والجمود على أحكام

الحس، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة، وقد ظهر ثبوت الانس من بعض الأخبار السابقة، ويدل عليه ما ورد في أخبار داود: " ان الله ـ عز وجل ـ اوحى إليه: يا داود! ابلغ أهل ارضي: اني حبيب لمن احبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكرى، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن اطاعني، ما احبني عبد اعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي، واحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما انتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وآنسوا بي اؤانسكم، واسارع إلى محبتكم ".

فصل

(الأنس قد يثمر الادلال)

قال أبو حامد العزالي: " الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب، فانه يثمر نوعاً من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله ـ سبحانه ـ وقد يكون منكراً بحسب الصورة، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن اقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك واشرف على الكفر. ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذي أمر الله ـ تعالى ـ كليمه موسى (ع) أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى في سبعين الفاً، فاوحى الله ـ عز وجل ـ إليه: كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له (برخ)، فقل له: يخرج حتى استجيب له. فسأل عنه موسى، فلم يعرف، فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق، إذا بعبد اسود قد استقبله، بين عينيه تراب من اثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله ـ عز وجل ـ، فسلم عليه وقال له، ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا، فخرج، فقال في كلامه: ما هذا من فعالك. ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك؟ أتعصت عليك غيومك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ ام نفد ما عندك؟ ام اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخاطئين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو، أم ترينا انك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟!... قال: فما برح حتى

اخضل بنو إسرائيل بالمطر، وانبت الله ـ عز وجل ـ العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، ثم

رجع (برخ)، فاستقبله موسى، فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي، كيف أنصفني؟! فهمّ به

موسى، فاوحى الله إليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات "!![١]١. ولا ريب في ان امثال

هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض، فمن انبساط الانس قول موسى:

" إن هي إلا فتنتك "٢[٢].

وقوله في التعلل والاعتذار، لما قيل له:

" اذهب إلى فرعون إنه طغى "٣[٣]: " ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون "٤[٤]. وقبله " ويضيق صدري "٥[٥]. وقوله: " اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى "٦[٦].

وهذا من غير موسى سوء الادب، لان الذي اقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره. كيف ولم يحتمل من يونس النبي (ع) ما دون هذا الحال، اقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، فنودي عليه إلى يوم الحشر، لولا ان تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. ونهى نبينا ان يقتدى به، فقيل له:

" واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم "٧[٧].

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والأحوال، وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد. قال الله ـ سبحانه ـ:

" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعضٍ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجاتٍ "٨[٨].

فالانبياء والأولياء مختلفون في الصفات والأحوال، ألا ترى ان عيسى بن مريم (ع) كان في مقام الانبساط والادلال. ولا دلالة له سلم على نفسه، فقال:

" والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً "٩[٩].

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس. واما يحيى (ع) فانه اقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه، فقال:

" وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً "١٠[١٠].

وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوا به، وقد قال بعض العلماء:

" قد عددت من أول قوله ـ تعالى ـ:

" إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا "١١[١١].

إلى رأس العشرين آية من اخباره ـ تعالى ـ عنهم، فوجدت به نيفاً واربعين خطيئة، بعضها اكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع، فغفر لهم وعفى عنهم، ولم يحتمل لعزيز في مسألة واحدة: سأل عنها في القدر، حتى قيل: لئن عاد محى اسمه عن ديوان النبوة ". ومن فوائد هذه القصص في القرآن : ان تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون في العلم.

تذنيب

(العزلة)

اعلم ان من بلغ مقام الانس، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس. لان المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله. فلابد لنا من بيان ان الافضل من العزلة والمخالطة ايهما. فان العلماء في ذلك مختلفون. والأخبار أيضاً في ذلك مختلفة. ولكل واحد منها أيضاً فوائد ومفاسد. فنقول: الظاهر من جماعة: تفضيل العزلة على المخالطة مطلقا. والظاهر من الأخرى: عكس ذلك.

نظر الاولين إلى اطلاق ما ورد في مدح العزلة، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها، كقول النبي (ص): " ان الله يحب العبد التقي الخفي ". وقوله (ص): " أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب "، وقوله (ص) لمن سأله عن طريق النجاة: " ليسعك بيتك، وامسك عليك دينك، وأبك على خطيئتك "، وقول الصادق (ع): " فسد الزمان، وتغير الاخوان، وصار الانفراد اسكن للفؤاد "، وقوله (ع): " اقلل معارفك، وانكر من تعرف منهم "، وقوله (ع): " صاحب العزلة متحصن بحصن الله - تعالى -، ومتحرس بحراسته، فيا طوبى لمن تفرد به سراً وعلانية! وهو يحتاج إلى عشر خصال: علم الحق والباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود، وترك العجب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب، وخلوة البيت عما لا يحتاج إليه في الوقت. قال عيسى بن مريم عليهما السلام: (اخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك، واحذر من الرياء وفضول معاشك، واستح من ربك، وابك على خطيئتك، وفر من الناس فرارك من الاسد والافعى، فانهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء، ثم الق الله متى شئت) ". قال ربيع بن خثيم: " إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل، ففي العزلة صيانة الجوارح، وفراغ القلب، وسلامة العيش، وكسر سلاح الشيطان،

والمجانبة من كل سوء، وراحة القلب، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه، إما في

ابتدائه، وإما في انتهائه "١٢[١٢].

وأما فوائد العزلة، فكالفراغ للعبادة، والذكر، والفكر، والاستيناس بمناجاة الله، والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت السماوات والارض، والتخلص عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة: كالغيبة، والرياء، وسائر آفات اللسان، ومسارقة الطبع الأعمال الخفية والأخلاق الردية من الناس، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستخلاص من الفتن والخصومات واخطارها، أو من شر الناس وايذائهم قولاً وفعلا، وقطع طمعه عن الناس، وقطع طمعهم عنه، والخلاص من مشاهدة الظلمة، والفسقة، والجهال، والثقلاء، والحمقى، ومقاساة أخلاقهم.

ونظر الآخرين ـ اعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة ـ إلى اطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة وإلى فوائدها، أما ما ودر في مدحها، كقول النبي (ص): " المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ". وقوله (ص): " من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية " وكالاخبار الواردة في ذم الهجرة عن الاخوان، وقوله (ص): " إياكم والشعاب، وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد ".

وأما فوائد المخالطة: كالتعليم، والتعلم، وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها، واستماع المواعظ والنصائح، ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة، وعيادة المرضى، وزيارة الاخوان، وقضاء حوائج المحتاجين، ورفع الظلم عن المظلومين، وادخال السرور على المؤمنين، والاستيناس بالإخوان، وبأهل الورع والعبادة والتقوى، وهو يروح القلب، ويهيج داعية النشاط في العبادة، وايصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاه واللسان، واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم، وكسر النفس وشهواتها، وادراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم وعدم حصوله في الوحدة، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين، فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجاري أحوالهم.

هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة، وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر، وأنت ـ بعد ما عرفت فوائد كل منهما وغوائله ـ تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الاخر على الاطلاق خطأ، كيف يجوز أن يقال: ان العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من اصوله وفروعه، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها، فضلا عن أن تحصل له التخلية والتحلية. ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولى الأخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز أن يقال: إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والالتذاذ بالطاعات والمناجاة، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية، بل تترتب عليه المفاسد الكثيرة؟.

فالصحيح أن يقال: إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة. فينبغي أن ينظر إلى كل شخص وحاله، وإلى خليطه، وإلى باعث مخالطته، وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة، وما يفوت لاجلها من فوائد العزلة. ويوازن بين ذلك، حتى يظهر الافضل والارجح. ولاختلاف ذلك في حق الاشخاص، بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات. وربما يظهر ـ بعد التأمل ـ أن الافضل لبعض الخلق العزلة التامة، ولبعضهم المخالطة، ولبعضهم إلاعتدال في العزلة والمخالطة. وبما ذكر يظهر أن الافضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق: الخلوة والعزلة، إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والإنس، ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك. ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة. قال أويس القرني: " ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره "، وقال بعضهم : " إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس ". وقال بعضهم: " سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه ". وقال بعض الصالحين: " رأيت في بعض البلاد عابداً خرج من بعض قلل الجبال، فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة. فقلت له: سبحان الله! أتبخل علي بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا! اني قمت في هذا الجبل دهراً طويلا اعالج قلبي في الصبر عن الدنيا واهلها، فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري، فسألت الله ـ تعالى ـ أن يعطيني ذلك. فسكن قلبي عن الاضطراب، وألف الوحدة والانفراد. فلما نظرت إليك خفت ان اوقع في الأول. فاني اعوذ من شرك برب العالمين وحبيب

القانتين. ثم صاح وقال: واغماه من طول المكث في الدنيا! ثم حول وجهه عني وقال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلود وحلاوة الانقطاع إليه! ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان ". وقال بعض الأكابر: " إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة. فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه. فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة ". ومن هنا قيل: " الاستيناس بالناس من علامات الافلاس ". فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والإنس بالله وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله، فالتجرد والخلوة افضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة. فان غاية العبادات وثمرة المجاهدات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر. وفراغ القلب شرط لكل منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

فان قلت : لا منافاة بين المخالطة مع الناس والإنس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والإنس.

قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً والاقبال التام على الله سراً إلا قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك. ثم بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين. فان ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر إلى بعض الناس، وما ورد في فضيلة المخالطة انما هو بالنظر إلى بعض آخر.

ومنها:

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرات الربانية. ويرادفه الانكار والاعتراض. وهو من شعب الكراهة لافعال الله. وهو ينافي الإيمان والتوحيد. وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر، والغافل عن موارد الحكم والمصالح، والاعتراض والانكار.

والسخط لافعال الخالق الحكيم العليم الخبير. وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه. ولعمري! أن من يعترض على فعل الله فهو اشد الجهلاء، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقد ورد في الخبر القدسي: " خلقت الخير والشر. فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه، وويل لمن

خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف! "وفي خبر قدسي آخر: " أنا

الله لا إله إلا انا، من لم يصبر على بلائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ رباً

سواي " وفي مناجاة موسى: " أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا اخذت منه المحبوب سالمني. قال:

فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر، فإذا قضيت له سخط قضائي ". وقي

الخبر القدسي: " قدرت المقادير، ودبرت التدبير، واحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا مني حين

يلقاني، ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني ". وقال الباقر (ع): " ومن سخط القضاء مضى

عليه القضاء، واحبط الله اجره ". وقال الصادق (ع): " كيف يكون المؤمن مؤمناً، وهو يسخط

قسمته، ويحقر منزلته، والحاكم عليه الله، وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلا الرضا ان يدعو

الله فيستجاب له ". وفي بعض الأخبار: " أن نبياً من الأنبياء شكى إلى الله ـ عز وجل ـ الجوع

والفقر والعرى عشر سنين، فما اجيب إليه، ثم اوحى الله ـ تعالى ـ إليه: كم تشكو؟ وهكذا كان بدؤك

عندي في ام الكتاب قبل ان اخلق السماوات والارض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك

قبل ان اخلق الدنيا، أفتريد أن اعيد خلق الدنيا من اجلك؟ ام تريد ان ابدل ما قدرته عليك، فيكون ما

تحب فوق ما احب، ويكون ما تريد فوق ما اريد؟ وعزتي وجلالي! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة

اخرى، لا محونك من ديوان النبوة "١٣[١٣]. وروى انه: " اوحى الله ـ تعالى ـ إلى داود (ع): تريد

واريد وانما يكون ما اريد، فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد، وان لم تسلم لما اريد اتبعتك فيما

تريد، ثم لا يكون إلا ما اريد "١٤[١٤].

وبالجملة: من عرف أن العالم بجميع اجزائه، من الجواهر والاعراض، صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية، وانها النظام الاصلح الذي لا يتصور فوقه نظام، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الاصلحية والخيرية، وعرف الله بالربوبية، وعرف نفسه بالعبودية، يعلم ان السخط والاعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد، ويكون غاية الجهل والخطر، ولذلك لم يكن أحد من الأنبياء ان يقول قط في امر: ليت كان كذا، حتى قال بعض أصحاب النبي (ص): " خدمت رسول الله (ص) عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلت، ولا لشيء لم افعله: لم لم تفعله، ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن: ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصم من اهله، يقول: دعوه، لو قضى شيء لكان ". وروى: " ان آدم (ع) كان بعض اولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون، ويجعل احدهم رجليه على اضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على اضلاعه كذلك، وهو نطرق إلى الأرض لا ينطق، ولا يرفع رأسه، فقال له بعض ولده: يا بات! أما ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا، فقال: يا بني! انى رأيت ما لم تروا، وعلمت ما

لم تعلموا، اني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى

دار الشقاء، فاخاف ان اتحرك حركة اخرى فيصيبني ما لا اعلم "١٥[١٥].

فصل

الرضا ـ فضيلة الرضا ـ رضا الله ـ رد انكار تحقيق الرضا ـ هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا؟ ـ طريق تحصيل الرضا ـ التسليم.

ضد السخط (الرضا)، وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً، قولا وفعلا، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه، وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنى، والراحة والعناء، والبقاء والفناء، والعز والذل، والصحة والمرض، والموت والحياة، ولا يرجح بعضها على بعض، ولا يثقل شيء منها على طبعه، إذ يرى صدور الكل من الله ـ سبحانه ـ وقد رسخ حبه في قلبه، بحيث يحب افعاله، ويرجح على مراده مراده ـ تعالى ـ، فيرضى لكل ما يكون ويرد. وروي: " ان واحداً من ارباب الرضا عمر سبعين سنة، ولم يقل في هذه المدة لشيء كان: ليته لم يكن، ولا لشيء لم يكن: ليته كان " وقيل لبعضهم: " ما وجدت من آثار الرضا في نفسك؟ فقال: ما في رائحة من الرضا، ومع ذلك لو جعلني الله جسراً على جهنم، وعبر عليه الاولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة، ثم يلقوني في النار، وملأ بي جهنم، لا حببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه لم كان كذا، وليت لم يكن كذا، ولم هذا حظي وذاك حظهم ". وصاحب الرضا أبداً في روح وراحة، وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا، وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية، فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا، عاجلاً، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وأجلاً، رضوان الله والنجاة من غضبه ـ تعالى ـ.

فضيلة الرضا
رضا الله
رد إنكار تحقق الرضا
هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا

فصل

(فضيلة الرضا)

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين، واشرف منازل المقربين، وهو باب الله الاعظم، ومن دخله دخل الجنة. قال الله ـ سبحانه ـ:

" رضي الله عنهم ورضوا عنه "١[١].

وعن النبي (ص): " أنه سأل طائفة من اصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: ما علامة ايمانكم؟ فقالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة! "، وفي خبر آخر، قال: " حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء ". وقال (ص): " إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فان صبر اجتباه، فان رضى اصطفاه ". وقال (ص): " اعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم ". وقال (ص): " إذا كان يوم القيامة، أنبت الله ـ تعالى ـ لطائفة من امتي اجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، يتنعمون فيها كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من انتم؟ فيقولون: من أمة محمد (ص)، فتقول: ناشدناكم الله! حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحيي ان نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا ". وقال الصادق (ع): " ان الله بعدله وحكمته وعلمه، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله ـ تعالى ـ، وجعل الهم والخزن في الشك والسخط ". وروي: " أن موسى (ع) قال: يا رب! دلني على أمر فيه رضاك. فقال ـ تعالى ـ : إن رضاي في رضاك بقضائي ". وروي: " ان بني إسرائيل قالوا له (ع): سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى عنا، فقال موسى (ع): إلهي! قد

سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى! قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم "٢[٢]. وقال سيد

الساجدين (ع): " الصبر والرضا رأس طاعة الله، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه فيما احب أو كره، لم يقض الله ـ عز وجل ـ له فيما احب أو كره إلا ما هو خير له ". وقال ـ صلوات الله عليه ـ: " الزهد عشرة اجزاء، اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع، واعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، واعلى درجة اليقين ادنى درجة الرضا ". وقال الباقر (ع): " أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله ـ عز وجل ـ. من عرف الله ـ عز وجل ـ ومن رضى بالقضاء، اتى عليه القضاء وعظم الله اجره ". وقال الصادق (ع): " اعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله ". وقال (ع): " قال الله ـ عز وجل ـ: عبدي المؤمن، لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له، فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، اكتبه يا محمد من الصديقين عندي ". وقال (ع): " عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله ـ عز وجل ـ له قضاء إلا كان خيراً له، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له ". وقال (ع): " ان فيما أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى موسى بن عمران (ع): يا موسى بن عمران! ما خلقت خلقاً احب إلي من عبدي المؤمن، وإني انما ابتليته لما هو خير له، واعافيه لما هو خير له، وازوي عنه لما هو خير له، وأنا اعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، اكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضاي واطاع امري ". وقيل له (ع): بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: " بالتسليم لله،

والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط ". وقال الكاظم (ع): " ينبغي لمن غفل عن الله، ألا

يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه "[٣]٣.

فصل

(رضا الله)

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة: أن رضا الله ـ سبحانه ـ من العبد يتوقف على رضا العبد عنه ـ تعالى ـ، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله ـ سبحانه ـ عنه، وهو اعظم السعادات في الدارين، وليس في الجنة نعيم فوقه، كما قال ـ سبحانه ـ:

" ومساكن طيبةً في جنات عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبر "٤[٤].

وفي الحديث: " إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة، فيقول لهم: سلوني، فيقولون: رضاك يا ربنا! "، فسؤالهم الرضا بعد التجلي، يدل على أنه أفضل كل شيء، وورد في تفسير قوله ـ تعالى ـ: " ولدينا مزيد ": أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها:

احداها: هدية الله، ليس عندهم في الجنان مثلها، وذلك قوله ـ تعالى ـ:

" فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعينٍ "٥[٥].

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فتزيد ذلك على الهدية، وهو قوله ـ تعالى ـ:

" سلام قولاً من ربٍ رحيمٍ "٦[٦].

والثالثة: يقوله الله ـ تعالى ـ: " إني عنكم راض "، وهو افضل من الهدية والتسليم، وذلك قوله ـ تعالى ـ:

" ورضوان من الله أكبر "٧[٧]: أي من النعيم الذي هم فيه.

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له، إلا أنه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة. ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه. ويروه أهل الجنة اقصى الاماني، وغاية الغايات.

فصل

(رد انكار تحقق الرضا)

من الناس من انكر إمكان تحقيق الرضا في أنواع البلاء وفيما يخالف الهوى، وقال المتمكن فيهما: هو الصبر دون الرضا، وهو انما اتى من ناحية انكار المحبة، إذ بعد ثبوت إمكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب. وذلك يكون من وجهين:

أحدهما ـ ان يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالالم، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك المها. ولا تستبعدن ذلك، فان المحارب عند خوضه في الحرب، وعند شدة غضبه أو خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها، فاذ رأى الدم استدل به على الجراحة، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحس بألمها لشغل قلبه. والسر: أن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور، لم يدرك ما عداه، فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم، لولا عشقه، ولا يدرك المه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه، وهذا إذا اصابه من غير حبيبه، فكيف إذا اصابه من حبيبه. ولا ريب في ان حب الله ـ تعالى ـ أشد من كل حب، وشغل القلب به اعظم الشواغل، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال، فمن ينكشف له شيء منها، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه، ولا يحس بما يجري عليه.

وثانيهما ـ إلا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالالم ولا يدركه ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له بعقله، وان كان كارهاً له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فانه يدرك ألمه، إلا انه راض به وراغب فيه، فالمحب الخالص لله، إذا اصابته بلية من الله، وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادخر له فوق ما فاته، رضى بها ورغب فيها وأحبها وشكر الله عليها. هذا إن كان نظره إلى الثواب والاجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق، فضلا عن حب الخالق والجمال الازلى الابدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط والخطأ، فان القلوب إذا وقفت بين جماله وجلاله، فإذا لا حظوا جلاله هابوا، وإذا لا حظوا جماله تاهوا.

ويشهد بذلك حكايات المحبين، على ما هو في الكتب مسطور، وفي الالسنة والافواه مذكور. فان للحب عجائب، من لم يذق طعمها لا يعرفها. وقد روينا: ان أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق (ع)، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك، وهو قطع النسوة ايديهن لا ستهتارهن بملاحظة جماله، حتى ما احسسن بذلك. وروى: " أن عيسى (ع) مر برجل اعمى وابرص، مقعد مفلوج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من الناس! فقال عيسى: يا هذا! أي شيء من البلاء تراه مصروفا عنك؟ فقال: يا روح الله! انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال: صدقت! هات يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وافضلهم هيئة، قد اذهب الله عنه ما كان به، وصحب عيسى وتعبد به ".

فصل

(هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا)

اعلم ان الدعاء غير مناقض للرضا، وكذلك كراهية المعاصي، ومقت اهلها، وحسم اسبابها، والسعي في ازالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي، وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور: أن جميع ذلك يخالف الرضا، إذ كل ما يقصد رده بالدعاء وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره، فيجب للمؤمن أن يرضى به. وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها.

أما الدعاء، فلا ريب في أنا قد تعبدنا به، وقد كثرت ادعية الأنبياء والائمة، وكانوا على أعلى مقامات الرضا، وتظاهرت الآيات وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه، واثنى الله ـ سبحانه ـ على عباده الداعين، حيث قال:

" ويدعوننا رغباً ورهباً "٨[٨]. وقال: " أدعوني أستجب لكم "٩[٩]. وقال: " أجيب دعوة الداع إذا دعان "١٠[١٠].

وهو يوجب صفاء الباطن، وخشوع القلب، ورقة النظر، وتنور النفس وتجليها. وقد جعله لله ـ تعالى ـ مفتاحاً للكشف، وسبباً لتواتر مزايا اللطف والإحسان. وهو أقوى الأسباب لافاضة الخيرات والبركات من المبادي العالية.

فان قيل: ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً، فالتشمر لرده بالدعاء يناقض الرضا.

قلنا: إن الله ـ سبحانه ـ بعظيم حكمته، أوجد الأشياء على التسبيب والترتيب بينهما، فربط المسببات بالاسباب، ورتب بعضها على بعض، وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر، وهو مسبب الأسباب. والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من اسبابها المعينة بحسب اوقاتها، مطابقة لما في القضاء، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي، مطابقة لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى، والعناية عبارة عن احاطة علم الله ـ تعالى ـ بالكل على ما هو عليه احاطة تامة، فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر إلى القضاء. ثم، من جملة الأسباب لبعض الأمور الدعاء والتصدق وامثالهما، فكما أن شرب الماء سبب رتبهُ مسبب الأسباب لإزالة العطش، ولو لم يشربه لكان عطشه باقياً إلى أن يؤدى إلى هلاكه، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاط الردية، ولو لم يشربه لبقيت على حالها، وهكذا في سائر الأسباب، وكذلك الدعاء سبب رتبهُ الله ـ تعالى ـ لدفع البلايا ورفعها، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع.

فلو قيل: لو كان في علم الله ـ تعالى ـ وفي قضائه السابق، أن زيداً ـ مثلاً ـ يدعو الله، أو يتصدق، عند ابتلائه ببلية كذا، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق، ودفع بليته، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البلية، ولم يدع الله، ولم يتصدق، لم تندفع عنه البلية، والحاصل: ان كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الازلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فأي فائدة في سعي العبد واجتهاده؟.

قلنا: هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً في فعله ونفي الاختيار عنه، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا، وكونه من جملة الأسباب المرتبة منه ـ تعالى ـ لحصول مسبباتها. كالتزويج لتحصيل الولد، والاكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد، وغير ذلك. ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضعها.

وأما انكار المعاصي وكراهتها. والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها، فقال:

" ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها "١١[١١]. وقال: " رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم "١٢[١٢].

وفي بعض الأخبار: " من شهد منكراً ورضى به فكأنه قد فعله ". وفي آخر: " لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب، كان شريكا في قتله ". وفي آخر: " إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه "، قيل وكيف ذلك؟ قال: " فيبلغه فيرضى به ".

وأما بعض الكفار والفجار والفساق، ومقتهم والانكار عليهم، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى. قال الله ـ سبحانه ـ:

" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء "١٣[١٣]. وقال: " يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء "١٤[١٤].

وفي الخبر: " إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ". وقال (ص): " اوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ". وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله.

فان قيل: المعاصي ان لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله، والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله

مطلقاً، وذلك تناقض، فكيف السبيل إلى الجمع؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟

قلنا: المقرر عند بعض الحكماء: أن الشرور الواقعة في العالم، من المعاصي وغيرها، راجعة إلى الاعدام دون الموجودات، فلا تكون مرادة له ـ تعالى ـ، ولا داخلة في قضائه، وعند بعضهم أنها داخلة في قضائه بالعرض لا بالذات، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله ـ تعالى ـ بالذات. وعند بعضهم: أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا، فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: أن الاوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم، اعني انها راجعة إلى الاعدام وداخلة في قضائه ـ تعالى ـ بالعرض، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا فوجه الجمع أظهر. ثم، لأَبي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر، لا يروى الغليل ولا يشفي العليل.

فان قيل: بغض أهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركهم، واثبات ذلك مشكل.

قلنا: لا اشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم، ولا سيما فيما يتعلق به التكليف. والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي فالاولى فيها السكوت، والتأدب بآداب الشرع، والرجوع إلى ما ورد من العترة الطاهرة. وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بـ(جامع الافكار).

طريق تحصيل الرضا
التسليم
الحزن
عدم الاعتماد
التوكل
فضيلة التوكل
درجات التوكل
السعي لا ينافي التوكل

فصل

(طريق تحصيل الرضا)

الطريق إلى تحصيل الرضا، أن يعلم أن ما قضى الله ـ سبحانه ـ له هو الاصلح بحاله، وإن لم يبلغ فهمه إلى سيره فيه. مع ان السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء. فان ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة، وتبقى تبعة السخط عليه. فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالالم، كما للعاشق، وان يهون عليه العلم بعظم الثواب التعب والعناء ـ كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر ـ فيفوض أمره إلى الله، ان الله بصير بالعباد.

تتميم

(التسليم)

اعلم ان التسليم، ويسمى تفويضاً أيضا، قريب من الرضا، بل هو فوق الرضا، لانه عبارة عن ترك الاعراض في الأمور الواردة عليه، وحوالتها باسرها إلى الله، مع قطع تعلقه عليها بالكلية، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشيء منها. فهو فوق الرضا، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه، فالطبع ملحوظ ومنظور له، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة إلى الله ـ سبحانه ـ، وفوق مرتبة التوكل أيضا، إذ التوكل ـ كما يأتي ـ عبارة عن الاعتماد في أموره على الله، فهو بمنزلة توكيل الله في اموره، وكأنه يجعل الله ـ تعالى ـ بمثابة وكيله، فيكون تعلقه باموره باقياً، وفي مرتبة التسليم يقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية.

ومنها:

الحزن

وهو التحسر والتألم، لفقد محبوب، أو فوت مطلوب. وهو أيضاً كالاعتراض والانكار، مترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية.

والفرق: ان الكراهة في الاعتراض اشد من الكراهة في الحزن، كما ان ضد الكراهة ـ اعني الحب في ضدهما ـ بعكس ذلك، أي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن اشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض. فان الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط. فالسرور فوق الرضا في الشرافة، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالة، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتهيات الطبيعية، والميل إلى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة، وتوقع البقاء للامور الجسمانية.

وعلاجه: ان يعلم ان ما في عالم الكون والفساد من: الحيوان، والنبات، والجماد، والعروض، والأموال، في معرض الفناء والزوال، وليس فيها ما يقبل البقاء، وما يبقى ويدوم هو الأمور العقلية، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد، واذ تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة، والاماني الباطلة. فلا يتعلق قلبه بالاسباب الدنيوية، ويتوجه بشراشره إلى تحصيل الكمالات العقلية، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة، فيصل إلى مقام البهجة والسرور، ولا تلحقه احزان عالم الزور، كما اشير إليه في الكتاب الالهي بقوله:

" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون "١[١].

وفي إِخبار داود (ع): " يا داود! ما لاوليائي والهم بالدنيا؟ ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، ان محبي من اوليائي ان يكونوا روحانيين لا يغتمون ". والحاصل: ان حب الفانيات

---

١ [1] يونس، الآية: ٦٢.

والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور الفانية، أو يحزن بزوالها. ولقد قال سيد الأوصياء ـ عليه آلاف التحية والثناء ـ: " ما لعلي وزينة الدنيا، وكيف افرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى؟! " بل ينبغي أن يرضى نفسه بالموجود، ولا يغتم بالمفقود، ويكون راضياً بما يرد عليه من خير وشر. وقد ورد في الآثار: " ان الله ـ تعالى ـ بحكمته وجلاله، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين "، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود، فقد فاز بأمن بلا فزع، وسرور بلا جزع، وفرح بلا حسرة، ويقين بلا حيرة، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالاً من سائر طبقات الناس، فان كل حزب بما لديهم فرحون، كالتاجر بالتجارة، والزارع بالزراعة، بل الشاطر بالشطارة، والقواد بالقيادة، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس الأمر ليس إلا لأهل السعادة والكمال، وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال. فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحاناً بما عنده من الكمالات الحقيقية، والسعادات الأبدية، ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية، والحطام الطبيعية، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه (ص):

" ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى "[١][٢].

ومن تصفح فرق الناس، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمره. فالصبيان فرحهم باللعب وتهيئة اسبابه، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم. والبالغون حد الرجولية، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار، وبعضهم بالضياع والعقار، وآخر بالاتباع والأنصار، وفرقة بالنسوان والأولاد، وطائفة بالحرف والصنايع، وبعضهم بالحسب والنسب، والآخر بالجاه والمنصب، وبعضهم بالقوة الجسمانية، وآخر بالجمال الصوري، وطائفة بالكمالات الدنيوية: كالخط، والشعر، وحسن الصوت، والطب، والعلوم الغريبة، وغير ذلك، حتى ينتهي إلى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية، وهم أيضاً مختلفون، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء، حتى يصل إلى من ليس فرحه إلا بالانس بحضرة الربوبية، والاستغراق في لجة أنواره، وسائر المراتب عنده فيء زائل وخيال باطل. ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة، وسائر

الأمور كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. فلا ينبغي للعاقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها. ثم من تأمل، يجد أن الحزن ليس أمراً وجودياً لازماً، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه بسوء اختياره. إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير من الناس، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا، ومع ذلك لا تجدهم محزونين على عدمه، بل فرحون راضون، ولو كان الحزن لازماً لفقد هذا الأمر لكان كن من فقده محزوناً، وليس كذلك. وايضا كل حزن يعرض لاجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور، ولو كان الحزن لاجلها امراً ضرورياً لازماً لما زال أصلا.

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية، مع أنه يعلم ان الدنيا دار الفناء، وزخارفها متنقلة بين الناس، ولا يمكن بقاؤها لأحد، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل إلى الناس على سبيل التبادل والتناوب. ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم، ثم يعطيها غيره. فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به، إذا وصلت إليه نوبة الاستمتاع، وإذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة. وما المال والأهلون إلا ودائع، ولا بد يوماً أن ترد الودائع. فلا ينبغي للعاقل أن يغتم ويحزن لاجل رد الوديعة، كيف والحزن بردها كفران للنعمة؟ إذ اقل مراتب الشكر ان ترد الوديعة إلى صاحبها على طيب النفس، لا سيما إذا استرد الاخس ـ اعني الخبائث الدنيوية ـ، وبقى الاشرف ـ اعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية ـ، فينبغي لكل عاقل إلا يعلق قلبه بالامور الفانية، حتى لا يحزن بفقدها. قال سقراط: " إني لم أحزن قط، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته، ومن سره ألا يرى ما يسوؤه، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً ".

ومنها:

عدم الاعتماد

أو ضعفه في اموره على الله، والوثوق بالوسائط، والنظر إليها فيها. وسببه: اما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، أو كلاهما. فهو من رذائل قوتي العاقلة والغضب. ولا ريب في أنه من المهلكات

العظيمة وينافي الإيمان، بل هو من شعب الشرك. ولذا ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما ورد، قال الله ـ سبحانه ـ:

" إن الذين يدعون من دون الله عباد أمثالكم "١[٣]. وقال: " إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه "١[4]. وقال: " ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون "١[5].

وفي أخبار داود (ع): " ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماوات من يديه، واسخطت الأرض من تحته، ولم ابال بأي واد هلك ". قال رسول الله (ص): " من اغتر بالعبيد اذله الله ". وقيل: " مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته بإنسان مثله ". فينبغي للمؤمن ان يتخلى عنه باكتساب ضده، أعني التوكل، كما يأتي.

فصل

التوكل ـ فضيلة التوكل ـ درجات التوكل ـ السعي لا ينافي التوكل ـ الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل ـ اعقل وتوكل ـ درجات الناس في التوكل ـ تفنيد زعم ـ طريق تحصيل التوكل.

التوكل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله. وبعبارة اخرى: حوالة العبد جميع اموره على الله، وبعبارة اخرى: هو التبري من كل حول وقوة، والاعتماد على حول الله وقوته. وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله، وانه لا حول ولا قوة إلا بالله، وان له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية. فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده، ولم يلتفت إلى غيره، ولا إلى نفسه اصلاً. ومن لم يجد ذلك من نفسه فسببه، إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه. فان القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم، وطاعة له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه إضرار، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر عنه، كما لا يفر من سائر الجمادات. وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل ـ مثلاً ـ فشبه العسل بين يديه بالعذرة، فربما نفر طبعه لضعف قلبه، وتعذر عليه ان يتناوله، مع

يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذرة فيه. فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء آخر، واليقين شيء أخر. فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال ـ تعالى ـ:

" أولم تؤمن؟ قال: بلى! ولكن ليطمئن قلبي "١[6].

فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله، فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره إلى ان تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية. وكم من مطمئن لا يقين له، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة. فان اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده، وكذا النصراني، ولا يقين لهما أصلا، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الانفس. وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب، وارتفع بضعف أحدهما، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معاً، وضده ـ اعني عدم التوكل ـ من رذائل أحدهما أو كليهما. ثم، إنك قد عرفت في باب التوحيد، أن عماد التوكل وما يبتني عليه، هو المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي أن تنكشف للعبد باشراق نور الحق بأنه لا فاعل إلا هو، وأن ما عداه من الأسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية. فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل. وقد عرفت ـ أيضاً ـ أن المرتبة الثانية منه ـ اعني التوحيد الاعتقادي ـ إذا قويت ربما اورثت حال التوكل، إلا ان التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه.

فصل

(فضيلة التوكل)

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين، بل هو أفضل درجات الموقنين. ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة، قال الله ـ تعالى ـ:

" وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين "١[7]. وقال: " وعلى الله فليتوكل المؤمنون "١**[8]**. وقال: " إن الله يحب المتوكلين "١**[9]**. وقال: " ومن يتوكل على الله فهو حسبه "١**[10]**. وقال: " ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم "١**[11]**.

أي عزيز لا يذل من استجار به، فلا يضع من لاذ بجنابه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، وقال رسول الله (ص): " من انقطع إلى الله، كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله إليها ". وقال (ص): " من سره ان يكون اغنى الناس، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده ". وقال (ص): " لو انكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدو خماصاً وتروح بطانا ". وعن علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ قال: " خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط، فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا علي بن الحسين! مالي أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر. قلت: ما على هذا احزن، وإنه لكما تقول. فقال: مم حزنك؟ قلت: مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس. قال: فضحك، ثم قال: يا علي بن الحسين! هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فم يكفه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا!... ثم غاب عني "، ولعل الرجل كان هو الخضر على نبينا وعليه السلام ـ. وقال الصادق (ع): " اوحى الله إلى داود: ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والارض ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن ". وقال (ع): " إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل اوطنا ". وقال (ع): " من أعطى ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً: من أعطى الدعاء أعطي الاجابة، ومن اعطى الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطى التوكل اعطي الكفاية. ثم قال أتلوت كتاب الله ـ عز وجل ـ (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، وقال: (ولئن شكرتم لازيدنكم)، وقال: (ادعوني استجب لكم)؟ ". وقال (ع): " أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله ـ تعالى ـ اقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن اقبل الله قبله وعصمه، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية، أليس الله ـ تعالى ـ يقول: (إن المتقين في مقام امين)؟ ". وقال (ع): " ان الله ـ تعالى ـ يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي! لأقطعن امل كل مؤمل من الناس في غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولا نحينه من قربي، ولأبعدنه من وصلي، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري؟ ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي

مفاتيح الابواب وهي مغلقة؟ وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي املني لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي محفوظة، فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وأمرتهم إلا يغلقوا الابواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد اذني؟ فما لي اراه لا هياً عني؟ اعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبداً بالعطاء قبل المسألة؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أوَ ليس الجود والكرم لي؟ أو ليس العفو والرحمة بيدي؟ أو لست انا محل الآمال؟ فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل سماواتي واهل ارضي املوا جميعاً، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما امل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك انا قيمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي! ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني! "١**[12]**.

فصل

(درجات التوكل)

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات:

الأولى ـ أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل، وهذه اضعف الدرجات، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار، بل ربما زاول كثيراً من التدبيرات بسعيه واختياره. نعم ينافي بعض التدبيرات، كالتوكل على وكيله في الخصومة، فانه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل، ولكن لا يترك الذي اشار إليه وكيله، ولا التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون تصريح اشارته.

الثانية ـ أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه، فانه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها. فان رآها تعلق في كل حال بذيلها، وان ورد عليه أمر في غيبتها كان اول سابق لسانه يا اماه!. والفرق بين هذا وسابقه، ان هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله، أي ليس يلتفت قلبه إلى التوكل، بل التفاته إنما هو إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأول فتوكل بالكسب والتكلف، وليس فانيا عن توكله، أي له التفات إلى توكله، وذلك شغل

صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده. وهذا أقل وقوعاً ودواماً من الأول، إذ حصوله إنما هو للخواص، وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين، وينافي التدبيرات، إلا تدبير الفزع إلى الله بالدعاء والانتهال، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط.

الثالثة ـ وهي اعلى الدرجات، أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، بأن يرى نفسه ميتاً، وتحركه القدرة الازلية كما يحرك الغاسل الميت. وهو الذي قويت نفسه، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد. والفرق بينه وبين الثاني، أن الثاني لا يترك الدعاء والتضرع كما ان الصبي يفزع إلى امه، ويصيح ويتعلق بذيلها، ويعدو خلفها، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته، فهذا مثال صبي علم أنه إن لم يرص بامه فالأم تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله، وإن لم يسأل اللبن فهي تسقيه. ومن هذا القسم توكل إبراهيم الخليل (ص) لما وضع في المنجنيق ليرمى به إلى النار، واشار إليه روح الامين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله ـ سبحانه ـ فقال: " حسبي من سؤالي علمه بحالي ". وهذا نادر الوقوع، عزيز الوجود، فهو مرتبة الصديقين، وإذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجل، أو حمرة الخجل، وهو ينافي التدبيرات ما دام باقياً، إذ يكون صاحبه كالمبهوت. ثم، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره، وقد يكون في بعضها. وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها. وقال الكاظم (ع) في قوله ـ عز وجل ـ:

" ومن يتوكل على الله فهو حسبه "١[13].

" التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في امورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضيا، تعلم انه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم ان الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها ". ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها.

فصل

(السعي لا ينافي التوكل)

اعلم أن الأمور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم، بمعنى أنه لا تكون لها أسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها، أو تكون لها أسباب جالبة لها أو دافعة اياها، إلا أن العبد لا يتمكن منها.

فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية، وحوالتها على رب الارباب، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات، لكان خارجاً عن التوكل راساً، أو لا تكون خارجة عن قدرتهم، بمعنى أن لها اسباباً أو ظنية يمكن للعبد ان يحصلها ويتوصل بها إلى جلبها أو دفعها. فالسعي في مثلها لا ينافي التوكل، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب. فمن ظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالعقل رأساً، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، فقد أبعد عن الحق، لان ذلك محرم في الشرع الاقدس. فان الشارع كلف الإنسان بطلب الرزق بالاسباب التي هداه الله إليها، من زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غير ذلك مما أحله الله، وبابقاء النسل بالتزويج، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل إلى الأسباب المعينة لدفعها. وكما ان العبادات أمور أمر الله ـ تعالى ـ عباده بالسعي فيها، ليحصل لهم بها التقرب إليه والسعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والالم عن النفس والاهل والعيال أمور امرهم الله ـ تعالى ـ، ليحصل لهم بها التوسل إلى العبادات وما يؤدي إلى التقرب والسعادة. ولكنه ـ سبحانه ـ كلفهم أيضاً بألا يثقوا إلا به، ولا يعتمدوا على الأسباب. كما انه ـ سبحانه ـ كلفهم بألا يتكلوا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته. فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة: اعتماد القلب على الله في الأمور كلها، وانقطاعه عما سواه. ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله ـ سبحانه ـ دونها مجوزاً في نفسه أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب، دون هذه الأسباب التي حصلها، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها.

الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل
إعقل وتوكل
درجات الناس في التوكل
تفنيد زعم
طريق تحصيل التوكل
الكفران
الشكر

فصل

(الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل)

الأسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكل، هي الأسباب القطعية أو الظنية، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها، سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضر منتظر أو لإزالة آفة واقعة، وذلك كمد اليد إلى الطعام للوصول إلى فيه، وحمل الزاد للسفر، واتخاذ البضاعة للتجارة، والوقاع لحصول الأولاد، واخذ السلاح للعدو، والادخار لتجدد الاضطرار، والتداوي لإزالة المرض، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل، وغلق الباب، وعقل البعير، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه... وقس عليها غيرها.

واما الأسباب الموهومة، كالرقية، والطيرة، والاستقصاء في دقائق التدبير، واداء التمحلات لاجل التبديل والتغيير، فيبطل بها التوكل، لان امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء، وليست مما أمر الله ـ تعالى ـ بها، بل ورد النهي عنها، على ان المأمور به الاجمال في الطلب وعدم الاستقصاء. قال رسول الله (ص): " ألا إن الروح الامين نفث في روعي: انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله ـ تعالى ـ، واجملوا في الطلب ". وقال (ص): " ما أجمل في الطلب من ركب البحر ". وقال الصادق (ع): " ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب الحريص، الراضي بدنياه، المطمئن إليها، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة

الواهن الضعيف، وتكتسب ما لا بد منه، إن الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم ". وقال (ع): " إذا فتحت بابك، وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك ".

فصل

(إعقل وتوكل)

اعلم ان التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة، مع ان الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك، لان الله ـ سبحانه ـ ربط المسببات بالاسباب، وابى ان يجري الأشياء إلا بالاسباب. ولذا لما اهمل الاعرابي بعيره، وقال: توكلت على الله، قال له النبي (ص): " إعقلها وتوكل ". وقال الصادق (ع): " اوجب الله لعباده ان يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التي سببها لذلك وامرهم بذلك ". وقال الله ـ تعالى ـ:

" خذوا حذركم "١[1]. وقال في كيفية صلاة الخوف: " وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم "٢[2]. وقال: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل "٣[3].

وقال لموسى: " فاسر بعبادي ليلاً "٤[4]، والتحصن بالليل اختفاء عن اعين الأعداء دفعاً للضرر.

وفي الاسرائيليات: " ان موسى بن عمران (ع) اعتل بعلة، فدخل عليه بنو إسرائيل، فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا اتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء. فطالت علته،

---

١ [1] النساء، الآية: ٧٠.

٢ [2] النساء، الآية: ١٠١.

٣ [3] الأنفال، الآية: ٦١.

٤ [4] الدخان، الآية: ٢٣.

فاوحى الله إليه: وعزتي وجلالي! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك. فقال لهم: داووني بما ذكرتم. فداووه، فبرىء. فاوجس في نفسه من ذلك، فاوحى الله ـ تعالى ـ اليه: اردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟ ". وروى: " أن زاهداً من الزهاد، فارق الامصار وأقام في سفح جبل، فقال: لا اسأل احداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي، فقعد سبعاً، فكاد يموت، ول يأته رزق، فقال: يا رب! ان احييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي، والا فاقبضني إليك. فاوحى الله ـ تعالى ـ اليه: وعزتي وجلالي! لا أرزقك حتى تدخل الامصار، وتقعد بين الناس. فدخل المصر فأقام، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب، فاكل وشرب. فاوجس في نفسه ذلك، فاوحى الله إليه: أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا، أما علمت اني ارزق عبدي بايدي عبادي احب الي من أن ارزقه بيد قدرتي؟ ".

فصل

(درجات الناس في التوكل)

اعلم أن درجات الناس ـ كما عرفت ـ في التوكل مختلفة، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه، وفي قوة التوحيد وضعفه:

فمنهم: من كمل ايمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب بالكلية، وتوجه بشراشره إلى الواحد الحق، ولا يرى مؤثراً إلا هو، وليس نظره إلى غيره اصلاً، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته، بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه إلى غيره، ولا يعتري نفسه اضطراب اصلاً، فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعه أو المظنونة بالكلية، لان الله سبحان يحفظه ويحرسه ويصلح اموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سواء حسب الأسباب ام لا، وسواء كسب أم لم يكتسب، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع أمر الله فيه، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب. وما ورد من حكايات بعض الكمال من الاولياء، من انهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله،ويصل إليهم الرزق، أو لا يتحرزون من السباع الضارة، أو يغلظون القول بالنسبة إلى اهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة، اعتماداً على الله، والله ـ سبحانه ـ ينجيهم منهم، كانوا منهم: أي من الكاملين في التوكل. قال الصادق (ع): " أبى الله ـ عز

وجل ـ أن يجعل ارزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون ". وإنما خص بالمؤمنين، لان كمال الإيمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالاسباب وأن يتوكل على الله ـ عز وجل ـ وحده. وكمال الإيمان إنما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومنهم: من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حداً تغيب عن نظره الأسباب والوسائط، ويكون مقصور الالتفات إلى جناب الحق. فهذا هو الذي لا ينبغي له أن يعرض عن الأسباب ويتركها، لان مثله ليس له المظنة التي توصله إلى المقصد بدون الوسائط: اعني قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه.

فصل

(تفنيد زعم)

بعض الناس زعم: أن حق التوكل أن يكتفي بالاسباب الخفية عن الأسباب الجلية، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد، بعد أن راض نفسه على جوع الاسبوع وما يقاربه، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب، واضطراب نفس، وتشويش خاطر، وفتور في ذكر الله، وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له، وأن يوطن نفسه على أنه إن مات جوعاً كان خيراً له في الآخرة.

وكأن يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب، ويتفرغ للعبادة، والفكر والذكر، واستغرق وقته بها، بحيث لا يستشرف نفسه إلى الناس في انتظاره ومن يدخل فيحمل الي شيئاً، بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله. وذا محض الخطأ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الاسبوع، ويمكنه التقوت بالحشيش، صارت الأسباب له جلية. فان عدم الحاجة أحد الغنائين. ثم إن كان اعتماده ـ حينئذ ـ على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش، فاين التوكل؟وإن كان وثوقه بالله وحده، فليقم في بلده مع الأسباب، كما أمر الله به الشرع. وأما توطين نفسه باختياره على الموت فممنوع عقلاً، ومحرم شرعاً، قال الله ـ سبحانه ـ:

" ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة "٥[5].

واما الجالس في بيته، التارك لكسبه، يعبد الله من دون طلب، فهو أيضاً قد ترك متابعة أمر الله. قال الصادق (ع): " إن من يقوته أشد عبادة منه ". وربما يكون مثله كلاً على الناس، فان حاله ينادي بالبؤس واليأس، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل. وبالجملة لا مدخل لخفاء الأسباب وجلائها في التوكل، بعد ما تقرر ان معناه الثقة بالله وحده، لا بالاسباب، فسواء وجود الأسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها.

فصل

(طريق تحصيل التوكل)

الطريق إلى تحصيل التوكل ـ بعد تقوية التوحيد والاعتقاد بأن الأمور باسرها مستندة إليه سبحانه، وليس لغيره مدخلية فيها ـ أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه، وكونه باعث النجاة والكفاية، ثم يتذكر أن الله ـ سبحانه ـ خلقه بعد أن لم يكن موجوداً، واوجده من كتم العدم، وهيأ له ما يحتاج إليه، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها، وقد ضمن بكفالة من توكل عليه، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته، ولا يوصل إليه ما يحتاج إليه، ولا يدفع عنه ما يؤذيه، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهوة. وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الارزاق إلى صاحبها، وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك أموال الأغنياء واذلال الاقوياء، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزاً ذليلاً بلا سبب ظاهر، وكم من ذليل عاجز صار قوياً واستولى على الكل. ومن تأمل في ذلك يعلم أن الأمور بيد الله، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به. والمناط أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدرة الله ـ سبحانه ـ من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها، فعدم التوكل عليه ـ سبحانه ـ والثقة بغير غاية الجهل، وإن كانت لغيره ـ سبحانه ـ

---

٥ [5] البقرة، الآية: ١٩٥.

من الوسائط والاسباب مدخلية، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وانجاح الأمور، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل على الله وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنة. فكما ان شرب الماء سبب لإزالة العطش، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الأسباب لانجاح المقاصد وكفاية الأمور. وعلامة حصول التوكل، ألا يضطرب قلبه، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نفسه وحدوث أسباب ضره. فلو سرقت بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوق أمر من اموره، كان راضيا به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كا حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً، فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب بفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه واطمأن به.

ومنها:

الكفران

(وضده الشكر)

الشكر ـ فضيلة الشكر ـ الشكر نعمة يجب شكرها ـ المدارك لتمييز محاب الله من مكاره ـ أقسام النعم واللذات ـ الأكل ـ لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل ـ عجائب المأكولات ـ حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب ـ تسخير الله التجار لجلب الطعام ـ نعم الله في خلق الملائكة للإنسان ـ الأسباب الصارفة للشكرـ طريق تحصيل الشكر ـ الصحة خير من السقم.

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر، وكونه متعلقاً بأي القوى، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى.

فنقول: الشكر هو عرفان النعمة من المنعم، والفرح به، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير، والتحميد للمنعم، واستعمال النعمة في طاعته. أما المعرفة، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله، وأنه هو المنعم، والوسائط مسخرات من جهته. ولو انعم عليك أحد، فهو الذي سخره لك، والقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطراً إلى الايصال إليك، فمن عرف ذلك، حصل أحد اركان الشكر لله، وربما كان مجرد ذلك شكراً، وهو الشكر بالقلب. كما روي: " ان موسى قال في

مناجاته: إلهي! خلقت آدم بيدك، واسكنته جنتك، وزوجته حواء امتك، فكيف شكرك؟ فقال: علم ان ذلك مني فكانت معرفته شكراً ".

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد، وهما داخلان فيها. إذ التقديس تنزيه ـ سبحانه ـ عن صفات النقص، والتوحيد قصر المقدس عليه، والاعتراف بعدم مقدس سواه، وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه، والكل نعمة منه، فينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل، ولذلك قال رسول الله (ص): " من قال: سبحان الله، فله عشر حسنات، ومن قال: لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله، فله ثلاثون حسنة ". فسبحان الله: كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله: كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله، كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق. ولا تظنن ان هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها، بل هي بازاء الاعتقاد بمعانهيا التي هي المعارف المعدودة من أبواب الإيمان واليقين. واما الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع، فهو أيضاً من اركان الشكر. بل كما ان المعرفة شكر قلبي برأسه، فهو أيضاً في نفسه شكر بالقلب، ونما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث إنه نعمة ومال ينتفع به يلتذ منه في الدنيا، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب من المنعم، والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام، وامارته إلا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها، بل من حيث انها توصله إلى مجاورة المنعم وقربه ولقائه. واما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح. اما المتعلق بالقلب فقصده الخير واضماره لكافة الخلق. واما المتعلق باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه. واما المتعلق بالجوارح، فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، حتى ان من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم، ومن جملة شكر الاذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم، فيدخل هذا وامثاله في جملة شكر نعمة هذه الاعضاء. بل قيل: من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس أيضا، إذ الابصار انما يتم بها، وانما خلقتا ليبصر بهما

ما ينفعه في دينه ودنياه، ويقي بهما ما يضره فيهما. بل المراد من خلق السماء والارض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والإنس به في الدنيا، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها، ولا انس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالارض والماء والهواء والنار، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأشياء، وكل ذلك لاجل البدن. والبدن مطية النفس. والنفس الراجعة إلى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة. فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لا قدامه على تلك المعصية. وإذا عرفت حقيقة الشكر، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران، فانه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها إلى القرب منه، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم، أو استعمالها فيما يكرهه.

ثم، بما ذكرناه، وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتئمة من الأمور الثلاثة، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد أيضا، كما قال الصادق (ع): " شكر كل نعمة، وإن عظمت، أن تحمد الله "، وقال (ع): " شكر النعم اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين ". وسئل عنه (ع): " هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم! قيل: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما انعم عليه في ماله حق أداه. ومنه قوله ـ جل وعز ـ:

" سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين "٦[6]. ومنه قوله ـ تعالى ـ:" رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين "٧[7]. وقوله: " رب أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدقٍ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً "٨[8] ".

٦ [6] الزخرف، الآية: ١٣.

٧ [7] المؤمنون، الآية: ٢٩.

وقال (ع): " كان رسول الله (ص) إذا ورد عليه أمر يسره، قال: الحمد لله على هذه النعمة. وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمد لله على كل حال ". وقال (ع): " إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها علي يارب. حتى ترضى وبعد الرضا. فانك إذا قلت ذلك، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة ". وفي رواية: " كان نوح (ع) يقول ذلك إذا اصبح، فسمى بذلك عبداً شكورا ". وقال (ع): " إذا ذكر أحدكم نعمة الله، فليضع خده على التراب شكرا لله، فان كان راكباً فلينزل وليضع خده على التراب، وان لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه٩[9]، وان لم يقدر فليضع خده على كفه، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه ". وروى: " أن الصادق (ع) قد ضاعت دابته، فقال: لئن ردها الله علي لاشكرن الله حق شكره ". قال الراوي: فما لبث أن اوتي بها، فقال: " الحمد لله ". فقال قائل له: جعلت فداك! أليس قلت لاشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبدالله (ع): " ألم تسمعنى قلت: الحمد لله؟ "١٠[10]. ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله، ولذا أمر به. وقد كان السلف يتساؤلون بينهم، ونيتهم استخراج الشكر لله، ليؤجر كل واحد من الشاكر والسائل. وقد روى: " ان رسول الله (ص) قال لرجل: كيف اصبحت؟ فقال: بخير. فأعاد عليه السؤال، فأعاد عليه الجواب، فأعاد السؤال ثالثة، فقال: بخير، أحمد الله واشكره. فقال (ص): هذا الذي اردت منك ".

---

٨ [8] الإسراء، الآية: ٨٠.

٩ [9] القربوس ــ بفتحتين ــ: حنو السرج، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره.

١٠ [10] هذه الرواية مذكورة في (أصول الكافي): ج٢ ــ باب الشكر. وفي (الوافي): ٣/٣٢٤ ــ باب الشكر. إلا ان المنقول في نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما في الموضعين، فصححناها عليهما.

" تنبيه " لا ريب في ان الجزء الأول من الشكر ـ اعني معرفة النعم من الله ـ من متعلقات العاقلة وفضائلها. والثاني ـ أعني الفرح للنفس ـ ان كان من النعم العقلية الروحانية، يكون متعلقاً بالعاقلة أيضا، وان كان لاجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء ـ مثلا ـ على عدو ظالم، يكون متعلقاً بالقوة الغضبية، وان كان من نعمة المال والاولاد، يكون متعلقاً بالقوة الشهوية. والجزء الثالث ـ اعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم ـ فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته. وبهذا يظهر: أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث، والأول من فضائلها إذا امتزجت وتسالمت، والثاني من رذائلها.

فصل

(فضيلة الشكر)

الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء، وقد ورد به الترغيب الشديد، وجعله الله سبباً للمزيد. قال الله ـ سبحانه ـ:

" ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم "١١[11]. وقال: " لئن شكرتم لأزيدنكم "١٢[12]. وقال: " فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون "١٣[13]. وقال: " وسنجزي الشاكرين "١٤[14].

---

١١ [11] النساء، الآية: ١٤٦.

١٢ [12] إبراهيم، الآية: ٧.

١٣ [13] البقرة، الآية: ١٥٢.

١٤ [14] آل عمران، الآية: ١٤٥.

ولكونه غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه، بل ليس الوصول إليه إلا لأوحدي من كمل السالكين. ولذا قال الله رب العالمين:

" وقليل من عبادي الشكور "١٥[15]. وكفى به شرفاً وفضلاً، أنه خلق من أخلاق الربوبية، كما قال الله ـ سبحانه ـ:

" والله شكور حليم "١٦[16]. وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمته، كما قال الله ـ تعالى ـ: " وقال الحمد لله الذي صدقنا وعده "١٧[17]. وقال: " وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين "١٨[18].

وقال رسول الله (ص): " الطاعم الشاكر، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب. والمعافى الشاكر، له من الجار كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر، له من الاجر كأجر المحروم القانع ". وقال (ص): " ان للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر ". وقال (ص): " ينادي مناد يوم القيامة: ليقوم الحمادون! فيقوم زمرة. فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ". فقيل: من الحمادون؟ فقال: " الذين يشكرون الله على كل حال ". وقال السجاد (ع): " إن الله ـ سبحانه ـ يحب كل عبد حزين، ويحب كل عبد شكور ". وقال الباقر (ع): " كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة! ألا أكون عبداً شكوراً؟... قال: وكان يقوم على اطراف اصابع رجليه، فأنزل الله ـ تعالى ـ: طه! ما انزلنا عليك

---

١٥ [15] سبأ، الآية: ١٣.

١٦ [16] التغابن، الآية: ١٧.

١٧ [17] الزمر، الآية: ٧٤.

١٨ [18] يونس، الآية: ١٠.

القرآن لتشقى ". وقال الصادق (ع): " ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه، فتم كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد ". وقال (ع): " ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة "١٩**[19]**. وقال (ع): " في كل نفس من انفاسك شكر لازم لك، بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله ـ تعالى ـ من غير علة يتعلق القلب بها دون الله ـ عز وجل ـ، أو الرضا بما اعطى، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته. فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله ـ تعالى ـ عبادة تعبد بها عباده المخلصون افضل من الشكر على كل حال، لا طلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها، فلما لم يكن افضل منها خصها من بين العبادات، وخص اربابها، فقال: (وقليل من عبادي الشكور). وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر، خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ ادنى شكره، لان التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي اعظم قدرا واعز وجودا من النعمة التي من اجلها وفقت له، فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه، إلى ما لا نهاية له، مستغرقاً في نعمه، قاصرا عاجزا عن درك غاية شكره، وانى يلحق العبد شكر نعمة الله، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله ـ عز وجل ـ، والله غنى عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الابد، فكن لله عبدا شاكرا على هذا الاصل، ترى العجب "٢٠**[20]**. ثم كما ان الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الابد وزيادة النعمة في الدنيا، فضده ـ اعني الكفران ـ من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم. قال الله ـ سبحانه ـ:

---

١٩ [19] صححنا الأحاديث على (أصول الكافي): ج٢، باب الشكر. وعلى (البحار) مج١٥: ١٣٢/٢ ـــ ١٣٥، باب الشكر.

٢٠ [20] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب السادس. وعلى (سفينة البحار) ٧١٠/١.

" فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف "٢١[21]. وقال ـ تعالى ـ: " إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم "٢٢**[22]**.

وقال الصادق (ع): " اشكر من أنعم عليك، وأَنعم على من شكرك، فانه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كفرت. الشكر زيادة في النعم، وامان من الغير " أي من التغيير.

---

٢١ [21] النحل، الآية: ١١١.

٢٢ [22] الرعد، الآية: ١٢.

الشكر نعمة يجب شكرها
المدار لتمييز محاب الله عن مكارهه
أقسام النعم واللذات
تنبيه
الأكل

فصل

(الشكر نعمة يجب شكرها)

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته. ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله، إذ جميع ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من الله، لان جوارحنا، وقدرتنا، وارادتنا، ودواعينا، وافاضة المعارف علينا، وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا، بل نفس حركاتنا، من الله. وعلى هذا فالشكر على كل نعمة نعمة اخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر. وهو ان يعرف ان هذا الشكر أيضاً نعمة من الله ـ سبحانه ـ فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه. وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر، وهكذا. فلابد من الشكر في كل حال. وليس يمكن ان تنتهي سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر. فغاية شكر العبد ان يعرف عجزه عن اداء حق شكره ـ تعالى ـ إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم، حتى شكره من الله، وهذا غايه ما يمكن للعبد. ويشهد بذلك ما روى: " أن الله ـ عز وجل ـ اوحى إلى موسى (ع): يا موسى! اشكرني حق شكري. فقال: يا رب! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وانت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني، حيث علمت ان ذلك مني ". وكذلك اوحى ذك إلى داود، فقال: " يا رب! كيف اشكرك وانا لا استطيع ان اشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ". وفي لفظ آخر: " وشكري لك نعمة اخرى منك، ويوجب علي الشكر لك، فقال: إذا عرفت هذا فقد شكرتني ". وفي خبر آخر: " إذا عرفت ان النعم مني، رضيت عنك بذلك شكراً ". وروى: " أن السجاد

(ع) كان إذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول: سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها! كما لم يجعل في أحد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بأنه لا يدركه "، فشكره ـ تعالى ـ معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علم العارفين بأنهم لا يدركونه، فجعله إيمانا، علماً منه أنه فقد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك، فان شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال أبو الحسن (ع): " من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة "[1]، يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة، يستدعي شكراً آخر.

فصل

(المدارك لتمييز محاب عن مكارهه)

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه، والكفران عبارة عن نقيض ذلك ـ اعني ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه ـ فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه، وتمييز محابه عن مكارهه، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما. وهذا التمييز والتعريف له مدركان:

أحدهما ـ الشرع، فانه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه، وعبر عن الأول بالواجبات والمندوبات، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات. فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع أحكام الشرع في افعال العباد، فمن لم يطلع على حكم في جميع افعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر.

وثانيهما ـ العقل والنظر بعين الاعتبار، فان العقل متمكن ـ في الجملة ـ من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات. فان الله ـ سبحانه ـ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكم

---

[1] صححنا الروايات الثلاث على (أصول الكافي) ج٢، باب الشكر، وعلى (الوافي): ٣/٣٢٤ باب الشكر.

كثيرة، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله ـ تعالى ـ فمن استعمل كل شيء على النحو الذي يؤدي إلى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله ـ تعالى ـ، وإن استعمل شيئاً على النحو الذي لم يؤد إلى المقصودة منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها، فقد كفر نعمة الله.

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء، إذ الحكم المقصودة من الأشياء، إما جلية أو خفية. أما الجلية: كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار، وحكمة انشقاق الأرض بأنواع النبات في وجود الغيم ونزول الامطار، وحكمة الابصار في العين والبطش في اليد، والمشي في الرجل، وحصول الأولاد وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك. وأما الحكم الخفية: كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان، من الامعاء والمرارة والكلية واحاد العروق والاعصاب والعضلات، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك. فهذه الحكم وامثالها لا يعرفها كل أحد، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قدراً يسيراً. فا جميع اجزاء العالم، سماؤه وكواكبه، وما فيها من الاوضاع والحركة والاختصاصات، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض، وما فيها من البحار والجبال والرياح، والمعادن والنبات والحيوان، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة إلى ألف أو اكثر، وقليل منها جلية، واكثرها دقيقة خفية، وبعضها متوسط في الجلاء والخفاء، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والارض، واكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالفها وموجدها. ثم ما عدا الإنسان من الأشياء المجردة والمادية، والروحانية والجسمانية، جارية على وفق الحكمة، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها. واما الإنسان، فلكونه محل الاختيار ومجراه، فقد يجري ويستعمل الأشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك، فيكون كافراً بنعمة الله ـ

سبحانه ـ فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويأخذ ما ينفعه، لا ليهلك به غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين، لانها خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بها ما يضره فيهما، ومن ادخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما، لانهما حجران لا منفعة ولا عوض في اعيانهما، وانما خلقهما الله ـ تعالى ـ ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الأموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة، فهما عزيزان في أنفسهما. ولا غرض في اعينهما. ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة. فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً، فانه لا يملك إلا الثوب. فان احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب، إذ لا غرض له في ذاته، بخلاف النقدين، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء، ومن حيث المعنى كأنهما كل شيء. والاشياء انما تستوي نسبتها إلى المختلفات ـ إذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها بخصوصها ـ كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون، وكالحرف لا معنى لها في نفسها، بل تظهر لها المعاني في غرها، وكذلك النقدان، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة إلى كل غرض. فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل. وتعرف بهما المقادير المتخلفة، وتقوم بهما الأشياء المتباينة، ويحصل التوسل بهما إلى سائر الأموال. فيلزم اطلاقهما لتداولهما الايدي، وتحصل بهما التسوية في تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما، وابطل الحكمة فيهما، وكفر نعمة الله فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل إلى ما يحتاج وانفق الزائد في سبيل الله، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما. ولما عجز اكثر الناس عن قراءة الاسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت، أخبرهم الله عن ذلك بقوله:

" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذابٍ أليمٍ "٢[2].

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما، يظهر أن من اتخذ الأواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما أيضا، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم، لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما، إذ لا غرض في عينهما. فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة، وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يغتذى بها، فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيد في الايدي، بل اللازم أن تخرج عن يدي المستغني عنها إلى المحتاج. ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها. وإذا عرفت ذلك، فقس عليه جميع افعالك وأعمالك وحركاتك وسكناتك، فان كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما، مثلاً لو استنجيت باليمين، فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله اليدين وجعل إحداهما اقوى واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل، وهذا التفضيل انما يتصور بأن تصرف الاقوى في الافعال الشريفة، كأخذ المصحف وأكل الطعام، وتصرف الاضعف في الأعمال الخسيسة، كازالة النجاسة، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وابطل الحكمة وكفر النعمة. وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداء في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة، فخلافه ظلم وكفران. وكذلك ان استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لانه خلق الجهات متعددة متسعة، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته، فينبغي استقباله بالأفعال الشريفة، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء، دون الافعال الخسيسة، كقضاء الحاجة ورمي البزاق، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله في خلق

---

٢ [2] التوبة، الآية: ٣٥.

الاشجار وفي خلق اليد. أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث، بل للطاعة المعينة عليها. وأما الشجر، فلان الله ـ تعالى ـ خلقه، وخلق له العروق وساق إليه الماء، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة. نعم ان كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك. إذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لاغراض الإنسان، فانهما جميعا فانيان هالكان، فافناء الأخس في بقاء الاشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً. واليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ:

" وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً "٣[3].

ثم هذه الافعال المتصفة بالكفران، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو افق الشياطين. ولذلك يوصف بعضها ـ في لسان الفقه ـ بالكراهة وبعضها بالحظر. وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة، مع ان جميعها عدول عن العدل، وكفران للنعمة، ونقصان عن الدرجة المبلغة إلى القرب، لأن الخطاب به انما هو إلى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وقد انغمسوا في ظلمات اعظم من ان تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة إليها. فان المعاصي كلها ظلمات، إلا أن بعضها فوق بعض، فيتمحق بعضها في جنب البعض. ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينة بغير اذنه، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه. ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر، ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب. حتى نقل: " ان بعضهم جمع اكراراً من الحنطة ليتصدق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً، فأريد ان اكفره بالصدقة ".

---

٣ [3] الجاثية، الآية: ١٢.

فصل

(أقسام النعم واللذات)

اعلم ان النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر. وهي تنقسم إلى مؤثر لذاته لا لغيره، أي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية اخرى، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها، اعني لذة النظر إلى وجه الله، وسعادة لقائه، وسائر لذات الجنة، من البقاء الذي لا فناء له، والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل معه، والغنى الذي لا فقر بعده، وغير ذلك. فانها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية اخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية، ولذلك قال رسول الله (ص): " لا عيش إلا عيش الآخرة "، وغالب هذه النعمة والسعادة واقواها واشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية - كما لا يخفى -، فيخص بادراكها العقل، ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها. وإلى ما يقصد لغيره، أي تكون مطلوبة لاجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة إليها، سوء أكانت مقصودة لذاتها أيضاً ام لا. وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول - وهو الاقرب الأخص: الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب، ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة، وهذه مع كونها لذيذة في نفسها، تكون وسيلة إلى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة اخرى. ولذلك قلنا: هي اقرب الوسائل واخصها. واشرفها العلم، واشرف افراد العلم: العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله، واحوال النشأة الآخرة، وسائر افعاله، وعلم المعاملة الراجع إلى علم الأخلاق، إذ هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر، وسائر العلوم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل إلى هذا العلم، وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما، أي تؤدي إلى الراحة فيهما، وجميلة على الإطلاق، أي تستحسن في جميع الأحوال. وضدها - اعني الجهل والأخلاق السيئة - ضارة مؤلمة في الدارين، قبيحة على الإطلاق. وسائر الصفات ليست

جامعة لهذه الاوصاف. فان أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع، أي حصول الراحة في الحال، ولكنه ضار في المآل، وترك الشهوات بعكس ذلك.

ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول أبدا، لا في الدنيا ولافي الآخرة، وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس. واما غيرها من اللذات، فبعضها مما يشترك فيه الإنسان وبعض الحيوانات، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وهذه اللذة موجودة في الاسد والنمر وبعض اخر من الحيوانات. وبعضها مما يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج، وهي اخس اللذات، ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج، حتى الديدان والحشرات. فمن جاوز هذه اللذة، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء، فان جاوزها أيضاً ارتقى إلى اللذة العقلية فصار اقرب اللذات عليه لذة المعرفة، لا سيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وافعاله. وهذه مرتبة الصديقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة والجاه، ولذلك قمعها بالكلية، بحيث لا يقع بها الاحساس قط، يشبه ان يكون خارجاً عن مقدرة البشر. نعم ربما غلبت لذة المعرفة في أحوال، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة، إلا ان ذلك لا يدوم، بل تعتريه الفترات، فتعود إلى الحالة البشرية. وعلى هذا، تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب: لا يحب إلا الله، ولا يستريح إلا إليه، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه، وقلب: أغلب أحواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن في بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب: أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله الانس به. وقلب: لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وانما لذته بالرئاسات والشهوات. والأول ـ إن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية الندور. والثاني ـ أيضاً نادر. والسر في ندور هذين القسمين: ان من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه. أو غلب عليه ذلك، فهو من ملوك الآخرة، والملوك هم الأقلون ولا يكثرون. فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادراً، واكثر الناس دونهم، فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا

مرآة الآخرة. إذ الدنيا عالم الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود، إلا انها في أمر الرؤية أولى، لأنك ترى صورتك في المرآة أولا، ثم ترى نفسك، فتعرف الصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق الرؤية والمعرفة، وانقلب المتأخر متقدماً. وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم. وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملكوت، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت، فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الخلق به، فقيل:

" فاعتبروا يا أولي الابصار "٤[4].

ومنهم من عميت بصيرته، فلم يعتبر، فاحتبس في علم الملك والشهادة، وستفتح إلى حبسه له أبواب جهنم. وأما الثالث ـ فاكثر وجوداً منه. وأما الرابع ـ فدار الدنيا طافحة به، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم، إما لعدم الذوق، إذ من لم يذق لم يعرف ولم يشتق، إذ الشوق فرع الذوق، وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل، ولا يستلذ إلا باللبن، فهؤلاء ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل. وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر، أو الميت الذي سقط عنه الادراك، وهؤلاء كالمرضى أو الأموات بسبب اتباع الشهوات.

القسم الثاني ـ الفضائل البدنية: وهي أربعة: الصحة والقوة، وطول العمر، والجمال.

الثالث ـ النعم الخارجة المضيفة بالبدن: وهي المال، والجاه، والأهل، وكرم العشيرة.

---

٤ [4] الحشر، الآية: ٢.

الرابع ـ الأسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية: وهي: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده. وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض، إلى أن ينتهي إلى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها. والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن، أو على سبيل النفع والاعانة، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة. ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر. واعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبني على ان القبيح مذموم، والطباع عنه نافرة، فحاجات الجميل إلى الاجابة اقرب، وجاهه في الصدور اوسع. وايضاً الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس، لان نور النفس إذا تم اشراقه تأدى إلى البدن. ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن. ثم انا لا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة، فإن ذلك انوثة، بل نعني به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة، وارتفاع القامة على الاستقامة، مع الاعتدال في اللحم، وتناسب الاعضاء، وتناسب خلقة الوجه، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه. واما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية الخارجية إلى النعم التوفيقية، فلأن المراد بالتوفيقية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره، بشرط كون المراد والمقضي سعادة. وبعبارة اخرى: هو توجيه الأسباب نحو المطلوب.

اما الهداية، فلها مراتب: اولاها: الهداية العامة، وهي ارادة طريق الخير وتعريفه. وثانيتها: الخاصة، وهي الافاضات المتتالية الواردة من الله على بعض عبيده، نظراً إلى مجاهدتهم. وثالثتها: الهداية المطلقة، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية، فيهتدى بهما إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل. وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة، كائناً ما كان، على مساعدة القضاء والقدر، وعلى العلم بطريق الخير، ظاهر.

واما الرشد، فالمراد به العناية الإلهية، التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فيقويه على ما فيه صلاحه، ويفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن. وبعبارة اخرى: هو

هداية باعثة إلى وجهة السعادة ومحركة إليها. وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة إليه من مفهومه.

واما التسديد، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه، ليصل إليه في اسرع وقت. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الاعضاء إلى صوب الصواب والسداد. وقد ظهر وجه كون التسديد معيناً في طلب الخير أيضاً من حاق معناه.

واما التأييد، فانه جامع للكل، إذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة، فكأنه من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج. وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود الهي يسنح في الباطن، يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر، حتى يصير كمانع باطنى غير محسوس يمنع عن الشر، وهو المراد من برهان الرب في قوله ـ تعالى ـ:

" ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه "٥[5].

تنبيه

اعلم ان النعم الاخروية، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها، وتفصيلها واسبابها وما يتوقف وجودها عليه، إلى ان ينتهي إلى مسبب الأسباب، مما لا يمكن دركها، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها.

واما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضاً إلى أربعة أقسام، وصار مجموعها ستة عشر قسماً، فيستدعي كل قسم من الستة عشر اسبابا، وتلك الأسباب اسباباً، حتى تنتهي بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجد الكل. والمتفكر يعلم، ان كلا منها يتوقف على نعم واسباب اخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء. فإن نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الاكل، فإن احصاءها

---

٥ [5] يوسف، الآية: ٢٤.

وان لن يكن ممكناً، إلا انا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء، لتقاس عليها البواقي. فنقول:

نعمة الاكل تتوقف على ادراك الغذاء واسبابه، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته واسبابه، وعلى القدرة إلى تحصيله واسبابه، وعلى وجود اصل الغذاء المأكول وتكونه، وعلى اصلاحه بعد وجود وتكونه، وعلى الأسباب الموصلة له إلى كل إنسان لو كان بعيدا عنه، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الافعال الباطنة إلى ان تصير جزء للبدن، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الافعال المذكورة. فها هي نذكرها اجمالا وتلويحاً في فصول:

فصل

(الاكل)

الاكل يتوقف أولا على ادراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشماماً وذوقاً، إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض اوصافه اللازمة في الاكل، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكر رائحته عما تطيب رائحته، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد، لاسيما لبعض الحيوانات،وما لم يذقه لم يدرك انه موافق أو مخالف له، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة، فخلقها الله ـ سبحانه ـ ثم الأسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى، فلا نتعرض لبيانها. وبعد ادراك الغذاء ـ على ما ذكر ـ لا بد له من قوة اخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقاً ورآه مرة اخرى موافقاً أو مخالفاً، وهذه القوة هي الحس المشترك الذي يتأدى إليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه، فانك إذا اكلت شيئاً اصفر ـ مثلا ـ فوجدته مرا مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة اخرى فلا تعرف انه مر ما لم تذقه، لولا الحس المشترك. إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر، فيمتنع عن تناوله

ثانياً. وهذه القوة ـ أعني الحس المشترك ـ يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن احصاؤها، فلتذرها على سنابلها.

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك، مما تشترك فيه سائر الحيوانات، ولو انحصر ادراك الإنسان أيضاً به لكان ناقصاً. إذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال، فتمرض وتموت، إذ ليس لها الا الاحساس بالحاضر، واما ادراك العواقب فليس لها إليه سبيل. فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة اخرى. فخلق الله الإنسان العقل، به يدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في المآل، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها واعداد اسبابها، فينتفع بعقله في الاكل الذي هو سبب صحته، وهو اخس فوائد العقل واقل الحكم في، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه اكثر من ان تحصى، واعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وافعاله. والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن، والحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة، وقد وكل كل واحد منها بأمر خاص. فواحدة بأخبار الالوان، واخرى بأخبار الاصوات، واخرى بأخبار الروائح، واخرى بأخبار الطعوم، واخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة. فهذه الجواسيس يقتنصون الاخبار من اقطار المملكة، ويسلمونها إلى الحس المشترك، وهو قاعد في مقدمة الدماغ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم، ويأخذها ويسلمها إلى العقل الذي هو السلطان مختومة، إذ ليس له الا اخذها وحفظها، واما معرفة حقائق ما فيها فليس إليه. ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الامير والملك، سلم، لانها آتية إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحول الجنود ـ اعني الاعضاء ـ في الطلب او الهرب أو اتمام التدبيرات التي تعن له ثم. عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر، وهذه ما يتوقف عليه الاكل من الادراكات واسبابها.

لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل

عجائب المأكولات

حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب

تسخير الله التجار لجلب الطعام

نعم الله في خلق الملائكة للإنسان

(لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل)

إذا ادرك الغذاء، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه. إذ لولا الميل الي لكان ادراكه بأي حس وقوة فرضاً معطلاً. ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك انه انفع الأشياء له، وقد سقطت شهوته، فلا يتناوله، فيبقى البصر والادراك معطلاً في حقه؟ فيتوقف الأكل على ميل إلى الموافق، ويسمى شهوة، ونفرة عن المخالف، ويسمى كراهة. فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الإنسان كالمتقاضي الذي يضطره إلى التناول، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لا اسرفت وأهلكت نفسه، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في اسفله حتى يفسد، ولذلك يحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى، ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي،ما لم تنبعث الداعية إلى تناول الغذاء. فخلق الله ـ تعالى ـ له الارادة ـ أعني انبعاث النفس إلى تناوله. وربما حصل الاحتياج إلى قوة الغضب ـ أيضاً ـ ليدفع عن نفسه المؤذي وما يضاده ويخالفه، ومن اراد ان يأخذ منه ما حصله من الغذاء. ثم لكل واحد من الشهوة، والكراهة، والارادة، والغضب، أسباب لا يمكن احصاؤها، ثم بعد ادراك الغذاء وميله وشهوته وارادته، لا يفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما. فكم من زمن شائق إلى شيء بعيد منه مدرك له مائل إليه مريد له، لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يدهه أو لفلج أو عذر فيهما. فلا بد من آلات للحركة، وقدرة في تلك الآلات على الحركة، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً. فلذلك خلق الله ـ تعالى ـ لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف اسرارها. فمنها ما هو آلة للطلب، كالرجل للإنسان، والجناح للطير، والقوائم للدواب. ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانع من طلب الغذاء،

القرن لبعض الحيوانات، والانياب لبعض أخر منها، والمخلب لبعض آخر منها، والاسلحة للإنسان القائمة مقام هذه الآلة. ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول كاليدين للإنسان. ثم لهذه الاعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكر.

فصل

(عجائب المأكولات)

عمدة ما يتوقف عليه الاكل واصله ومناطه، هي الاغذية والأطعمة المأكولة، ولله ـ تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، واسباب متوالية لا تتناهى. والأغذية والادوية من الاطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً يمكن احصاؤها وحصرها، فضلاً عن بيان عجائبها واسبابها، فنحن نترك الجميع، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة، ونبين بعض اسبابها وحكمها وعجائبها. فنقول:

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك.فان النبات انما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء، لانه يغتذى بالماء. ولا نتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، بل نشير إلى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة. فنقول:

ان الحبة لا تغتذي بكل شيء، بل يتوقف اغتذاؤها على ارض فيها ماء. ولا بد ان تكون ارضها رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها، فلو تركتها في ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء. ثم الهواء لا يتسرب إليها بنفسه، فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ:

وأرسلنا الرياح لواقح "١[1].

والقاحها انما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والارض. ثم لا يكفي ذلك في انباته في برد مفرط، فيحتاج إلى حرارة الصيف والربيع. فهذه أربعة اسباب، فإن الماء لا بد ان ينساق إلى ارض الزراعة من البحار والشطوط والانهار والعيون والسواقي، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك. ثم

---

١ [1] الحجر، الآية: ٢٢.

الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع إليها مياه العيون والقنوات، فخلق الله الغيوم، وهي سحب ثقال حاملات للماء، وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه إلى اقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات، وترسلها مدراراً على الاراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد، وهلك الزرع والمواشي. ونعم الله ـ تعالى ـ وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والامطار لا يمكن احصاؤها واما الحرارة، فانها لا يمكن أن تحصل في الماء والارض، لكونهما باردين. فخلق الله الشمس، وسخرها، وجعلها ـ مع بعدها عن الأرض مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل الحر عند الحاجة إليه، والبرد عند الافتقار اليه، وهذه اخس حكم الشمس، والحكم فيها اكثر من ان تحصى. ثم النبات ان ارتفع على الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فخلق الله القمر، وجعل من خاصيته الترطيب، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل، فانه تغلب على رأسك الرطوبة للعبر عنها: (الزكام)، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم، وهذا ايضاً اخس فوائد القمر وحكمه، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع في استقصائه، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لا تفي القوى البشرية باحصائها. وكما أنه ليس في اعضاء البدن عضو لا فائدة فيه، فكذلك ليس عضو من اعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة. والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متفاوتة تفاوت اعضاء البدن، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر، وكلها مسخرات لله ـ سبحانه ـ، وآثار من قدرته الكاملة، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة، وليست في انفسها إلا اعدام صرفة. فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات والارض، والآفاق والأنفس، والحيوانات والنباتات، لا ينظرون إليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم، ورشحات صفاته، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك. كما أن من احب عالماً لم يزل مشغوفاً بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له. فكذلك الأمر في عجائب صنع الله، فإن العالم كله من تصنيفه ـ تعالى ـ، بل جميع المصنفين أيضاً من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف، فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده

وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ٢[2] يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب، فإنها خرق محركة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الابصار. وقد ظهر ان غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الافلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك تتسلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى مسبب الاسباب وغاية الكل، وليس لنا سبيل إلى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها.

فصل

(حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب)

ثم ما ينبت من الأرض من النبات، وما يحصل من الحيوانات، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك، بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف، بالقاء البعض وابقاء البعض، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحصى، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على أمور خاصة كثيرة، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل. فلنأخذ رغيفاً واحداً، وننظر إلى بعض ما يحتاج إليه حتى يستدير ويصلح للأكل، إذ بيان جميع ما يحتاج إليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكناً، فنقول:

اول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض، ثم إلقاء البذور فيها، ثم الثور الذي يثير الأرض مع آلاته، كالفدان وغير ذلك، ثم تنقية الأرض من الحشائش، والتعهد بسقي الماء إلى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه، ثم الحصاد، ثم الفرك، ثم التنقية والتصفية، ثم الطحن، ثم العجن، ثم الخبز. فتأمل عدد هذه الافعال، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها. وانظر إلى أعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من نجارة وحدادة وغيرهما، واحتياج كل منها إلى آلات كثيرة. ثم انظر كيف ألف الله ـ سبحانه ـ بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين، وسلط عليهم الانس والمحبة، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد، ورتبوا المساكن والدور متجاورة

---

٢ [2] المشعوذ: الرجل الحيال، الذي يصنع الشعبذة.

ومتقاربة، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع، ولو تفرقت آراؤهم، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش، لتبددوا وتباعدوا، ولم ينتفع بعضهم ببعض، ثم لما كان في جبلة الإنسان الغيظ والعداوة، والحسد والمنافسة، والانحراف عن الحق، وربما زالت المحبة بين البعض لأعراض، فيزدحمون عليها، ويتنافسون فيها، وربما أدى إلى التنافر والتقابل. فبعث الله الأنبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا إليها عند التنازع، فيرتفع نزاعهم. ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها. وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهراً عليها لو أرادوا التخلف عنها، فسلط الله السلاطين اولي القوة والعدة على الناس، وألقى رعبهم في قلوبهم، والهمهم اصلاح العباد، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والاسواق، واضطروا الخلق إلى قانون الشرع والعدل، وألزموهم التآلف والتعاون، ومنعوهم عن التفرق والتباغض. فاصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين، وإصلاح السلاطين بالعلماء، وإصلاح العلماء بالانبياء، واصلاح الأنبياء بالملائكة، واصلاح الملائكة بعضهم ببعض، إلى ان ينتهي إلى حضرة الربوبية، التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال، ومنشأ كل ترتيب وتأليف. وقد ظهر مما ذكر: أن من فتش يعلم: ان رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح للاكل ما لم يعمل عليه آلاف الوف من الملائكة وصناع الانس.

فصل

(تسخير الله التجار لجلب الطعام)

ثم جميع الاطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون إليه من الأطعمة، بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار، فسخر الله ـ تعالى ـ التجار، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح، حتى يقاسوا الشدائد، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق. فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال، من الجمال وكيفية قطعها البراري

والمراحل تحت الأعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش، ومن الخيل وكفيفة سرعة سيرها وحركاتها، ومن الحمار وصبره على التعب، وانظر كيف خلق الله ما يحتاج إليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء، وينتهي إلى حد لا يمكن تحديده.

فصل

(نعم الله في خلق الملائكة للإنسان)

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن. وهذا موقوف على أعمال كثيرة، محتاجة إلى أسباب كثيرة، من الطحن، والجذب، والهضم المعدي والكبدي، وغير ذلك من الافعال التي يحتاج كل منها إلى أسباب كثيرة. وقد أشرنا إلى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكر، فارجع إليه. وهنا نشير إلى أنموذج من نعمة الله في خلق الملائكة. فنقول:

إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصوره تفصيلا أو إجمالاً، ولهم طبقات وأصناف: منها: طبقات الملائكة الارضية. ومنها: الملائكة السماوية. ومنها: حملة العرض العظيم. ومنها: المسلسلون. ومنها: المهيمنون... وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم، ولا يحيط بهم إلا الله - سبحانه -. فكل صنع من صنائع الله في الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به. فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع إلى الاكل والاغتذاء الذي كلامنا فيه، دون ما يجاوز، وذلك من صنائع الله وافعاله، ومن الوحي إلى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها، فإن استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر. فنقول: إن كل جزء من اجزاء بدنك، بل من اجزاء النبات، لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة، هم أقل الاعداد، إلى عشرة إلى مائة، إلى أكثر من ذلك بمراتب.

بيان ذلك: ان معنى الاغتذاء: أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك. وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء، حتى يصير جزء للبدن، كالجذب والهضم وصيرورته لحماً وعظماً. ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في اطوارها، كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخاً إلا بصناع، والصناع في الباطن هم الملائكة، كما أن الصناع في الظاهر

هم أهل البلد. فالغذاء، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دماً، لا بد له من صناع من الملائكة، ولا نتعرض لهم ولبيان عددهم، ونقول: بعد صيرورته دماً إلى أن يصير جزء للبدن، يتوقف على سبعة من الملائكة، إذا لا بد من ملك يجذب الدم إلى جوار اللحم والعظم، إذ الدم لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم، وما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا، ولا بد من سابع يراعى المقادير في الالصاق، فيلحق بالمستدير على مالا يبطل استدارته، وبالعريض على ما لا يبطل عرضه، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه، وهكذا... ويراعى في الالصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج إليه. فلو جمع لانف الصبي ـ مثلا ـ من الغذاء ما يجمع على فخذه، لكبر أنفه، وبطل تجويفه، وتشوهت صورته، بل ينبغي أن يسوق إلى الاجفان مع رقتها وإلى الافخاذ مع غلظتها، وإلى الحدقة مع صفائها، وإلى العظم مع صلابته، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، ويراعي العدل في القسمة والتقسيط، والا بطلت الصورة، وتشوهت الخلقة، ورق بعض المواضع وضعف البعض. فمراعاة هذه الهندسة مفوضة إلى ملك من الملائكة. وإياك وأن تظن ان الدم بطبعه يهندس شكل نفسه، فإن من احال هذه الأمور إلى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول، فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور، ويقول: ان كل فعل من هذه الافعال موكول إلى قوة لا شعور لها، فنقول: ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته، إذ لا ريب في ان ما لا شعور له ليس في نفسه أن يفعل فعلا ما، فضلا عن ان يفعل أفعالا متقنة محكمة، مشتملة على الحكم الدقيقة والمصالح الجلية والخفية. فتكون هذه شروطاً ناقصة لا يجاد الله ـ سبحانه ـ هذه الافعال بلا واسطة، أو بواسطة عدد هذه القوى من الملائكة. وعلى أي تقدير، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله ـ سبحانه ـ مسخرين في باطنك، موكلين بهذه الافعال، قد شغلوا بك، وانت في النوم تستريح، وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وكذلك في كل جزء من اجزائك التي لا تتجزأ، حتى يفتقر بعض الأجزاء ـ كالعين والقلب ـ إلى أكثر من مائة ملك. ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم، لا يحيط بكنهه إلا الله، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن

القدوس، المتفرد بالملك والملكوت والعز والجبروت. ومن اراد ان يعلم ـ اجمالا ـ كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات والارضين، وأجزاء النبات والحيوانات، والسحب والهواء والبحار والجبال والامطار وغير ذلك، فليرجع في ذلك إلى الأخبار الواردة من الحجج ـ عليهم السلام ـ ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الافعال السبعة المذكورة إلى ملك من الملائكة، ويكون الموكل به ملكاً واحداً على حدة، ولا يمكن أن يفوض جميعها إلى ملك واحد، كما لا يمكن أن يتولى إنسان واحد سبعة أعمال في الحنطة، كالطحن وتمييز النخالة، ودفع الفضلة عنه، وصب الماء عليه، والعجن، وقطعها كسرات مدورة، وترقيقها رغفانا عريضة، والصاقها بالتنور. إذ الملك وحداني الصفة، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات. فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، كما اشير إليه بقوله ـ تعالى :-

" وما منا إلا له مقام معلوم "٣[3].

ولذلك، ليس بينهم تحاسد وتنافس. ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الحواس الخمس، وليس كالإنسان الذي يتولى بنفسه اموراً مختلفة، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه، فانه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى. وذلك غير موجود في الملائكة، فانه مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية، ولكل منهم طاعة خاصة معينة. فالراكع منهم راكع أبداً، والساجد منهم ساجد دائما، والقائم منهم قائم ابدا، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور، ولكل واحد منهم مقام معلوم. واذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج إليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الارضية المستمدين من الملائكة السماوية، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة، فإن بيان ذلك ليس ممكناً. ثم قس على ذلك اجمالا جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملكوت، وعالم الملك والشهادة، فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما، فإن اعداد الملائكة والموكلين بها

---

٣ [3] الصافات، الآية: ١٦٤.

غير متناهية، كيف ومجامع طبقات الملائكة وأنواعهم خارجة عن الاحصاء، فضلا عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات؟.

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة، إلى أن ينتهي إلى الله، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب بينهما: أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود، فمن نظر إلى غير محرم ـ مثلا ـ فقد كفر، ففتح العين نعمة الله في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين، ولا العين إلا بالرأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا غذاء إلا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة. فإن الكل كالشيء الواحد، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض. فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود، من ابتداء الثرى إلى منتهى الثريا، وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان، ولا ماء ولا هواء، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك، إلا يلعنه. ولذلك ورد في الأخبار: " ان البقعة التي يجتمع فيها الناس، إما تلعنهم إذا تفرقوا، أو تستغفر لهم " وكذلك ورد: " أن الملائكة يلعنون العصاة ". وورد: " ان العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر ". وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء، وكل ذلك اشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة يجنى على جميع الملك والملكوت.

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم، فاعتبر ما سواه. ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر؟ كيف ولله في كل طرفة على كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء؟ فإن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب، ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجتمع روح الهواء إلى القلب، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا نقطع قلب وهلك. ولما كان اليوم والليلة أربعاً وعشرين ساعة، وفي كل ساعة يوجد ألف نفس تخميناً، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف الوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك، بل في كل جزء من اجزاء العالم، وكيف يمكن احصاء ذلك، ولذلك قال الله ـ تعالى :-

" وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها "٤[4].

وورد: " ان من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه، فقد قل علمه وحضر عذابه ". فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء، ولا يلم خاطره بموجود، إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه. ولذلك قال موسى بن عمران: " إلهي! كيف أشكرك ولك علي في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت اصلها، وان طمست رأسها ".

فصل

(الأسباب الصارفة للشكر)

اعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله ـ سبحانه ـ أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وأحادها، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها وظنهم ان حقيقة الشكر مجرد ان يقولوا بلسانهم: الحمد لله، أو الشكر لله، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان، بحيث لا ينتبهون للقيام بالشكر، كما في سائر الفضائل والطاعات، أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة. ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم، لكونها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع الحالات. فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها، فلا يعدها نعمة. وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها، فلا يتصورون خلاف ذلك، ويظنون ان كل إنسان يلزم ان يكون على هذه الأحوال. فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء، ووفور الماء، وصحة البصر والسمع، وامثال ذلك. ولو اخذا يمحقهم، حتى انقطع عنهم الهواء، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فإن ابتلى واحد بشيء من ذلك، ثم نجى منه، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه. وكذا البصير، إذا عميت عينه، ثم اعيد عليه بصره، عده نعمة وشكره، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيرا دائماً كان غافلا عن الشكر. وهذا غاية الجهل، إذ شكرهم صار موقوفاً على ان تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، مع ان النعمة في جميع الأحوال اولى بالشكر. فلما

---

٤ [4] إبراهيم، الآية: ٣٤. النحل، الآية: ١٨.

كانت رحمة الله واسعة قد عمّت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة. ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطر وترك الشكر، وإذا ضرب في غالب الاحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك. ومن تأمل يعلم ان نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطش اعظم من ملك الأرض كلها. كما نقل: " ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء، وفي يده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً، فهل تعطيه؟ قال: نعم! قال: فكيف تفرح بملك لا يساوي شربة ماء؟! ". هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد، أو يشاركه يسير من الناس، إما في العقل، أو في الخلق، أو في الورع والتقوى، أو في الدين، أو في صورته وشخصه، أو اهله وولده، أو مسكنه وبلده، أو رفقائه وأقاربه، أو عزه وجاهه، أو طول عمره وصحة جسمه، أو غير ذلك من محابه. بل نقول: لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك، فلا ريب في انه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هذه على سائر الخلق. فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس، أو احسن اخلاقاً منهم، مع أن الأمر ليس كذلك. ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال، ويرى من غيره عيوباً يكرهها واخلاقاً يذمها، ولا يرى ذلك من نفسه.

وبالجملة: كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره، وإن لم يكن مطابقاً للواقع. ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطى ما خصص به غيره، لكان لا يرضى به. بل التأمل يعطى: أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والافعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان، بل لو وكل إليه الاختيار، وقيل له: انت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس، لم يخير إلا نفسه. وإلى هذا أشار الله ـ سبحانه ـ بقوله:

" كل حزبٍ بما لديهم فرحون "٥[5].

---

٥ [5] المؤمنين، الآية: ٥٤. الروم، الآية: ٣٢.

وإذا كان الأمر هكذا، فانى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة، لعظمت النعمة في حقه ولم يخرج عن عهدة الشكر. قال رسول الله (ص): " من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها ". ومهما فتشت الناس، لوجدتهم يشكون عن أمور وراء هذه الثلاث، مع أنها وبال عليهم. بل لو لم تكن للإنسان نعمة سوى الإيمان الذي به وصوله إلى النعيم المقيم والملك العظيم، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره. بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان. ونحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب، من أموال واتباع، وانصار وبلدان وممالك، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه، لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله ـ تعالى ـ في الآخرة. بل لو سلم إليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم في الدنيا، مع نيله في الآخرة ما يرجوه،لم يأخذه ولم يرض به، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وثابتة لا تسرق ولا تغصب، وصافية لا كدورة فيها، بخلاف لذات الدنيا.

طريق تحصيل الشكر
الصحة خير من السقم
الجزع
الصبر
مراتب الصبر
أقسام الصبر

فصل

(طريق تحصيل الشكر)

الطريق إلى تحصيل الشكر أمور:

الأول ـ المعرفة والتفكر في صنائعه ـ تعالى ـ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة.

الثاني ـ النظر إلى الادنى في الدنيا وإلى الاعلى في الدين.

الثالث ـ أن يحضر المقابر، ويتذكر أن أحب الاشياء إلى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا إلى الدنيا، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب، او يزيد ثوابهم وترتفع درجاتهم. فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته ورده إلى الدنيا، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لأجله.

الرابع ـ أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها، فليتصور أنه هلك بها، ويغتنم الآن حياته وماله من النعم، فليشكر الله على ذلك، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه.

الخامس ـ ان يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة اكبر منها، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين. ولذلك قال عيسى (ع) في دعائه: " اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني! ". وقال رجل لبعض العرفاء: " دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي

" فقال له: " اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك، ماذا كنت تصنع؟ ". ومن حيث إن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب صدر منه، فإذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة، كما قال رسول الله (ص): " إن العبد إذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله اكرم من ان يعذبه ثانياً ". وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا ـ عليهم السلام ـ أيضا، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة. ومن حيث ان هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه ألبته، فقد أتيت وفرغ منها. ومن حيث ان ثوابها اكثر منها وخير له، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا. ومن حيث انها تنقص في القلب حب الدنيا والركون إليها، وتشوق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه. إذ لا ريب في أن من اتاه النعم في الدنيا على وفق المراد، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة، يورث طمأنينة للقلب إلى الدنيا وأنساً بها، حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها، وصارت الدنيا سجناً عليه، وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن. ولذلك قال رسول الله (ص): " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ". فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها، والتفاتها إلى عالمها الاصلي، وتشوقها إلى الخروج عنها إليه ورغبتها إلى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها.

فان قلت: غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه، وأما الشكر عليه فغير متصور، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحا، والبلاء مصيبة وألم، فكيف يشكر عليه؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد، إذ الصبر يستدعي بلاء وألماً، والشكر يستدعي نعمة وفرحاً، فهما متضادان غير مجتمعين، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية؟

قلنا: كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد. فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والإيمان والأخلاق الحسنة في الدنيا، والنعمة المقيدة في الدنيا ـ أي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه ـ كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من

وجه. والبلاء المطلق، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا، والبلاء المقيد، كمصائب الدنيا، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب، فانها وإن كانت بلاء في الدنيا، ولكنها نعم في الآخرة. وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة، أو رياضة النفس، أو زيادة التجرد، أو رفع الدرجة. فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق، ولا معنى لاجتماع الصبر معه، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه، كما يأتي. والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه. واما البلاء المقيد، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين، بل الصبر من حيث ايجابه الاغتمام والألم في الدنيا، والشكر من حيث ادائه إلى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر.

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة، ولم يشكر على جهة خيريته، صار بلاء مطلقاً لزم تركه بالرجوع إلى الصبر والشكر. واما النعمة المقيدة، كالمال والثروة، فإن ادت إلى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر ولم يكن محلا للصبر، وإن ادت إلى فساده كانت بلاء مطلقاً واجب الترك، وان ادت إلى بلاء الدنيا، كأن يصير ماله سببا لهلاك اولاده وفساد مزاجه، ويصير فوته باعثا لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية، كان حكمه حكم البلاء المقيد. ثم يأتى في باب الصبر: ان الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية، وفيهما يتحقق الشكر والصبر، إذ الشكر ـ كما عرفت ـ هو عرفان النعمة من الله والفرح به، وصرف النعمة إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر ـ كما يأتي وثبات باعث الدين، اعني العقل النظري، في مقابلة باعث الهوى، اعني القوة الشهوية. ولا ريب في انه في اداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور، إذ هو صرف النعمة إلى ما هو المقصود، إذ باعث الدين انما خلق لحكمة دفع باعث الهوى، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة. وانت خبير بأنه وان تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إلا ان ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إذ الصبر انما هو عليهما، واما الشكر فعلى باعث الدين، اعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية، فالمشكور عليه هو باعث الدين

دون نفس الطاعة وترك المعصية، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق، أي ما يصبر عليه وما يشكر عليه، واتحدا في فعل الصبر والشكر، إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة، وهو عين الطاعة وترك المعصية، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة، وهو أيضاً عين الطاعة وترك المعصية. ويمكن ان يقال: ان من فعل هذه الطاعة، وترك هذه المعصية، عرف كونهما من الله وفرح به، ويعمل طاعة اخرى شكراً له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، اعني المشكور عليه وما يصبر عليه، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها ويختلف فعلاهما. إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية وفعل الشكر تحميد أو طاعة اخرى.

فصل

(الصحة خير من السقم)

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه إلى سعادة الأبد انه خير من العافية في الدنيا، بل مع ذلك كله العافية الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها، فاياك ان تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا، فإن رسول الله (ص) كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة، وكان يقول هو والانبياء والأوصياء ـ عليهم السلام ـ: " ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة "، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء. وقال (ص): " سلوا الله العافية، فما اعطى عبد افضل من العافية إلا اليقين "، واشار باليقين إلى عافية القلب من الجهل والشك، فهو اعلى واشرف من عافية البدن. وقال (ص) في دعائه: " والعافية احب الي ".

وبالجملة: هذا اظهر من ان يحتاج إلى الاستشهاد. إذ البلاء انما يصير نعمة بالاضافة إلى ما هو اكثر منه في الدنيا والآخرة، وبالاضافة إلى ما يرجى من الثواب في الآخرة، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها إلى الآخرة. فينبغي ان يسأل تمام النعمة في الدنيا، والثواب في الآخرة على شكر المنعم، والتجافي عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود، فانه قادر على اعطاء الكل، وما نقل عن بعض العارفين، من سؤالهم

المصائب والبلاء، كما قال بعضهم: " اود ان اكون جسراً على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون، واكون انا في النار "، وقال سمنون المحب: " وليس لي في سواك حب، فكيفما شئت فاختبرني ". فمبناه على غلبة الحب، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء. ومثل ذلك حالة تعتريه، وليس لها حقيقة. فإن من شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولما زال سكره علم ان ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة. فما تسمعه من هذه القبيل فهو كلام العشاق الذين افرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه. وقد روى: " ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو اردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلت لاجلك؟ فسمع ذلك سليمان (ع)، فطلبه وعاتبه في ذلك، فقال. يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى ". ونقل: " ان سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور، ابتلى بمرض الحصر، فكان يصيح ويجزع، ويسأل الله العافية، ويظهر الندامة مما قال، ويدور على أبواب المكاتب، ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب ". والحاصل: ان صيرورة البلاء احب عند بعض المحبين من العافية، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله، وكون رضاه عندهم احب والذ من العافية انما يكون في غليان الحب، فلا يثبت ولا يدوم. ومع ذلك كله، فاعلم ان الظاهر من بعض الأخبار الآتية في باب الصبر: ان في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع، من الأنبياء والأولياء، بالمصائب العظيمة في الدنيا، وما ورد من ان اعظم البلاء موكل بالانبياء ثم بالاولياء ثم بالامثل فالأمثل في درجات العلاء والولاء. وعلى هذا، فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس. فمن كان قوى النفس صابرا شاكراً في البلاء، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والإنس والطاعات والاقبال عليها، ولم يصر باعثاً لنقصان الحب لله، فالبلاء في حقه افضل في بعض الأوقات، إذ بازائه في الآخرة من عوالي الدرجات ما لا يبلغ بدونه، ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً أو كفرانا، أو منعه عن شيء مما ذكر، فالعافية اصلح في حقه، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة، فلا ريب في ان العافيه وعدم هذا البلاء افضل واعلى منه. فإن البصير الذي توسل بعينيه إلى النظر إلى عجائب صنع

الله، وتوصل به إلى معرفة الله، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع العلوم، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور، وينتفع من علومه الناس ابدا، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والإنس والاستغراق، ولو لا وجود العينين له لم يبلغ إلى شيء من ذلك، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل واصلح من عدمه، ولو لا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلا ـ وقد كان ضريراً من بين الأنبياء ـ فوق رتبة موسى وابراهيم وغيرهما ـ عليهم السلام ـ لأنه صبر على فقد البصر، وموسى لم يصبر عليه، ولكان الكمال في ان يسلب الإنسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم. وهذا باطل. فإن كل واحد من الاعضاء آلة في الدين، فيفوت بفواتها ركن من الدين. ويدل على ذلك ما ورد في عدة من الأخبار: " أن كل ما يرد على المؤمن من بلاء أو عافية أو نعمة أو بلية، فهو خير له واصلح في حقه ". وما ورد في بعض الأحاديث القدسية: " إن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض، فاعطيته ذلك، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة، فاعطيته ذلك ". وبذلك يجمع بين أخبار العافية واخبار البلاء.

ومنها:

الجزع

وهو اطلاق دواعي الهوى، من الاسترسال في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر. وهو وان كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط، إلا انه لما كان ضده الصبر، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية ـ كما يأتي ـ فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط، بل ذكرناه هنا. ثم الجزع في المصائب من المهلكات، لأنه في الحقيقة انكار لقضاء الله، واكراه لحكمه، وسخط على فعله. ولذا قال رسول الله (ص): " الجزع عند البلاء تمام المحنة ". وقال (ص): " ان عظم الجزاء مع عظم البلاء، وان الله إذا احب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط ". وفي الخبر القدسي: " من لم يرض بقضائي. ولم يشكر على نعمائي، ولم يصبر على بلائي، فليطلب رباً سواي ". وروى: " ان زكريا لما هرب من

الكفار، واختفى في الشجرة، وعرفوا ذلك، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا، فأنّ أنّة، فأوحى الله إليه: يا زكريا! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة! فعض زكريا (ع) على اصبعه حتى قطع شطرين ". وبالجملة: العاقل يعلم ان الجزع في المصائب لا فائدة فيه، إذ ما قدر يكون، والجزع لا يرده. ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة، فليتركه أولا حتى لا يضيع اجره. وقد نقل: " انه مات ابن لبعض الأكابر، فعزاه مجوسي، وقال له: ينبغي للعاقل ان يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة ايام. فقال: اكتبوه عنه ". وقال الصادق (ع): " الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة. والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المخبتون، والجزع ينكره كل أحد وهو ابين على المنافقين، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب. وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبرا. وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص، وتغير اللون والحال. وكل نازلة خلت اوائلها من الاخبات والانابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر. والصبر ما اوله مر وأخره حلو، من دخله من اواخره فقد دخل، ومن دخله من اوائله فقد خرج. ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر، قال الله ـ تعالى ـ في قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ: " فيكف تصبر على ما لم تحط به خبرا "، فمن صبر كرها، ولم يشك إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام، ونصيبه ما قال الله ـ عز وجل ـ : " وبشر الصابرين "، أي بالجنة والمغفرة. ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينة ووقار، فهو من الخاص، ونصيبه ما قال الله ـ عز وجل ـ:

ان الله مع الصابرين "١[1].

فصل

١ [1] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): باب ٩٢. وعلى (البحار): باب الصبر واليسر بعد العسر، مج١٥: ١٤٣/٢.

الصبر ـ مراتب الصبر ـ أقسام الصبر ـ فضيلة الصبر ـ الصبر على السراء ـ اختلاف مراتب الصبر في الثواب ـ طريق تحصيل الصبر ـ التلازم بين الصبر والشكر ـ القانون الكلي في معرفة الفضائل ـ تفضيل الصبر على الشكر.

ضد الجزع (الصبر)، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة، فيحبس لسانه عن الشكوى، واعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة. وهذا هو الصبر على المكروه، وضده الجزع. وله أقسام اخر لها اسماء خاصة تعد فضائل اخر: كالصبر في الحرب، وهو من أنواع الشجاعة، وضده الجبن.والصبر في كظم الغيظ، وهو الحلم، وضده الغضب. والصبر على المشاق، كالعبادة، وضده الفسق، أي الخروج عن العبادات الشرعية. والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات، وهي العفة، واليه اشير في قوله ـ سبحانه ـ:

" وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى "٢[2].

وضده الشره. والصبر عن فضول العيش، وهو الزهد، وضده الحرص. والصبر في كتمان السر، وضده الاذاعة، والأولان، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب. والرابع، من نتائج المحبة والخشية. والبواقي، من فضائل قوة الشهوة ـ كما يأتي ـ. وبذلك يظهر: أن من عد الصبر مطلقاً من فضاءل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه.

ويظهر من ذلك: أن أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل رسول الله (ص) عن الإيمان، قال: " هو الصبر، لأنه أكثر أعماله وأشرفها ". كما قال: " الحج عزم ". وقد عرف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى، وبعبارة أخرى: أنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي إلى طريق الخير

---

٢ [2] النازعات، الآية: ٤٠ ــ ٤١.

والصلاح، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح. والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل. والقتال دائما بين الباعثين قائم، والحرب بينهما أبداً سجال٣[3]، وقلب العبد معركته، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله، فإن ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته، غلب حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تحاول وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على دفعه، التحق باتباع الشياطين. وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة، أي اليقين بكون الهوى عدوا قاطعاً لطريق الوصول إلى الله مضادا لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. ثم باعث الدين اما يقهر داعي الهوى بالكلية، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، فيدوم الصبر، وتستقر النفس في مقام الاطمئنان، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب: " يا أيتها النفس المطمئنة! ارجعي إلى ربك راضية مرضية ". فتدخل في زمرة الصديقين السابقين، وتنسلك في سلك عبادة الصالحين. أو يغلب داعى الهوى وينقهر باعث الدين، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، وييأس عن المجاهدة والمقاومة، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته إلى حزب الشيطان. ومثله مثل من أخذ اعز اولاده المتصف بجميع الكمالات، ويسلمه إلى الكفار من اعدائه، فيقتلونه لديه، ويحرقونه بين يديه، بل هو أسوأ حالا منه بمراتب ـ كما لا يخفى ـ إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب ذاك، فتكون النفس في مقام المجاهدة إلى أن يغلب أحد الباعثين، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان. ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها، وتخرج من القسمين ثلاثة أحوال:

الأولى ـ أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات.

الثانية ـ أن يغلب عليه الجميع في الجميع.

---

٣ [3] " الحرب بينهم سجال ": مثل مشهور، أي تارة لهم وتارة عليهم.

الثالثة ـ أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع، أو يغلب عليها كلا أو بعضاً دون بعض.

وقد أشير إلى أهل الحالة الأولى في الكتاب الالهي بقوله ـ تعالى ـ:

" يا أيتها النفس المطمئنة... إلى آخر الآية "٤[4]. والى الثانية بقوله: " ولكن حق القول منّي لأملأَن جهنم من الجنّة والناس أجمعين "٥[5]. وإلى الثالثة بقوله: " خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم "٦[6].

فصل

(مراتب الصبر)

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات إن كان بيسر وسهولة فهو الصبر الحقيقة، وإن كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازاً. وإذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى، تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة، كما قال الله ـ سبحانه ـ:

" فاما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى "٧[7].

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا، وإذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة. وكما ان مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. ولذلك قل رسول الله (ص): " اعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ". قال بعض العارفين: " أهل الصبر على ثلاث مقامات: الأول: ترك

---

٤ [4] الفجر، الآية: ٢٧ ــ ٢٨.

٥ [5] السجدة، الآية: ١٣.

٦ [6] التوبة، الآية: ١٠٣.

٧ [7] الليل، الآية: ٥ ــ ٧.

الشكوى، وهذه درجة التائبين. الثانية: الرضا بالمقدر، وهذه درجة الزاهدين. الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصديقين ". وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن. ثم باعث الصبر إما اظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس، ليكون عندهم مرضياً، كما نقل عن معاوية: أنه أظهر البشاشة، وترك الشكوى في مرض موته، وقال:

وتجلدي للشامتين أريهم   اني لريب الدهر لا اتزعزع

وهذا صبر العوام، وهم الدين يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة، وهذا صبر الزهاد والمتقين، واليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ:

" إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب "٨[8].

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله ـ سبحانه ـ إذ كل ما يرد من المحبوب محبوب، والمحب يشتاق إلى التفات محبوبه ويرتاح به، وان كان ما يؤذيه ابتلاء وامتحاناً له، وهذا صبر العارفين، واليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ:

" وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة "٩[9].

وقد ورد: ان الإمام محمد بن علي الباقر (ع) قال لجابر ابن عبد الله الأنصاري ـ وقد اكتنفته علل واسقام، وغلبه ضعف الهرم ـ: " كيف تجد حالك؟ " قال: أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى، والمرض أحب الي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة. فقال الامام

---

٨ [8] الزمر، الآية: ١٠.

٩ [9] البقرة، الآية: ١٥٥ ــ ١٥٧.

(ع): " أما نحن أهل البيت، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة، فهو أحب الينا ". فقام جابر، وقبل بين عينيه، وقال: صدق رسول الله (ص) حيث قال لي: يا جابر! ستدرك واحداً من اولادي اسمه اسمي، يبقر العلوم بقرا ".

تذنيب

(أقسام الصبر)

الصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى الاقسام الخمسة، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام، كالصبر على قطع يده، أو يد ولده، أو قصد حريمه بشهوة محظورة، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع. وبذلك يظهر ان كل صبر ليس محموداً، بل بعض أنواعه ممدوح وبعض أنواعه مذموم، والشرع محكم، فما حسنه حسن، وما قبحه قبيح.

فضيلة الصبر

الصبر على السراء

اختلاف مراتب الصبر في الثواب

فصل

(فضيلة الصبر)

الصبر منزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين. وبه ينسلك العبد في سلك المقربين، ويصل إلى جوار رب العالمين. وقد أضاف الله أكثر الدرجات، والخيرات إليه، وذكره في نيف وسبعين موضعاً من القرآن. ووصف الله الصابرين بأوصاف، فقال ـ عز من قائل ـ:

" وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا "١[1]. وقال: " وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا "٢[2]. وقال: " ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "٣[3]. وقال: " أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا "٤[4]. فما من فصيلة إلا واجرهم بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: " إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب "٥[5]. ووعد الصابرين

---

١ [1] السجدة، الآية: ٢٤.

٢ [2] الأعراف، الآية: ١٣٧.

٣ [3] النحل، الآية: ٩٦.

٤ [4] القصص، الآية: ٥٤.

٥ [5] الزمر، الآية: ١٠.

بأنه معهم، فقال: " واصبروا إن الله مع الصابرين "٦[6]. وعلق النصرة على الصبر، فقال: " بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين "٧[7]. وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى. فقال: " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون "٨[8].

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى. قال رسول الله (ص): " الصبر نصف الإيمان ". وقال (ص): " من أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمته الصبر، ومن اعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولئن تصبروا على مثل ما انتم عليه احب الي من ان يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه "... ثم قرأ قوله ـ تعالى ـ :

" ما عندكم ينفد وما عند الله باق "٩[9].

وقال (ص): " الصبر كنز من كنوز الجنة ". وقال (ص): " أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ". ولا ريب في ان الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل: " الصبر صبر ". وقال (ص): " في الصبر على تكره خير كثير ". وقال (ص): " الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا ايمان لمن لا صبر له ". وسئل (ص) عن الإيمان، فقال: " الصبر والسماحة ". وقال (ص): " ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم

---

٦ [6] الأنفال، الآية: ٤٦.

٧ [7] آل عمران، الآية: ١٢٥.

٨ [8] البقرة، الآية: ١٥٧.

٩ [9] النحل، الآية: ٩٦.

وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله ـ تعالى ـ من قطرة دم اهريقت في سبيل الله وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين احب إلى الله ـ تعالى ـ من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم ". وروى: " أنه ـ تعالى ـ أوحى إلى داود (ع): يا داود! تخلق بأخلاقي، وإن من اخلاقي اني انا الصبور ". وروى: " أن المسيح قال للحواريين: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون "١٠[10]. وقال (ص): " ما من عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال ـ كما أمره الله ـ : إنا لله وانا إليه راجعون، اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها، إلا وفعل الله ذلك ". وقال (ص): " قال الله ـ عز وجل ـ : إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه ان انصب له ميزاناً وانشر له ديواناً "١١[11]. وقال (ص): " الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، وما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش ". وقال (ص): " سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن ادرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي

---

١٠ [10] صححنا النبويات على (إحياء العلوم): ٥٣/٤، كتاب الصبر.

١١ [11] صححنا الرواية على (البحار): مج١٥: ١٤٨/٢، باب الصبر واليسر بعد العسر.

"١٢[12]. وقال (ص): " ان الله ـ تعالى ـ قال لجبرئيل: ما جزاءُ من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك! لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهي ". وقال (ص) لرجل قال له: ذهب مالي وسقم جسمي: " لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه، ان الله إذا احب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه، صبره ". وقال (ص): " إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله ـ تعالى ـ لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك ". وقال (ص): " إذا اراد الله بعبد خيراً، واراد ان يصافيه، صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجا، فإذا دعاه، قالت الملائكة: صوت معروف، وإذا دعاه ثانياً، فقال: يارب! قال الله ـ تعالى ـ : لبيك عبدي وسعديك! إلا تسألني شيئاً إلا اعطيتك، أو رفعت لك ما هو خير، وادخرت لك عندي ما هو افضل منه. فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى باهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صباً كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية في الدنيا لو انهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فذلك قوله ـ تعالى ـ : إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ". وقال (ص): " إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب، وهو مقيم على معصيته، فاعلموا أن ذلك استدراج "... ثم قرأ قوله ـ تعالى ـ :

" فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء "١٣[13].

يعني: لم تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات، حتى إذا فرحوا بما أوتوا ـ أي بما اعطوا من الخير ـ اخذناهم بغتة. وروى: " أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه، فقال: يا رب العبد المؤمن يعطيك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يعطيك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا! فاوحى الله ـ تعالى ـ إليه: ان العباد الي

---

١٢ [12] صححنا الرواية، وكذا ما قبلها، على (أصول الكافي): ج٢، باب الصبر. وعلى (الوفي): ٣/٣٢١ ـــ ٣٢٣، باب الصبر.

١٣ [13] الانعام، الآية: ٤٤.

والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي. فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فازوى عنه الدنيا واعرض له البلاء، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني، فاجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات فابسط له الرزق وازوى عنه البلاء، فأجزيه بحسناته، في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته "١٤ **[14]**. وعن أبي عبد الله (ع) قال: " قال رسول الله (ص): قال الله ـ عز وجل ـ : اني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا، فمن اقرضني منها قرضاً اعطيته بكل واحدة منهن عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منها قرضاً فاخذت منه شيئاً قسراً، اعطيته ثلاث خصال لو اعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني. قال: ثم تلا ابو عبد الله (ع) قوله ـ عز وجل ـ (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم)، فهذه واحدة من ثلاث خصال، (ورحمة) اثنتان، (واولئك هم المهتدون) ثلاث. ثم قال أبو عبد الله (ع): هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً ". وقال أمير المؤمنين (ع): " بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل ". وقال أمير المؤمنين (ع): " الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله ـ عز وجل ـ عليك ". وقال علي (ع): " الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الأنبياء ". وقال لأمير المؤمنين (ع): " أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات، فهو شهيد، وان ضربه فمات، فهو شهيد "١٥ **[15]**. وقال لأمير المؤمنين (ع): " من اجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكوا وجعك، ولا تذكر مصيبتك ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟ قالوا: بلى! فقرأ عليهم:

" وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير "١٦[16].

---

١٤ [14] صححنا الأحاديث الاربع على (إحياء العلوم): ١١٤/٤، باب الصبر.

١٥ [15] صححنا الروايات الثلاث على (أصول الكافي): ج٢، باب الصبر. وعلى (الوافي): ٣٢١/٣ ــ ٣٢٣، باب الصبر.

١٦ [16] الشورى، الآية: ٣٠.

فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار،فإذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم من ان يعذبه ثانياً، وان عفى عنه في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه يوم القيامة ". وقال الباقر (ع): " الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة. وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار ". وقال (ع): " مروة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى اكثر من مروة الاعطاء "١٧[17]. وقال (ع): " لما حضرت أبى علي بن الحسين (ع) الوفاة، ضمني إلى صدره، ثم قال: يا بني! أوصيك بما اوصاني به أبى حين حضرته الوفاة، وبما ذكر ان اباه اوصاه به، قال: يا بني! اصبر على الحق وان كان مراً ". وقال الصادق (ع): " إذا دخل المؤمن قبره، كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره، والبر مطل عليه، ويتنحى الصبر ناحيته. فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فانا دونه ". وقال (ع): " إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من انتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم : على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله ـ تعالى ـ : صدقوا! ادخلوهم الجنة. وهو قول الله ـ تعالى ـ : إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ". وقال (ع): " من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل اجرا الف شهيد ". وقال (ع): " إن الله ـ عز وجل ـ انعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالا، وابتلى قوما بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة ". وقال (ع): " من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز ". وقال (ع): " إن من صبر صبر قليلا وإن من جزع جزع قليلا.. ثم قال عليك بالصبر في جميع امورك، فان الله ـ عز وجل ـ بعث محمداً (ص) فأمره بالصبر والرفق، فقال:

---

١٧ [17] قال العلامة (المجلسي) ــ قدس سره ــ في (بحار الأنوار): مج١٥ج٢، في باب الصبر على المعصية، في ذيل هذا الخبر: " بيان المروة: هي الصفات التي بها تكمل إنسانية الإنسان ".

" واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً "١٨[18].

وقال أبو الحسن (ع) لبعض اصحابه: "ان تصبر تغتبط، والا تصبر يقدر الله مقاديره، راضيا كنت ام كارها "١٩**[19]**. والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه واجره اكثر من تحصى. ولذلك كان الاتقياء والاكابر محبين طالبين له، حتى نقل " ان واحداً منهم دخل على ابن مريض له، فقال: يا بني! لئن تكن في ميزاني احب الي من ان اكون في ميزانك. فقال: يا أبه! لئن يكن ما تحب أحب الي من أن يكون ما احب ". وقال بعضهم: " ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، ما علم به أحد ".

فصل

(الصبر على السراء)

كل ما يلقى العبد في الدنيا، مما يوافق هواه، أولا يوافقه، بل يكرهه، وهو في كل منهما محتاج إلى الصبر. إذ ما يوافق هواه، كالصحة الجسمية، واتساع الأسباب الدنيوية، ونيل الجاه والمال، وكثرة الأولاد والاتباع، لو لم يصبر عليه، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به، أدركه الطغيان والبطر. (فان الإنسان ليطغى ان رآه استغنى). وقال بعض الأكابر: " البلاء يصير عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا الصديق ". وقال بعض العرفاء: " الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء ". ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش، قالوا: " ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها ". ومن هنا قال الله - سبحانه -:

---

١٨ [18] المزمل، الآية: ١٠.

١٩ [19] صححنا الأحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) في باب الصبر، على الجزء الثاني من (أصول الكافي) باب الصبر، وعلى (الوافي): ٣/٣٢١ ـــ ٣٢٣، كتاب الصبر.

" يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله "٢٠[20]. وقال: " إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم "٢١[21].

ومعنى الصبر على متاع الدنيا: ألا يركن إليه، ويعلم أنه مستودع عنده وعن قريب يسترجع عنه، فلا ينهمك في التنعم والتلذذ، ولا يتفاخر به على فاقده من إخوانه المؤمنين، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي منصبه باعانة المظلومين، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه.

والسر في كون الصبر عليها اشد من الصبر على البلاء: انه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها، بخلاف البلاء، فانه مجبور عليه، ولا يقدر على دفعه، فاصبر عليه أسهل. ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه.

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه، فله ثلاثة أقسام:

الأول ـ ما يكون مقدوراً للعبد، كالطاعات والمعاصي. أما الطاعة، فالصبر عليها شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عنها، وتشتهي التقهر والربوبية، كما يأتي وجهه. ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل، وبعضها باعتبار البخل، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد، فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس ان تصبر عليه، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر في حالات الثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة، إذ يحتاج إليها قبل العمل في تصحيح النية والاخلاص، وتطهيرها عن شوائب الرياء وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في اثنائه،ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه، ويستمر على ذلك إلى الفراغ وبعد الفراغ عنه، لئلا يتطرق إليه العجب، ولا يظهر رياء وسمعة. والنهي عن ابطال العمل وعن ابطال الصدقات بالمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر. وأما المعاصي، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس، فصبرها عليها شديد، وعلى المألوفة

---

٢٠ [20] المنافقون، الآية: ٩.

٢١ [21] التغابن، الآية: ١٤.

المعتادة اشد، إذ العادة كالطبيعة الخامسة، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها، فان الاستبعاد في مثل لبس الحرير اكثر من الاستبعاد في اطلاق اللسان طول النهار في اعراض الناس، مع ان الغيبة أشد من الزنا، كما انطقت به الأخبار. فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها.

ثم المعصية ان كانت مما يسهل فعلها، كان الصبر عنها اشد، كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية، كالكلمات التي توجب نفي الغير والقدح فيه، والثناء على ذاتها تصريحاً أو تعريضاً، كان الصبر عنها اشد. إذ مثل ذلك ـ مع كونها مما تيسر فعله وصار مألوفاً معتاداً ـ انضافت ليه شهوتان للنفس فيه: إحداهما نفي الكمال من غيرها، واخراهما اثباته لذاتها. وميل النفس إلى مثل تلك المعصية في غاية الكمال، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو، فصبرها عنها في غاية الصعوبة. وقد ظهر مما ذكر: أن اكثر ما شاع وذاع من المعاصي انما يصدر من اللسان. فينبغي لكل أحد ان يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروي على كلام يريد أن يتكلم به، فان لم يكن معصية تكلم به، والا تركه، ولو لم يقدر على ذلك. وكان لسانه خارجاً عن طاعته في المحاورات، وجبت عليه العزلة والانفراد وتركه التكلم مع الناس، حتى تحصل له ملكة الاقدار على حفظه، ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفاً، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم ان داعية نفسه إلى أي معصية اشد، فيكون سعيه في تركها اكثر. ثم حركة الخواطر باختلاج الوساوس ايسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات. فلا يمكن الصبر عنها اصلا. إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرفه، كمن اصبح وهمومه هم واحد. واكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدور. وكيف كان فهو تصور باطل، وتضييع وقت. إذ آلة استكمال العبد قلبه، فإذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به انساً بالله، أو فكر يستفيد به معرفة بالله، ويستفيد بالمعرفة حب الله، فهو مغبون.

الثاني ـ ما ليس حصوله مقدورا للعبد، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفي، كما لو اوذى بفعل أو وقول، أو جنى عليه في نفسه أو ماله، فان حصول الاذية والجناية وان لم يرتبط باختياره، إلا انه

يقدر على التشفي من المؤذي أو الجاني بالانتقام منه، والصبر على ذلك بترك المكافآت. وهو قد يكون واجباً، وقد يكون فضيلة، وهو اعلى مراتب الصبر. ولاجل ذلك خاطب الله نبيه (ص) بقوله:

" واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل "٢٢[22]. وبقوله: " فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً "٢٣[23]. وبقوله: " ودع أذاهم وتوكل على الله "٢٤[24]. وقال: " ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور "٢٥[25]. وقال: " وإن عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين "٢٦[26].

وقال رسول الله (ص): " صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك ". وروى: " أنه (ص) قسم مره مالا، فقال بعض الاعراب من المسلمين: هذه قسمة ما اريد بها وجه الله! فاخبر به رسول الله، فاحمرت وجنتاه، ثم قال: رحم الله أخي موسى، قد اوذي باكثر من هذا فصبر ".

الثالث ـ ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً، كالمصائب والنوائب. والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين، والوصول إليه يتوقف على اليقين التام. ولذا قال النبي (ص): " أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا ". وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر. وقال (ص): " قال الله: إذا ابتليت عبدي ببلائى فصبر، ولم يشكني إلى عواده،

---

٢٢ [22] الأحقاف، الآية: ٣٥.

٢٣ [23] المزمل، الآية: ١٠.

٢٤ [24] الأحزاب، الآية: ٤٨.

٢٥ [25] آل عمران، الآية: ١٨٦.

٢٦ [26] النحل، الآية: ١٢٦.

أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، فان ابرأته ابرأته ولا ذنب له، وأن توفيته فالى رحمتي ". وقال (ص): " من اجلال الله ومعرفة حقه: ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك ". وقال (ص): " من ابتلى فصبر، واعطى فشكر، وظلم فغفر، أولئك لهم الامن وهم مهتدون ". وقال (ص): " إن الله ـ تعالى ـ قال لجبرئيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك! لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهي ". وقال داود (ع): " يا رب! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان، لا انزعه عنه أبداً ". وقال لابنه سليمان (ع): " يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر في ما قد فات ". وروى: " أن من ابتلى بموت ثلاثة أولاد، لم يرد على النار اصلا ".

تذنيب

(اختلاف مراتب الصبر في الثواب)

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها، فهو راجع إلى الصبر عن المعصية. وعلى هذا، فاقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب، والصبر على الطاعة، والصبر على المعصية. ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الأول اقل ثواباً، والآخر أكثر ثواباً، والوسط وسطاً بينهما. وربما ظهر من بعض الأخبار: كون الأول أكثر ثواباً. وابو حامد الغزالي رجح الأول أولا، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوي، ثم رجح الثاني ثانياً محتجاً بما روى عن ابن عباس أنه قال: " الصبر في القرآن على ثلاثة اوجه: صبر على أداء فرائض الله ـ تعالى ـ فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله ـ تعالى ـ وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة ". وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، لكونه شديداً على النفس.

وعندي: ان القول بكون أحدهما أكثر ثواباً على الإطلاق غير صحيح، إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة اكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد

بعيد، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم اكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصي وفطامها عن ألذ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد، فالصواب: التفصيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد واشق فثوابه اكثر مما كان اسهل وأيسر، كائناً ما كان، لما ثبت وتقرر ان أفضل الأعمال احمزها، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار.

طريق تحصيل الصبر
تتميم
التلازم بين الصبر والشكر
القانون الكلي في معرفة الفضائل
تفضيل الصبر على الشكر
الفسق
الطهارة
حقيقة الطهارة

فصل

(طريق تحصيل الصبر)

الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الهوى.

والأول: انما يكون بأمور:

الأول ـ أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وأن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية. ومن أسلم خسيسا في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال.

الثاني ـ أن يتذكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها، واستخلاصه عنها عن قريب، مع بقاء الاجر على الصبر عليها.

الثالث ـ أن يعلم أن الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب، كما قال أمير المؤمنين (ع): " إن صبرت جرت عليك المقادير وانت مأجور، وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مازور ".

الرابع ـ أن يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجا، حتى يدرك لذة الظفر بها، فيتجرى عليها، ويقوى متنه في مصارعتها. فان الاعتماد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكد

القوى التي تصدر منها تلك الأعمال. ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة ـ كالحمالين والفلاحين ـ على قوة التاركين لها. فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد.

واما الثاني: اعني تضعيف الهوى، انما يكون بالمجاهدة والرياضة، من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة للشهوة من النظر إلى مظانها وتخيلها، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألَا يخرج عن القدر المشروع.

تتميم

إن قيل: الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية فذلك غير داخل تحت الاختيار، إذ الإنسان مضطر إلى الكراهة، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب؟

قلت: من كان عارفا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، بأن يعلم يقينا بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أو سعة، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض من ذلك مما يعد شراً فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه، وان ذلك إذا كان متيقنا له، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن، وطابت بقضائه وقدره، وتوسع صدره بمواقع حكمه، وايقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة. وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله: " اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ". ومن بلغ بهذه الدرجة، يتلذذ بكل ما يرد عليه. ومثله يتمتع بثروة لا تنفذ، ويتأيد بعز لا يفقد، فيسرح في ملك الابد، ويعرج إلى قضاء السرمد. هذا مع ان العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى، وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي ان يجتنب عنها، ويظهر الرضا بالقضاء، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد ان ذلك كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي (ص) فاضت عيناه بالدمع، فقيل له: اما نهيتنا عن هذا؟ قال: " هذه رحمة، انما يرحم الله من عباده الرحماء ".

وقال أيضاً (ص): " العين تدمع والقلب يحزن، ولا يقول ما يسخط الرب ". بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً، فان المقدم على الفصد والحجامة راض به، مع أنه متألم بسببه لا محالة. نعم، من كمال الصبر كتمان المصائب، لما ورد من أن كتمان المصائب والاوجاع والصدقة من كنوز البر. وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب. وقال الباقر (ع): " الصبر الجميل، صبر ليس فيه شكوى إلى الناس ". وفي بعض الأخبار: " أن الشكاية أن تقول: ابتليت بما لم يبتل به أحد، واصابني ما لم يصب أحداً، وليس الشكوى أن تقول: سهرت البارحة، وحميت اليوم، ونحو ذلك ". وقال الصادق (ع): " من اشتكى ليلة، فقبلها بقبولها، وأدى إلى الله شكرها، كانت كعبادة ستين سنة "، وقيل له: ما قبولها؟ قال: " يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها، فإذا أصبح حمد الله على ما كان ".

تتميم

(التلازم بين الصبر والشكر)

اعلم انه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة. والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. إذ الصبر على لطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً كما مر في باب الشكر. والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله ـ سبحانه ـ وهذا هو الشكر بعينه، لانه تعظيم لله يمنع عن العصيان، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس إليه، وهذا هو عين الصبر عن المعصية. وأيضاً، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر، فكل صبر يستلزم الشكر، وبالعكس.

وبالجملة: لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للاخر، فان اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية، بل اتحادهما فيهما، أمر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوي، إذا

حصل فيه الصبر، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له، من الثواب الاخروي، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة، فيشكر على ذلك. فهو لا ينفك عن الشكر، لانه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضاً من الله، فيفرح بالنعم، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره. وفي النعمة المقيدة، مثل المال، إذا توسل به إلى تحصيل الدين، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الكر تحقق فيه الصبر أيضا. إذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين حبس النفس عما تحبه وتميل إليه، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق، كالكفر والجهل، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه، وفي النعمة المطلقة، كسعادة الآخرة والعلم وحسن الاخلاق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر أيضا. إذ تحصيل السعادة، والعلم، والأخلاق الفاضلة، والابقاء عليها، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه. مع ان الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران، وهو الصبر على المعصية. حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم، والنظر إلى ما تميل إليه النفس من النظر إلى غير المحارم وأمثال ذلك.

فان قيل: استلزام كل من الصبر والشكر للاخر مما لا ريب فيه، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين، فأي الجهتين أفضل؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنيوية، فصبر عليها، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب، وشكر عليها أيضاً، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخروي وغيرها من الله، وفرح بها، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر، أو جهة الشكر؟

قلنا: التأمل يعطى: أن كل صبر هو شكر بعينه، وبالعكس. فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما. فان الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن

الجزع تعظيماً لله. وهذا هو الشكر، إذ كل طاعة لله ـ سبحانه ـ شكر، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران، وهو عين الصبر عن المعصية.

فان قلت: فعلى هذا، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة، وقد تقدم انهما متضادان، إذ الصبر يستدعي ألما، والشكر يستدعي فرحا، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر في محل واحد انما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة.

قلنا: امتناع الاتحاد فيهما انما هو في الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه، فانه لا يمكن ان يكون الصبر على فوت ولد ـ اعني حبس النفس عن الجزع ـ هو عين الشكر على النعمة، إذ موت الولد بعينه ليس نعمة، بل هو مستلزم للنعمة. فالشكر على اللازم، والصبر على الملزوم، فاختلفت جهتا الصبر والشكر، فلا اتحاد. وما ذكرناه من الاتحاد انما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية، أو على البلاء والطاعة. وندعي أن من وصلت إليه نعمة، فشكر عليها بعرفانها من الله، ففرح بها، وعمل بمقتضى الفرح، من التحميد أو طاعة اخرى، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره. كذا من ابتلى ببلية،، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع، فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب. وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه، وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير اصلا، والاستلزام واختلاف الجهة انما هو في الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما. وفي هذه الصورة، يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق، فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضا.

فان قيل: عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر، وليس داخلا في الصبر، فينبغي ان يكون الشكر لذلك افضل من الصبر.

قلنا: في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر، وفي الشق الثاني منهما، وفي صورة الاستلزام، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر. فكما ان الشاكر يرى نعمة العينين من الله، فكذا الصابر يرى العمى من الله، فهما في المعرفة متساويان. ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم[1]، وعلى هذا يكون الرضا فوقه، لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضا، ويكون الشكر فوق الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته، إذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به، لأنه يراه من محبوبه. وحينئذ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر، وبدونها رضا، ومع الفرح به شكر.

تنبيه

(القانون الكلي في معرفة الفضائل)

اعلم أن المعيار والقانون الكلي في معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند ارباب القلوب: أن العمل كلما كان اكثر تأثيراً في اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا، وأشد اعداداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفاته وافعاله، كان أفضل. وعلى هذا القانون، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته، وسبب الاختلاف أسباب:

منها ـ الاختلاف بين أقسام النعم واقسام البلاء.

---

[1] قال استاذ البشر المحقق (الطوسي) (ره) في تعريف الصبر: " الصبر. حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطن عن الاضطراب، واللسان عن الشكاية، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة... ".

ومنها ـ اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة. فربما كان بعض درجات الصبر اشد تنويراً واكثر اصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما. فان الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة، وباختلافها ـ كثرة وقلة ـ تختلف درجاتهما. فمن الأمور والأحوال التي تندرج تحت الشكر: حياء العبد من تتابع نعم الله عليه، ومعرفته بتقصيره عن الشكر، واعتذاره من قلة الشكر، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله ـ تعالى ـ من غير استحقاقه لها، وعلمه بأن الشكر أيضاً نعمة من نعمه ومواهبه، وحسن تواضعه بالنعم، والتذلل. وقلة اعتراضه، وحسن ادبه بين يدي المنعم، وتلقي النعم بحسن القبول، واستعظام صغيرها، وشكر الوسائط،ولقوله (ص): " من لم يشكر الناس لم يشكر الله ". وقال السجاد (ع): " اشكركم لله اشكركم للناس ". وقال (ع): " يقول الله ـ تعالى ـ لعبد من عبيده يوم القيامة: اشكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يارب! فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره ". وقال الصادق (ع): " اشكر من انعم عليك، وانعم على من شكرك ". ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر، وطال زمانه، ازداد فضله. وقد نقل: " ان رجلا (كان) يهوى ابنة عم له، وهي أيضاً تهواه، فاتفق مزاوجتهما، فقال الرجل ليلة الزفاف لها: تعالي حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا، فقالت: نعم! فصليا تلك الليلة بأسرها، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه. فلما كانت الليلة الثانية، قالا مثل ذلك، فصليا طول الليل... فهكذا يفعلان في ثمانين سنة، وبقيا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة، دون رجوع لاحدهما إلى الآخر، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما، فضلا عن شيء آخر ". ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من صبرهما على بلاء العزوبة، لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل.

تتميم

(تفضيل الصبر على الشكر)

علم أن الظاهر من بعض الأخبار: ان الصبر أفضل واكثر ثواباً من الشكر. كما روى: " انه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين. ويؤتى بأصبر أهل الأرض، فيقال له: اترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يارب! فيقول الله ـ تعالى ـ : كلا! أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت، لا ضعفن عليك الأجر عليه! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين ". وكقوله (ع): " الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ". وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر، لان المشبه به أعلى رتبة من المشبه. وكقول الباقر (ع): " مروة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى، اكثر من مروة الاعطاء ". ويؤيد ذلك قوله ـ تعالى ـ: (إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب). وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان:

أحدهما ـ التقييد ببعض المراتب، بأن يقول: المراد أن بعض مراتب الصبر افضل من بعض مراتب الشكر. وهذا مما لا ريب فيه، فان من سلب اعز اولاده وابتلى بالفقر والمرض، ومع ذلك صبر ولم يجزع، فهو افضل البتة ممن اعطى مالا كثيراً فقال: شكرا لله، والحمد لله، من دون ابداء عمل آخر من الطاعات. وليس المراد أن كل ما يسمى صبرا افضل من كل درجة من درجات الشكر. إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية، من دون فتور، افضل واعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه.

وثانيهما ـ التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر. فان الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر، ولا يلتفتون إلى ان هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله، وهو عين الشكر. وكذا لا يفهمون من اظهار التحيمد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر، ولا يلتفتون إلى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران، وهو الشكر بعينه.

ومنها:

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته. وضده الطاعة، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة. وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي: الطهارة، والصلاة، والذكر، الدعاء، وتلاوة القرآن، والصوم، والحج، وزيارة النبي (ص) والائمة (ع)، والجهاد في سبيل الله، واداء المعروف، الشامل للزكاة، والخمس، والصدقة المندوبة، وغيرها. والاخير ـ اعني اداء المعروف باقسامه ـ قد تقدم. والجهاد في هذا الزمان ساقط. فنشير إلى بعض الاسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي، في مقاصد وخاتمة. وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة، فهي مذكورة في الفقهيات.

المقصد الأول

الطهارة ـ حقيقة الطهارة ـ ما ينبغي للمؤمن في الطهارة ـ إزالة الاوساخ ـ آداب الحمام ـ السر في إزالة الاوساخ.

اعلم ان الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد. إذ الطهارة الظاهرة وسيلة إلى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الأولى لم تحصل الثانية. ولذا ورد في مدحها ما ورد، قال الله ـ سبحانه ـ:

" فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين "٢[2]. وقال: " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم "٣**[3]**.

وقال رسول الله (ص): " بنى الدين على النظافة ". وقال (ص): " الطهور نصف الإيمان ". وقال (ص): " مفتاح الصلاة الطهور ". وقال (ص): " بئس للعبد القاذورة ". وقال (ص): " من اتخذ ثوباً فلينظفه ". وقال أمير المؤمنين (ع): " النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن، وهو طهور للصلاة ".

---

٢ [2] التوبة، الآية: ١٠٩.

٣ [3] المائدة، الآية: ٧.

ثم للطهارة أربع مراتب:

الأول ـ تطهير الظاهر من الاحداث والاخباث والفضلات.

الثانية ـ تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات.

الثالثة ـ تطهير القلب من مساوي الأخلاق ورذائلها.

الرابعة ـ تطهير السر عما سوى الله ـ تعالى ـ، وهي تطهير الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها، إذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته، وتحصل له المعرفة التامة، والحب والإنس. ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ما سوى الله، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ:

" قل الله ثم ذرهم "٤[4]. فان الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد: " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه "٥[5].

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله، والنصف الآخر شروق نور الحق فيه. والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالاخلاق المحمودة، والعقائد الحقة المشروعة. ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها، من الأخلاق المذمومة، والعقائد الفاسدة. فتطهيرها عنها أحد الشطرين، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة.

وأما عمل الجوارح، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات. ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصي والمناهي. فهذا التطهير نصف عملها، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات. وقس على ذلك الحال في المرتبة الأولى. وإلى ذلك الإشارة بقول النبي (ص): " الطهور نصف الإيمان ". فان المراد: أن تطهير الظاهر، والجوارح، والقلب، والسر،، من النجاسات

---

٤ [4] الانعام، الآية: ٩١.

٥ [5] الاحزاب، الآية: ٤.

والمعاصي ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الإيمان، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الأخلاق، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله. ولا تظنن أن مراده (ص) أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الإيمان، مع تلوث الجوارح بأخباث المعاصي، وتنجس القلب باقذار مساوي الأخلاق، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله. فالمراد التطهير في المراتب الاربع، التي هي من مقامات الدين، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق، ما لم يتجاوز ما دونه، فلا يصل إلى طهارة السر مما سوى الله وعمارته بمعرفة الله، وانكشاف جلاله وعظمته، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة، وتحليته بالملكات المحمودة، ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن إزالة الخبث والحدث عن الظاهر، وعمارته بالنظافة والنزاهة.

فصل

(حقيقة الطهارة)

طهارة الظاهرة، إما عن الخبث، أو عن الحدث، أو عن فضلات البدن، وما يتعلق بها من الاحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة، مستقصاة في كتب الفقه.

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة، أن يتذكر عنده نقصه وحاجته، وخبث باطنه، وخسة حاله، وما يشتمل عليه من الاقذار، وكونه حامل النجاسات، ويتذكر باستراحة نفسه عند اخراجها، وسكون قلبه عن دنسها، وفراغه للعبادات والمناجاة، وان الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة، واقذار كامنة، لتستريح نفسها عند اخراجها، ويطمئن قلبه من إزالة دنسها، وعند اخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة، ويتأهل للقرب والوصول إلى حريم العزة. فكما يسعى في اخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا، فينبغي أن يجتهد أيضاً في اخراج الاقذار الباطنة،

والنجاسات الداخلة الغائضة٦[6] في الأعماق، المفسدة على الإطلاق، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد. قال الصادق (ع): " إنما سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفس من اثقال النجاسات واستفراغ الاقذار والكسافات فيها. والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها واخذها واستنكافه عن النجاسة والغائط والقذر، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين. فان الراحة في هو ان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة. فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفر من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه، طلباً لحسن المآب، وطيب الزلفى، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات، إلى أن يتصل بأمان الله ـ تعالى ـ في دار القرار، ويذوق طعم رضاه، فان المعول على ذلك، وماعداه فلا شيء "٧[7]. وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة، وكلما كانت ألذ عفونتها أشد، فما كانت عاقبته ذلك، فليحذر من أن يأخذه من غير حله، فيعذب أبد الآباد لأجله.

---

٦ [6] الغائضة: الغائرة. غيض الدمع: حبسه وأخفاه.

٧ [7] الحديث مذكور في (مصباح الشريعة)، باب التاسع. وفي (مستدرك الوسائل): ٣٧/١ ــ ٣٨، كتاب الطهارة. وفي الموضعين اختلاف كثير عما ذكر هنا، فصححناه كما كان في الموضعين.

ما ينبغي للمؤمن في الطهارة
إزالة الأوساخ
آداب الحمام
السر في إزالة الأوساخ
الصلاة
حقيقة الصلاة

فصل

(ما ينبغي للمؤمن في الطهارة)

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث: أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو لكون اعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للامور الدنيوية، منهمكة في الكدورات الطبيعية، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله ـ سبحانه ـ والاشتغال بعبادته. فالأمر بغسلها، لتتطهر عن هذه الكدورات، فيتأهل للمناجاة. ولا ريب في ان مجرد غسلها لا يطهرها عن الادناس الدنيوية والكدورات الجسمانية، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، والعلائق الدنيوية، وما لم يعزم على الرجوع إلى الله، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها. فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات، جازما على فطام الاعضاء التي هي اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا، لتسرى نوريته وطهارته إلى تلك الاعضاء، ثم أمر في الوضوء اولا: بغسل الوجه، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا، ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله،وهو خال من تلك الادناس، وثانياً بغسل اليدين، لمباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الاقبال على الآخرة، وثالثاً: بمسح الرجلين، للتوصل بهما إلى اكثر المطالب الدنيوية والمقاصد الطبيعية. فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والاقبال عليها. وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة، لأن ادنى حالات الإنسان وأشدها تعلقاً بالملكات الشهوية حالة الوقاع، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة. ولذا قال رسول الله (ص): " تحت كل شعرة جنابة ". فحيث كان جميع بدنه بعيداً

عن المرتبة العلية، منغمساً في اللذات الدنية، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة، والدخول في العبادة المنيفة. وأمر في التيمم بمسح الاعضاء بالتراب، عند تعذر غسلها بالماء، وضعاً لتلك الاعضاء الرئيسة، وهضماً لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة.

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والاعضاء، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه ـ تعالى ـ، وهو الموضع لنظر الله ـ سبحانه ـ، كما قال (ص): " إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم "، فله من ذلك الحظ الاوفر والنصيب الاكمل. فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الاعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة، وتحليته بالاوصاف الجميلة، لرسوخه على حب الدنيا الدنية، فليقمه في مقام الهضم والازراء، ويسقه بسياط الذل والاغضاء. كما أنه عند تعذر غسل الاغضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع، فانه عند المنكسرة قلوبهم، كما ورد في الأثر، فترق من هذه الاشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الاقبال، ويتدارك سالف الاهمال.

ثم ما ذكر من السر في الطهارة، يمكن استنباطه ـ مع الزيادة ـ من كلام مولانا الصادق (ع) في (مصباح الشريعة)، حيث قال: " إذا أردت الطهارة والوضوء، فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله، فان الله ـ تعالى ـ قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته، ودليلا إلى بساط خدمته، وكما ان رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره، قال الله ـ تعالى ـ :

" وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً "١[1].

وقال الله ـ تعالى ـ: " وجعلنا من الماء كل شيء حيٍ أفلا يؤمنون "٢[2].

---

١ [1] الفرقان، الآية: ٤٨.

فكما احيى به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقته، وطهره وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شيء. واستعمله في تطهير الاعضاء التي امرك الله بتطهيرها، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه. فان تحت كل واحد منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائد عن قريب. ثم عاشر خلق الله ـ تعالى ـ كامتزاج الماء بالاشياء، يؤدي كل شيء حقه، ولا يتغير عن معناه، معتبرا لقول الرسول (ص): " مثل المؤمن الخالص كمثل الماء ". ولتكن صفوتك مع الله ـ تعالى ـ في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهوراً، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء "٣[3].

ومن الاسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الاعضاء بالتطهير في الوضوء، ما اشار إليه مولانا الرضا (ع) بقوله: " إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه، مطيعاً له فيما أمره، نقياً من الادناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار. وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين، لان العبد إذا قام بين يدي الجبار، فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء، وذلك انه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده. وبرجليه يقوم ويقعد. وأمر بالغسل من

---

٢ [2] الأنبياء، الآية: ٣٠.

٣ [3] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة)، الباب العاشر. وعلى (المستدرك): ١/٥١ ــ ٥٢، كتاب الطهارة.

الجنابة دون الخلاء، لان الجنابة من نفس الإنسان، وهو شيء يخرج من جميع جسده، والخلاء ليس هو من نفس الإنسان، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب "[4]٤.

فصل

(إزالة الاوساخ)

ينبغي لكل مؤمن ان يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه، كشعر الرأس بالحلق، وشعر الانف والشارب وما طال من اللحية بالقبض، وشعر الابط والعانة وسائر الاعضاء بالنورة، كأظفار اليدين والرجلين بالقلم، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية والغسل والتسريح بالمشط، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الاذنين بالمسح ومثله، وما يجتمع منه على الاسنان واطراف اللسان بالسواك والمضمضة، وما يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق، وما يجتمع من الوسخ تحت الاظفار بالقلم والغسل، وما يجتمع منه في رؤس الانامل وفي معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام.

تنبيه

(آداب الحمام)

---

٤ [4] هذه الرواية نقلها العلامة (المجلسي) (ره) في (البحار): ٥٦/١٨، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه، وعن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) ــ(ره)، ولم أعثر عليها إلا في الموضع المذكور من (بحار الأنوار).

ولا يخفى أن ما نقله العلامة (المجلسي) ــ قدس الله روحه ــ في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب. وذلك غير ممكن، لضيق المقام، فلاجله تركنا تصحيحها، لعل القاريء الكريم يقف على مصدر آخر لها. فمن ارد الاطلاع على الرواية، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور.

ينبغي لمن يدخل الحمام، أن يتذكر بحرارته حر النار، ويقدر نفسه محبوساً في البيت ساعة، ويقيسه إلى جهنم، ويستعيذ بالله منها. قال الصادق (ع): " فإذا دخلت البيت الثالث، فقل: نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة. ترددها إلى وقت خروجك من البيت الحار ". وقال أمير المؤمنين (ع): " نعم البيت الحمام، يذهب بالدرن، وتذكر فيه النار ". وفيه اشارة إلى انه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة، فانها مقره ومستقره. فيكون له في كل ما يراه، من ماء أو نار أو غيرهما، عبرة وموعظة. فان المرء ينظر في كل شيء بحسب همته. فالبزاز إذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر إلى الفرش ويتأمل في قيمتها. والحائك إذا دخلها ينظر إلى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها، والنجار إذا دخلها ينظر إلى ابوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها، والبناء إذا دخلها ينظر إلى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر إلى شيء إلا وتكون له موعظة وعبرة من الآخرة. فان نظر إلى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وان نظر إلى نار تذكر نار جهنم، وإن نظر إلى حية تذكر افاعي جهنم، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن نظر إلى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة... إلى غير ذلك.

تتميم

(السر في إزالة الاوساخ)

السر في إزالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر، فانها توجب تنوير القلب، وانشراح الصدر، وطرد الشيطان. إذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد، فتشمئز منها الملائكة، ويرغب إليها الشياطين. ومن تأمل في الاحكام والآداب التي جاء بها الرسول (ص) وكانت له بصيرة ناقدة، يعلم ان شيئاً منها لا يخلو عن حكمة، حتي ان ما صدر عنه في الآداب والحركات والافعال والاقوال، من ترتيب خاص، أو تخصيص بعدد معين، أو ابتداء من موضع خاص أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة، يتضمن حكماً أو حكمة البتة. مثال ذلك:

انه (ص) كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي عينه اليسرى اثنين، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص: ان اليمنى اشرف العينين فبدأ بها، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً، فان للوتر فضلاً على الزوج، لان الله وتر يحب الوتر، فلا يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من اوصاف الرب، وانما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لان اليسرى حينئذ لا تخصها إلا واحدة، والغالب ان الواحدة لا تستوعب أصول الاجفان بالكحل، وانما خصص اليمين بالزيادة لان التفضيل لابد منه للايثار، واليمين افضل، فهو بالزيادة احق، وانما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجاً، إذ الزوجية في إحداهما لازمة ضرورية، إذ لو جعل لكل واحدة وتراً لكان المجموع زوجاً، إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة احب من رعايته في الآحاد. مثال آخر: روى الجمهور في تقليم الاظفار: " ان رسول الله (ص) كان يبدأ عند تقليم اظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى، ويختم بابهام اليمنى، بأن يبتدئ من مسبحتها إلى خنصرها، ثم يبتدئ من خنصر اليسرى إلى إبهام اليمنى ". وفي طريقنا روايتان: إحداهما ان يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى، واخراهما بعكس ذلك، وهي اشهر. فالسر على رواية الجمهور ـ كما قيل ـ ان اليد اليمنى اشرف من اليسرى فيبتدئ بها، ثم على اليمنى خمسة اصابع والمسبحة اشرفها فيبتدأ بها، ثم ينبغي ان يبتدئ بما على يمينها لكون اليمنى اشرف، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى. ولا ريب في انه إذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى، ووضع ظهر اليد على الأرض وان اقتضى كون الابهام هو اليمين، إلا ان الاعتبار الأول اولى، إذا اليد إذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض، لأن جهة حركة اليد اليمنى إلى جهة اليسار، واليسرى إلى جهة اليمين، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الأرض وظهرها عالياً، وإذا كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع اولى، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى. ثم إذا وضعت الكف على الكف، صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة، فيقضى ترتيب الدور والذهاب من يمين المسبحة إلى ان يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بابهامها، ويبقى ابهام اليمنى، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع

كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك اولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف، فان ذلك لا يتقضيه الطبع.

هذا، واما السر على الرواية الأولى من طريقنا، فكانه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الأرض، والابتداء باليمين، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها. واما الرواية الثانية، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الأولى مع التريب فيها، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع. هذا، واما اصابع الرجل، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء بها والترتيب فها. فينبغي اعتبار أحد الطريقين المرويين عندنا فيها، ولعل اعتبار الأولى لاظهرية سرها اولى، وينبغي ان يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين ان وقعا في وقت واحد، إذ اليد اشرف من الرجل. وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات فانه لا يخلو شيء منها على سر حكمي، وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك اكثرها.

المقصد الثاني

الصلاة ـ حقيقة الصلاة ـ حضور القلب ـ دفع اشكال ـ شرائط الصلاة ـ طريق تحصيل المعاني الباطنة ـ اسرار الصلاة ـ الوقت ـ آداب الصلاة ـ آداب المصلي ـ الاستقبال ـ القيام ـ التكبيرات ـ النية ـ تكبيرة الاحرام ـ دعاء الاستفتاح ـ الاستعاذة ـ الركوع ـ السجود ـ التشهد ـ التسليم ـ افاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه ـ ما ينبغي في إمام الجماعة ـ ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين ـ ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات.

إعلم أن الصلاة معجون سماوي، وتركيب إلهي، ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها. فبعضها بمنزلة الروح، وبعضها بمثابة الاعضاء الرئيسة، وبعضها بمنزلة سائر الاعضاء.

وتوضيح ذلك: ان الإنسان ـ مثلا ـ لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة، فهو لا يكون إنساناً موجوداً كاملا إلا بمعنى باطن هو الروح، واعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهره. وهذه الاعضاء متفاوتة المراتب، إذ بعضها مما ينعدم الإنسان بعدمه

وتزول الحياة بزواله، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها، وبعضها وان لم ينعدم بعدمه اصل الحياة، إلا أنه ترتفع به تمامية الإنسان ويصير ناقصاً، كاليد والرجل والعين وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته الحسن، كالحاجبين واللحية والاهداب وامثالها، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا اصله، كاستقواس الحاجبين، وتناسب الخلقة، وسواد شعر اللحية، وامتزاج البياض بالحمرة، وامثال ذلك. وكذلك الصلاة حقيقة مركبة، وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة، وتعبدنا باكتسابها. فروحها: النية، والقربة، وحضور القلب، والاخلاص. وأعمالها الاركانية: من تكبيرة الاحرام، والركوع، والسجود، والقيام، بمنزلة الاعضاء الرئيسة، فتفوت بفواتها الصلاة على الإطلاق، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها. وسائر الأعمال الواجبة: من الفاتحة، والسورة، واذكار الركوع، والسجدتين، والطمأنينة فيهما، وفي رفع الرأس عنهما، والتشهد، والتسليم وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به، والأعمال المسنونة، والهيئات المندوبة، والآداب المستحبة: من القنوت، ودعاء الافتتاح، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات، والتعوذ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهوا، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب، فهي بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب الخلقة، وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه.

وإذا عرفت ذلك: فاعلم ـ يا حبيبي ـ أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين إليهم. وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد إليك في يوم العرض الأكبر، فاليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها، فمن أداها على النحو المأمور به، بأعمالها الواجبة والمندوبة، وشرائطها الظاهرة والباطنة، مع الإخلاص وحضور القلب، كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سويا شابا جميلا عاقلا كاملا إلى

ملك من الملوك. ومن اقتصر على أعمالها الظاهرة، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص، كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح إلى ملك من الملوك. ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته، كان كمن اهدى عبداً مقتولا إليه. ومن اقتصر على أقل ما يجزى كان كمن اهدى إليه عبد حي أعمى، أو أصم، أو أبكم، أو مقطوع الاطراف، أو هرماً، أو قبيح المنظر، أو مجروح الاعضاء، أو امثال ذلك. فتنبه ايها الغافل، وتأمل في انك إذا اهديت تحفة إلى ملك من ملوك الدنيا، بل إلى من دونه بمراتب كثيرة، من الامراء والحكام، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها، فما بالك ايها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك إلى ملك الملوك الذي منه بدؤك واليه عودك؟! وقد ورد: ان كل صلاة لا يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها يوم العرض الاكبر، وتقول:

" ضيعك الله كما ضيعتني! ".

فصل

(حقيقة الصلاة)

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الاجزاء والشرائط والأحكام، إذ بيانها على عهدة الفقه. فلنشر إلى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها، وإلى الاسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة باجزائها وشرائطها الظاهرة، لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها.

فنقول: المعاني الباطنة، التي هي روح الصلاة وحقيقتها، سبعة:

الأول ـ الإخلاص والقربة، وخلوها عن شوائب الرياء. وقد تقدم تفصيل القول في ذلك.

الثاني ـ حضور القلب: وهو ان يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، حتى يكون العلم مقروناً بما يفعله وما يقوله، من غير جريان الفكر في غيرهما. فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه، فقد حصل حضور القلب. ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه، وقد يعبر عنه

بالخشوع بالقلب، فان الخشوع في الصلاة خشوعان: خشوع بالقلب: وهو ان يتفرغ لجمع الهمة لها، والاعراض عما سواها، بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود. وخشوع بالجوارح: وهو أن يغض بصره، ولا يلتفت، ولا يعبث، ولا يتثاءب، ولا يتمطى، ولا يفرقع اصابعه، وبالجملة: لا يتحرك لغير الصلاة، ولا يفعل شيئاً من المكروهات، وربما عبر ذلك بالخضوع.

الثالث ـ التفهم لمعنى الكلام: وهو أمر وراء حضور القلب. فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ، ولا يكون حاضرا مع معناه. فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ. وهذا مقام يتفاوت فيه الناس، إذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسبيحات، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في اثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره. ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فانها تفهم اموراً تمنع تلك الأمور عن الفحشاء والمنكر لا محالة.

الرابع ـ التعظيم: وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم. إذ الرجل ربما يخاطب غيره، وهو حاضر القلب فيه، ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظماً له.

الخامس ـ الهيبة: وهي زائدة على التعظيم لأنها عبارة عن خوف منشأه التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً، ثم كل خوف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال.

السادس ـ الرجاء: ولا ريب في كونه زائداً عما ذكر. فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك، ويهابه ويخاف سطوته، ولا يرجو بره واحسانه. والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله، كما أنه خائف بتقصيره عقابه.

السابع ـ الحياء: ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء، لتصورها من غير حياء، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

حضور القلب
دفع إشكال
شرائط الصلاة
طريق تحصيل المعاني الباطنة
أسرار الصلاة
الوقت

فصل

(حضور القلب)

اعلم ان كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها، والمقصود الاصلي منها، أمر ظاهر. إذ الغرض الاصلي من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلها، فكل عمل يكون اشد تأثيراً فيهما يكون افضل. ولا ريب في ان المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه، مع ان المصلى في صلاته ودعائه مناج ربه؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، وايضا الكلام إعراب عما في الضمير، ولا يتأتى الاعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قوله: " اهدنا الصراط المستقيم " إذا كان القلب غافلا؟ ولا شك أيضاً أن المقصود من القراءة والأذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله ـ تعالى ـ فإذا كان قلب العبد محجوباً عنه بحجاب الغفلة، ولا يراه ولا يشاهده، بل كان غافلا عن المخاطب، ويحرك لسانه بحكم العادة، فما ابعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله، ورسوخ عقد الإيمان بها. هذا حكم القراءة والذكر. واما الركوع والسجود، فالمقصود منهما التعظيم قطعاً، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة، وإذا خرج عن كونه تعظيما، لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، كما في افعال الحج، واعطاء المال في الزكاة، وامساك النفس عن الشهوات في الصوم. فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها

عماد الدين، والفاصل بين الكفر والاسلام، وتقدم على سائر العبادات، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص؟ ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة، تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها، وعلى ذم الغفلة والتفكر في أمور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة، وقد تظاهرت الأخبار أيضاً بأن الأنبياء والأوصياء واكابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الاقبال والخشوع والخوف. قال الله ـ سبحانه ـ:

" الذين هم في صلاتهم خاشعون "١[1]. وقال: " وأقم الصلاة لذكري "٢[2]. والغفلة تضاد الذكر، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقيماً للصلاة لذكره وقال: ولا تكن من الغافلين "٣[3]. وقال: " فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون "٤[4]. ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها. وقال: " لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون "٥[5].

قيل: المراد: سكارى من كثرة الهم، وقيل: من حب الدنيا. ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا، إذ بين فيه العلة. وقال: " حتى تعلموا ما تقولون ". وكم من مصل لم يشرب الخمرة وهو لا يعلم ما يقول في صلاته. وقال رسول الله (ص): " من صلى

---

١ [1] المؤمنون، الآية: ٢.

٢ [2] طه، الآية: ١٤.

٣ [3] الأعراف، الآية: ٢٠٤.

٤ [4] الماعون، الآية: ٤ ــ ٥.

٥ [5] النساء، الآية: ٤٢.

ركعتين، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه ". وقال (ص): " إذا صليت صلاة فريضة، فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها ". وقال (ص): " لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه ". وقال (ص): " انما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، واشعرت المناسك، لاقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك؟! ".

وعن أبي عبدالله (ع) قال: " قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: انما اقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، ويكف نفسه عن الشهوات من اجلي، ويقطع نهاره بذكري، ولا يتعاظم على خلقي، ويطعم الجائع، ويكسو العاري، ويرحم المصاب، ويؤوي الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، اجعل له في الظلمات نوراً، وفي الجهالة علماً، أكلأه بعزتي، واستحفظه بملائكتي، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه. فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس، ولا تيبس ثمارها، ولا تتغير عن حالها "٦[6]. وفي أخبار موسى: " يا موسى، إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض اعضاءك وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً. وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك. وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل، ولسان صادق ". واوحى إليه (ع): " قل لعصاة امتك: لا تذكروني، فاني آليت على نفسي ان من ذكرني ذكرته،، وإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة ". وفي بعض الأحاديث القدسية: " ليس كل مصل أتقبل صلاته، انما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر على عبادي، واطعم الفقير الجائع لوجهي ". وقال أمير المؤمنين (ع): " طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره ". وقال الصادق (ع): " لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صليت، فاقبل بقلبك على الله ـ عز وجل ـ، فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله ـ عز وجل ـ في صلاته

---

٦ [6] الحديث مروي في (بحار الأنوار): ١٨/١٩٦، باب آداب الصلاة عن (المحاسن)، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات)، فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الأنوار).

ودعائه، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين، وايده مع مودتهم اياه بالجنة ". وقال الباقر (ع): " ان العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وانما امروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة ". وروي: " أن إبراهيم الخليل كان يسمع تأوهه على حد ميل، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل٧**[7]** ".

وكذلك كان سمع من صدر سيدنا رسول الله (ص) مثل ذلك. وقال بعض ازواجه: " كان النبي (ص) يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ". وكان أمير المؤمنين (ع) إذا أخذ في الوضوء، يتغير وجهه من خيفة الله. وكان (ع) إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون، فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: " جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها، وحملها الإنسان ". وروي: " أنه وقع نصل في رجله (ع)، فلم يمكن أحداً من اخراجه. فقالت فاطمة ـ عليها السلام ـ: اخرجوه في حال صلاته، فانه لا يحس حينئذ بما يجري عليه. فاخرج وهو في صلاته، فلم يحس به اصلا ". وكانت الصديقة فاطمة ـ عليها السلام ـ تنهج٨**[8]** في الصلاة من خيفة الله. وكان الحسن بن علي ـ عيهما السلام ـ إذا فرغ من وضوئه، تغير لونه، فقيل له في ذلك، قال: " حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه ". وكان الإمام علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ إذا توضأ اصفر لونه، فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: " إني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم ". وقال أبو حمزة الثمالي: رأيته يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فسألته عن ذلك، فقال : ويحك! أتدري بين يدي من كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه؟. فقلت له: يا بن رسول الله، هلكنا اذاً. قال: كلا! ان الله يتم ذلك بالنوافل ". وروي: " أنه (ع) إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى

---

٧ [7] الأزيز: صوت غليان القدر. والمرجل ــ وزان منبر ــ: القدر من الحجارة.

٨ [8] النهج ــ بالتحريك:ــ تتابع النفس واللهاث.

يرفض عرقاً ". وروي: " أنه (ع) كان إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه ". وسئل مولانا الصادق (ع) عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشياً عليه، فقال: " ما زلت اكرر آيات القرآن، حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها "[9] **[9]**. قيل. وكان لسان الإمام (ع) في تلك الحال كشجرة طور حين قالت " اني أنا الله ". وسئل بعض الأكابر عن صلاته، فقال: " إذا جاءت الصلاة، اسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي اريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم اقوم إلى الصلاة، فأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، واكبر تكبيراً بتحنن، وأقرأ القرآن بترتيل، واركع ركوعاً بتواضع، واسجد سجوداً بتخشع، واقعد على الورك اليسرى، وأفرش ظهر قدمها، وانصب القدم اليمنى على الابهام واتبعها الاخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا! ".

ثم، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء، مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس، تعلم: ان الناس ينقسمون في صلاتهم: إلى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة، وإلى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهما، وزيادة أحدهما على الآخر، فله مراتب غير متناهية. وإلى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته، وربما كان مستوعب الهم بها، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين (ع) بإخراج النصل من رجله الشريفة. وبعضهم حضر الجماعة مدة، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين. وكان جماعة تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم عند الصلاة. وكل ذلك غير مستبعد، فان اضعافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا، مع ضعفهم وعجزهم، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم. حتى

---

[9] [9] صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على (بحار الأنوار). ١٨/ ١٦٩ ــ ٢٠٢، با آداب الصلاة.

يدخل الرجل على ملك أو وزير، ويحدثه بمهم ويخرج، ولو سئل عمن كان على حواليه، وعن ثوب الملك، لكان غير قادر على الاخبار عنه، لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله:

" ولكلٍ درجات مما عملوا "١٠[10].

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فان موضع نظر الله القلوب، دون ظاهر الحركات. ولذا قال بعض الصحابة: " يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها "، فالملحوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل: " من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة، ولا ينجو:

" إلا من أتى الله بقلبٍ سليم "١١[11].

تنبيه

(دفع اشكال)

إن قيل: المستفاد من الظواهر المذكورة، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر ما اقبل عليه منها، والفقهاء لم يشترطوا الا حضور القلب عند النية والتكبير، فكيف التوفيق؟.

قلنا: فرق بين القبول والاجزاء، فان المقبول من العبادة ما يقرب العبد إلى الله، ويترتب عليه الثواب في الآخرة، والمجزي منها ما يسقط التكليف عن العبد، وان لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله. والناس مختلفون في تحمل التكليف، فان التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة، فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة، إذ لا يقدر على

---

١٠ [10] الأنعام، الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩.

١١ [11] الشعراء، الآية: ٨٩.

ذلك الا الأقلون. وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة، فلا مرد له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى الحظات به لحظة التكبير والتوجه، فاقتصر على التكليف بذلك. ونحن ـ مع ذلك ـ نرجوا ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً، واحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره؟ والحاصل: ان الاقبال والحضور هو روح الصلاة، وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في اجزاء الصلاة، وكم من حي لا حراك فيه قريب من الميت، فصلاة الغافل في جميعها، إلا عند التكبير، حي لا حراك فيه.

فصل

(شرائط الصلاة)

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسباباً لا تتحقق بدونها.

أما حضور القلب: فسببه الاهتمام.

فان قلت: كل أحد تابع لهمه، فلا يحضر الا فيما يهمه، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه، شاء أو لم يشأ، فهو مجبول عليه مسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا، بل كان حاضراً فيما يهمه من أمور الدنيا. فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة اليها، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى، وان الصلاة وسيلة إليها، وإذا اضيف إلى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة. ولكون الباعث والسبب لاحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضرك. فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر، فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الايمان واليقين. فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والإيمان.

وأما التفهم: فسببه - بعد حضور القلب - ادمان الفكر، وصرف الذهن إلى ادراك المعنى. وعلاجه ما هو علاج احضار القلب، مع الاقبال على الفكر، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها، أعني النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر اليها. وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر. فان من أحب شيئاً أو بغض شيئاً أو خاف من شيء. أكثر ذكره. فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة. ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه، لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم: فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله وعظمته، فان من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه، وهذه المعرفة من أصول الايمان. الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها وذلتها، وكونها عبداً مسخراً مربوباً لا يقدر شيئاً من النفع والضر. وتتولد من المعرفتين: الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فان المستغني عن غيره الآمن على نفسه، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال، ونعوت القدرة والكمال، ولا يكون خاشعاً معظماً له، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن إليه.

واما الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله - تعالى - وسطوته ونفوذ مشيته فيه، مع قلة المبالاة به، وان لو أهلك الاولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وانواع البلاء مع القدرة على الدفع. وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة.

واما الرجاء: فسببه معرفة لطف الله - تعالى - وكرم وعليم انعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة. فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه، انبعث منها الرجاء.

واما الحياء: فسببه استشعار التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها وقلة اخلاصها وخبث باطنها، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع افعالها، مع العلم بجميع ما يقتضي جلال الله وعظمته، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب، وان دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً، انبعثت منها ـ بالضرورة ـ حالة تسمى بالحياء.

فصل

(طريق تحصيل المعاني الباطنة)

اعلم ان العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة، اعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، هو تحصيل أسباب هذه المعاني، وقد عرفت اسبابها. وطرق العلاج في تحصيل هذه الأسباب انما يتم بأمرين:

الأول ـ معرفة الله، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل إليه، ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسرائر العباد. ويلزم ان تكون هذه المعرفة يقينية، ليترتب عليها الاثر. إذ ما لم يحصل اليقين بأمر، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه. وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايمان. ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة واسبابها. إذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته، ومتفهما لما يسأله عنه، معظماً له، وخائفاً منه، ومستحيياً من تقصيره.

الثاني ـ فراغ القلب، وخلوه من مشاغل الدنيا. فان انفكاك المؤمن العارف، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته، لا سبب له إلا تفرق الفكر، وتقسم الخاطر، وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة، ولا تلهى عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه.

وسبب توارد الخواطر، إما ان يكون امرا خارجاً، أو امرا في ذاته باطناً.

والاول: ما يظهر للبصر، أو يقرع على السمع. فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه، ثم ينجر منه الفكر إلى غيره، ويتسلسل فيكون الابصار أو الاستماع سببا للافتكار، ثم يصير بعض تلك الافكار سبباً للبعض. ومن قويت رتبته وعلت همته، لم يلهه ما يجري على حواسه. ولكن الضعيف لا بد وان يتفرق فيه فكره. فعلاجه: قطع هذه الاسباب، بأن يغض بصره، أو يصلى في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره، ويتحرز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، والعمارات العالية المرتفعة. ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير، سعته بقدر السجود، ليكون اجمع للهم. والاقوياء كانوا يحضرون المساجد، ويغضون البصر، ولا يتجاوزونه موضع السجود، كما ورد الأمر به، ويرون كمال الصلاة في الا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم.

واما الثاني: اعني الأسباب الباطنة، فهي اشد. فان من تفرقت همومه، وتشعبت خواطره في اودية الدنيا، لم ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب. وغض البصر لا يغنيه، فان ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل. فهذا علاجه: ان يرد نفسه قهرا إلى فهم ما يقرؤه، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك ان يستعد له قبل التحريم، بان يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر المقام بين يدي الله ـ تعالى ـ، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر الدنيا، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره، فهذا طريق تسكين الأفكار. فان لم تسكن افكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعمال العروق، وهو ان ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب. ولا ريب في انها تعود إلى مهماته، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق. فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه، فامساكه اضر عليه من اخراجه، فيتخلص عنه باخراجه. وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة، ولا يغني غيره. فان ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، إنما ينفع في الشهوات الضعيفة، والهم الذي لا يشغل إلا

حواشي القلب. واما الشهوة القوية المرهقة، فلا ينفع معها التسكين، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك، وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله مثال رجل تحت شجرة اراد ان يصفو له فكره، وكانت اصوات العصافير تشوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير، فيعود إلى السفير بالخشبة، فقيل له: إن هذا سير الواني ولا ينقطع، فان اردت الخلاص فاقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة، إذا استعملت وتفرعت اغصانها، انجذبت إليها الافكار انجذاب العصافير إلى الاشجار، وانجذاب الذباب إلى الاقذار، والشغل يطول في دفعها. فان الذباب كلما ذب آب، ولاجله سمي ذباباً، وكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها، ويجمعها اصل واحد، وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، واساس كل نقصان، ومنبع كل فساد. ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا تزود منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في ان تصفو له لذة المناجاة في الصلاة. فان من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، فان كانت قرة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة إليها. ولكن ـ مع هذا ـ لا ينبغي ان تترك المجاهدة، ورد القلب إلى الصلاة، وتقليل الاسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء، ولمرارته استبشعته الطباع، وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالا. حتى ان الأكابر اجتهدوا ان يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بأمور الدنيا، فعجزوا عنه. فاذاً لا مطمع فيه لامثالنا، ويا ليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوساوس، لنكون ممن خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً.

وعلى الجملة: فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة، ولا يجتمعان. ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالامور المهمة من الدنيا، حتى إذا خرجت هذه الأمور من القلب، خرجت منه هذه الخواطر أيضا. وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها. والأمر فيها اصعب، وان كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية

عظيمة في زوالها أيضا، إذ مادة هذه الوساوس أيضا، إما حب المال وحب الجاه، أو حب غيرهما من الأمور الشهوية الدنيوية. وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوساوس.

فصل

(اسرار الصلاة)

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وافعالها واركانها اسرار وتنبيهات، فينبغي للمؤمن المريد للآخرة ألا يغفل عنها، فها هي نذكرها:

اما الاذان: فإذا سمعت نداء المؤذن، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بباطنك وظاهرك للاجابة والمسارعة، فان المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الاكبر، فأعرض قلبك على هذا النداء، فان وجدته مملوا بالفرح والاستبشار، مشحونا بالرغبة إلى الابتدار، فاعلم انه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء، ولذلك قال سيد الأنبياء: " ارحنا يا بلال! "، أي: ارحنا بها وبالنداء اليها، إذ كانت قرة عينه فيها. واعتبر بفصول الاذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله، واعتبر بذلك ان الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل. واحضر النبي (ص)، وتأدب بين يديه، واشهد له بالرسالة مخلصا، وصل عليه وآله، وحرك نفسك، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة، وما يوجب الفلاح، وما هو خير الأعمال وافضلها. وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه، واختمه بذلك كما افتتحت به. واجعل مبدءك منه، وعودك إليه، وقوامك به،واعتمادك على حوله وقوته. فانه لا حول ولا قوة إلا بالله إلا بالله العلي العظيم.

فصل

(الوقت)

وإذا دخل الوقت، استحضر أنه ميقات جعله الله لك لتقوم فيه بخدمته،وتتأمل للمثول في حضرته، والفوز بطاعته، وليظهر على قلبك السرور، وعلى وجهك البهجة عند دخوله، لكونه سبباً لقربك ووسيلة إلى فوزك. فاستعد له بالطهارة والنظافة، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا، وتلقاه بالسكينة والوقار، والخوف والرجاء، واستحضر عظمة الله وجلاله، وعدم تناهي قدرته وكماله، ونقصان قدرك ومرتبتك، وعدم قابليتك للقيام بخدمته، وقصورك عن أداء وظائف طاعته.

آداب الصلاة
آداب المصلي
الاستقبال
القيام
التكبيرات
النية
تكبيرة الاحرام
دعاء الاستفتاح
الاستعاذة
الركوع
السجود

فصل

(آداب الصلاة)

إذا اتيت بالطهارة في مكانك، وهو ظرفك الابعد، ثم في ثيابك، وهو غلافك الاقرب، ثم في بشرتك، وهي قشرك الادنى، فلا تغفل عن لبك وذاتك، وهو قلبك، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك، فانه موضع نظر ربك. ثم إذا سترت مقابح بدنك عن ابصار الخلق باللباس، فاخطر ببالك فضائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء، فتستفيد باظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكانها، فتذل به نفسك، ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله ـ تعالى ـ قيام العبد المجرم المسىء الآبق، الذي ندم فرجع إلى مولاه، ناكساً رأسه من الخوف والحياء. قال الصادق (ع): " أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى، وانعمه الإيمان، قال الله ـ تعالى ـ:

" ولباس التقوى ذلك خيرٌ "١[1].

وأما اللباس الظاهر، فنعمة من الله ـ تعالى ـ تستر بها عورات بني آدم، وهي كرامة اكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيرهم وهي للمؤمنين آلة لاداء ما افترض الله عليهم. وخير لباسك مالا يشغلك عن الله ـ عز وجل ـ، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء، فانها من آفات الدين، ومورثة للقسوة في القلب. فإذا لبست ثوبك، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة، وظاهرك في ستر الطاعة. واعتبر بفضل الله ـ عز وجل ـ، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة وفتح أبواب التوبة والانابة والاغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء. ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما اعظم منه. واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وامره. واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك، ويتجر برأس مالك غيرك، وتهلك نفسك، فان نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل، واوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله ـ تعالى ـ، ومعرفة عيوب نفسه، وترك ما يشين في دين الله ـ عز وجل ـ، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في بحر رحمة الله ـ عز وجل ـ، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان. وما دام ناسياً لذنوبه، جاهلا بعيوبه، راجعاً إلى حوله وقوته، لا يفلح إذا أبداً "٢[2].

فصل

(آداب المصلي)

إذا أتيت مصلاك، فاستحضر فيه انك كائن بين يدي ملك الملوك، تريد مناجاته، والتضرع اليه، والتماس رضاه، ونظره إليك بعين الرحمة. فاختر مكاناً يصلح، كالمساجد الشريفة، والمشاهد

---

١ [1] الأعراف، الآية: ٢٥.

٢ [2] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٧/١٣٧ــ ١٣٨.

المطهرة، مع الامكان، فان ـ تعالى ـ جعل تلك المواضع محلا لاجابته، وموضع نزول فيوضاته ورحمته، على مثال حضرة الملوك، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب. فادخلها بالسكينة والوقار، ومراقباً للخضوع والانكسار. قال الصادق (ع): " إذا بلغت باب المسجد، فاعلم انك قد قصدت باب ملك عظيم، لا يطأ بساطه إلا المطهرون، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك، فانك على خطر عظيم ان غفلت، فاعلم انه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك. فان عطف عليك برحمته وفضله، قبل منك يسير الطاعة، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً. وإن طالبك باستحقاقه الصدق والإخلاص عدلا بك، حجبك ورد طاعتك وان كثرت. وهو فعال لما يريد. واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه، فانك قد توجهت للعبادة له، والمؤانسة به، واعرض أسرارك عليه، ولتعلم انه لا تخفى عليه اسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه. واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك، فانه لا يقبل إلا الاطهر والاخلص. وانظر من أي ديوان يخرج اسمك، فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته، فقد صلحت لخدمته، فادخل فلك الاذن والامان، والا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الاجل. فان علم الله ـ عز وجل ـ من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة والعطف، ووفقك لما تحب وترضى، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين إليه، المقيمين على بابه لطلب مرضاته. قال الله ـ عز وجل ـ:

" أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء "٣[3] "٤[4].

فصل

(الاستقبال)

---

٣ [3] النمل، الآية: ٦٢.

٤ [4] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب١٢/١٤٠ ــ ١٤١.

واما الاستقبال، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله. وهذا إشارة إلى انه ينبغي ان يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى الله، فان الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة لاجل ألا تبقى على القلب، لانها إذا توجهت إلى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه إلى اشياء متعددة، فأمر الله بصرفها إلى شطر بيته، ليتذكر القلب صاحبه، ويتوجه إليه، ويثبت على ذلك كما تثبت الاعضاء على جهة واحدة. قال رسول الله (ص): " إن الله ـ تعالى ـ مقبل على المصلي ما لم يلتفت "، وهذا الالتفات يشمل التفات القلب أيضا، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الله وغير الصلاة، فان التفت إلى غير الله وغير الصلاة، فذكره باطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجي عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة، لا سيما إذا كان من يناجيه ملك الملوك. والزم قلبك الخشوع، فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، ولذا قال رسول الله (ص) ـ وقد رأى مصليا يعبث بلحيته ـ " اما هذا، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، فان الرعية بحكم الراعي ". وفي الدعاء: " اللهم اصلح الراعي والرعية "، وهو القلب والجوارح.

وبالجملة: ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه إلى بيت الله للصلاة، أن يصرف وجه قلبه إلى صاحب البيت، وكما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت الا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف وجه القلب إلى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله، وقد قال رسول الله (ص): " إذا قام العبد إلى صلاته، وكان هواه وقلبه إلى الله، انصرف كيوم ولدته أمه ". وقال (ص): " أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟! " قيل: هذا نهي عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمته في حال الصلاة، فان الملتفت يميناً وشمالا غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك ان تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف. وقال الصادق (ع): " إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله ـ تعالى ـ، وعاين بسرك عظمة الله ـ عز وجل ـ واذكر وقوفك بين يديه، قال الله ـ تعالى ـ:

" هنالك تبلو كل نفسٍ ما أَسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق "٥[5].

وقف على قدم الخوف والرجاء "٦[6].

فصل

(القيام)

وأما القيام، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله ـ سبحانه ـ فليكن رأسك الذي هو أرفع اعضائك مطرقاً مطأطأ متنكساً، تنبيها للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار، والتبري عن التكبر والترؤس. وينبغي أن تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله، وإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك انك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح، فانه تهد عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك، ويسكن جميع أجزائك، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وبالجملة: الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال، يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعاً، ولا يكون بين يدي الله كذلك، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره، وعدم تدبره في قوله ـ تعالى ـ:

" الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين "٧[7].

---

٥ [5] يونس، الآية: ٣٠.

٦ [6] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣/١٤١.

٧ [7] الشعراء، الآية: ٢١٨ ـ ٢١٩.

فتبا لمن يدعي معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه، ومع ذلك يستحيي من أحد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضر، ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس ولا يخشاه!.

فصل

(التكبيرات)

واما التوجه بالتكبيرات، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله، وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته. إذا قلت: (اللهم إنك أنت الملك الحق)، فتذكر عظيم ملكه، عموم قدرته، واستيلاءه على جميع العوالم، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار. وإذا قلت: (لبيك وسعديك! والخير في يديك، والشر ليس إليك)، مثل نفسك بين يديه، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك، ويسمع نداءك، ويجيب دعاءك، وأن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره، وأنه خير محض منزه عن الشر. وإذا قلت: (عبدك وابن عبديك، منك وبك ولك واليك)، فقد اعترفت له بالعبودية، وبأنه ربك وخالقك ومالكك، وموجدك ومخترعك، وانت أثره وفعله، ومنه وجودك، وبه قوامك، وله ملكك، واليه معادك، فأنت منه، فلا يتركك ويرحمك، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه، ووكل امورك في الدنيا والآخرة إليه، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه، فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق، وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوساوس والهوى، فتلقى الفيض من العالم الأعلى.

فصل

(النية)

وأما النية، فحقيقتها القصد إلى الفعل، وامتثالا لأمر الله، وطلبا لتقربه، ورجاء لثوابه، وخوفا من عقابه. فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوي فتفسد، وحقيقة الإخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها. وينبغي أن تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليك، حيث أذنك في

المناجاة مع سوء أدبك وكثرة جنايتك، وعظم في نفسك قدر مناجاته. وانظر من تناجي، وكيف تناجي، وبماذا تناجي. وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفر وجهك من الخوف والخشية.

فصل

(تكبيرة الاحرام)

وإذا كبرت تكبيرة الاحرام، تذكر ان معناها: انه ـ تعالى ـ اكبر من ان يوصف، أو اكبر من كل شيء، أو اكبر من أن يدرك بالحواس، أو يقاس بالناس. فانتقل منه إلى غاية عظمته وجلاله، واستناد ما سواه إليه، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم. وينبغي ان تكون على يقين بذلك، حتى لا يكذب لسانك قلبك، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله ـ تعالى ـ عندك، فالله يشهد أنك كاذب، وان كان الكلام صدقا، كما شهد على المنافقين في قولهم: إن النبي رسول الله. وإن كان هواك اغلب عليك من أمر الله ـ تعالى ـ وانت اطوع له منك لله ولأمره، فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك ان يكون قولك (الله اكبر) كلاما باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما اعظم الخطر في ذلك، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه ـ تعالى ـ وعفوه. قال الصادق (ع): " فإذا كبرت، فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فان الله ـ تعالى ـ إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره، قال: يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي! لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي! "٨[8]. فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك، فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها، وقلبك مسرور بمناجاته، وملتذ بمخاطباته، فاعلم أنه ـ تعالى ـ قد صدقك في تكبيرك، وان سلبت لذة المناجاة، وحرمت حلاوة العبادة، فاعلم انه تعالى كذبك في تكبيرك، وطردك عن بابه، وابعدك عن جنابه، فابك على نفسك بكاء الثكلى، وبادر إلى العلاج قبل ان تدركك الحسرة العظمى.

فصل

---

٨ [8] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٤١/١٣.

(دعاء الاستفتاح)

واما دعاء الاستفتاح، فأول كلماته: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض)، ومعلوم ان المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون الوجه الظاهر، لأن الله سبحانه منزه عن الامكنة والجهات حتى توجه إليه الوجه الظاهر. فأنت تدعي في هذا الكلام ان قلبك متوجه إلى فاطر السماوات والارض، فاياك ان يكون اول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، إذ لو كان قلبك متوجها إلى امانيه، وهمه في البيت والسوق، أو واقعا في اودية الوساوس، أو كان غافلا، لم يكن مقبلا على الله متوجها إليه، وكنت كاذبا في اول مخاطبتك مع ربك. فاجتهد ان ينصرف قلبك عما سواه، وتقبل عليه في هذا الوقت، وان عجزت عنه على الدوام، لئلا تكون كاذبا في اول كلامك. وإذا قلت: (حنيفا مسلما)، فاخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه، فان لم تكن موصوفا بهذا الوصف كنت كاذبا، فاجتهد ان تعزم عليه في الاستقبال، وان تندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت. (وما انا من المشركين)، فاخطر ببالك الشرك الخفي، وكونه داخلا في الشرك، لاطلاق الشرك على القليل والكثير. فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم، كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام. فانف هذا الشرك عن نفسك، واستشعر الخجلة في قلبك، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع. وإذا قلت: (محياي ومماتي لله رب العالمين)، فاعلم ان هذا حال عبد مفقود لنفسه، موجود لسيده، فان عن ذاته، باق بربه، بحيث لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة، بل يعلم حياته وبقاءه من الله ـ تعالى ـ، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى. فالقائل بهذا الكلام، إذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة واثرا، أو صدر عنه فعل: من الرضا، أو الغضب، أو القيام، أو القعود، أو الرغبة في الحياة، أو الرهبة من الموت لامور الدنيا، كان كاذبا.

فصل

(الاستعاذة)

فإذا قلت: (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، ينبغي ان تعلم ان الشيطان اعدى عدوك، مترصد لصرف قلبك عن الله، حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له، مع أنه لعن وطرد عن مقام

القرب بترك السجدة. وينبغي ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله، فقال: اعوذ منك بهذا الحصن الحصين، هو ثابت على مكانه، فان ذلك لا يفيده ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن. فذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان، وما لم يأت بما يحبه الله. فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن، لا يغنيه مجرد القول، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان، وحصنه (لا إله إلا الله)، إذ قال: " لا إله إلا الله حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي ". والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس أيضاً بمجرد التكلم به، بل الاذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل، وكل شيء منه وله وبه واليه، ولا مؤثر في الوجود إلا هو. فالمحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله، واما من اتخذ إله هواه، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله. ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة، وتدبير فعل الخيرات، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال إلى الله وعن فهم معاني القرآن والاذكار فهو وسواس، إذ حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود المعاني. واذا قلت : (بسم الله الرحمن الرحيم)، فانوي التبرك لابتدائك بقراءة كلام الله، والمراد بالاسم هنا المسمى، فمعناه أن كل الأشياء والأمور بالله، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله)، إذ المراد بالحمد الشكر، والشكر إنما يكون على النعم، فاذ كانت النعم باسرها من الله فيكون منحصراً به، فمن يرى نعمة من غير الله، أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله سبحانه. وإذا قلت: (الرحمن الرحيم)، فاحضر في قلبك أنواع لطفه، وضروب احسانه، لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك. وإذا قلت: (مالك يوم الدين)، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جدد الإخلاص بقولك: (إياك نعبد). وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك: (وإياك نستعين)، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعانته، وان له المنة، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلا لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم، واستحضر ان الاعانة لا تكون إلا منه، ولا يقدر غيره ان يعين احداً، فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى وإذا قلت: (اهدنا الصراط المستقيم)، فاعلم انه طلب لأهم حاجاتك، وهي الهداية

إلى النهج الحق الذي يسوقك إلى جوار الله، ويفضى بك إلى مرضاته، ويوصلك إلى مجاورة من انعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين. وإذا تلوت (الفاتحة) كذلك، فيشبه ان تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي (ص): " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي، ونصفها لعبدي. ويقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله ـ عز وجل ـ: حمدني عبدي واثنى علي. وهو معنى قوله سمع الله لمن حمده... " إلى آخر الحديث. فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته، فناهيك به غنيمة، فكيف ما ترجوه من ثواب وفضله. وكذلك ينبغي ان تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السور، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه واخبار أنبيائه، وذكر مننه واحسانه، فلكل واحد حق: فحق الأمر والنهي والعزم وحق الوعد الرجاء، وحق الوعيد الخوف، وحق الموعظة الاتعاظ وحق أخبار الأنبياء الاعتبار، وحق ذكر المنة الشكر، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر. والصلاة مفتاح القلوب، فيها تنكشف أسرار الكلمات. فهذا حق القراءة، وهو ايضاً حق الأذكار والتسبيحات. واعلم ان الناس في القراءة ثلاثة: بعضهم يتحرك لسان وقلبه غافل. وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهو درجة اصاحب اليمين. وبعضهم يسبق قلبه إلى المعاني أولا، ثم يخدم اللسان وقلبه فيترجمه، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون السنتهم ترجمان تتبع القلب. ثم ينبغي ان تراعي الهيئة في القراءة، فترتل، ولا تسرد ولا تعجل، فان ذلك أيسر للتأمل، وتفرق بين نعمائه في آية الرحمة والعذاب، والوعد والوعيد، والتمجيد والتعظيم، كان بعضهم إذ ا مر بمثل قوله:

" ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله "٩[9].

---

٩ [9] المؤمنون، الآية: ٩٢.

يغض صوته، كالمستحيى عن ان يذكره بكل شيء. وروى: " انه يقال يوم القيامة لصاحب القرآن اقرأ وارق، فكلما قرأ آية صعد درجة ".

فصل

(الركوع)

واما الركوع، فينبغي ان تجدد عنده ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظماً له منبها على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه ارفع من ان تصل إليه ايدي العقول والاوهام، ومستجيراً بعفوه من عقابه، وتستأنف بهويك للركوع ذلا وتواضعاً، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وانه اعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك على قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجياً انه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمده) أي: اجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله، فتقول: (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت)، روى (الصدوق) ـ (رض) عن أمير المؤمنين (ع): " أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال (ع): تأويله: آمنت بك ولو ضربت عنقي ". وقال الصادق (ع): " لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة، إلا زينه الله بنور بهائه، واظله في ظل كبريائه، وكساه كسوة اصفيائه. والركوع أول، والسجود ثان. فمن اتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع ادب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الادب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين "١٠**[10]**.

وحكي: " أن ربيع بن خثيم، كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة، فإذا اصبح، تزفر وقال:

---

١٠ [10] صححنا الحديث على الباب١٥ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ٣٥٦/١٨، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة. وعلى (المستدرك): ٣٢٥/١، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضا.

آه! سبق المخلصون وقطع بنا ". واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده، فان الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم.

فصل

(السجود)

وإذا هويت إلى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والانكسار، واذ السجود أعلى درجات الاستكانة، فمكن أعز أعضائك، وهو الوجه، لأذل الأشياء، وهو التراب، ولا تجعل بينهما حاجزاً، بل اسجد على الأرض، لأنه أجلب للخضوع، وأدل على الذل. فإذا وضعت نفسك موضع الذل، والقيتها على التراب، فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى اصله، فانك من التراب خلقت، واليه رددت. فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل: (سبحان ربي الأعلى وبحمده)، واكده بالتكرار، إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار، فان رق قلبك، وطهر لبك، فليصدق رجاؤك في رحمة ربك، فان رحمته تتسارع إلى موضع الذل والضعف، لا إلى محل التكبر والبطر. فارفع رأسك مكبراً مستغفراً من ذنوبك، وسائلا حاجتك، ثم اكد التواضع بالتكرار، وعد إلى السجود ثانياً كذلك. وسئل مولانا أمير المؤمنين (ع): عن معنى السجدة الأولى، قال: " تأويلها : اللهم إنك منها خلقتنا ": يعني من الأرض، وتأويل رفع رأسك: " ومنها أخرجتنا " والسجدة الثانية: " واليها تعيدنا "، ورفع رأسك: " ومنها تخرجنا تارة اخرى ". وقال مولانا الصادق (ع): " ما خسر والله ـ تعالى ـ قط من اتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحدة، وما افلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه، غافل لاه عما اعد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحة الآجل، ولا بعد عن الله تعالى أبداً من احسن تقربه في السجود، ولا قرب إليه أبداً من أساء ادبه وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده. فاسجد سجود متواضع لله ذليل، علم انه خلق من تراب يطأه الخلق، وانه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكون لم يكن، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرب من بعد من غيره، إلا ترى في الظاهر انه لا يستوى حال السجود

إلا بالتواري عن جميع الاشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟ كذلك اراد الله تعالى أمر الباطن. فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى، فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما اراد الله منه في صلاته. قال الله تعالى " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ". وقال رسول الله (ص): " قال الله عز وجل: ما اطلع على قلب عبد فاعلم فيه حبه الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلا توليت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين "١١**[11]**.

---

١١ [11] صححنا الحديث على: الباب ١٦ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ٣٦٣/١٨، باب السجود وآدابه.

التشهد
التسليم
إفاضة الأنوار على المصلي
ما ينبغي في إمام الجماعة
ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين
ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات
فضيلة الأذكار
الدعاء

فصل

(التشهد)

اذا جلست للتشهد ـ بعد هذه الافعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الاخطار الجسيمة ـ فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء، ان يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه، ولا محصلا بوظائفه وشرائطه ولا مكتوبا في ديوان القبول. فاجعل يدك صفراً من فوائدها، وارجع إلى مبدأ الأمر، واصل الدين، اعني كلمة التوحيد وحصن الله الذي من دخله كان آمنا، فاستمسك به ان لم تكن لك وسيلة غيره، فاشهد لربك بالوحدانية، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك، واشهد له بالعبودية والرسالة، وصل عليه وعلى آله، مجدداً عهد الله باعادة كلمتي الشهادة، متعرضا بهما لتأسيس مراتب العبادة، فانهما اول الوسائل واساس الفواضل، ومتوسلا إلى رسول الله بالصلاة عليه، مترقبا بذلك عشراً من صلاته (ص) عليك ـ كما ورد في الخبر ـ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت أبدا. قال الصادق (ع): " التشهد ثناء على الله. فكن عبدا له في السر خاضعا له في الفعل، كما انك عبد له في القول والدعوى. وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك، فانه خلقك عبداً، وامرك ان تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك، وتعلم ان نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته، وهم عاجزون عن اتيان اقل شيء في مملكته إلا باذنه وارادته. قال الله عز وجل:

" وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون "١[1].

فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى، وصل صدق لسانك بصفاء سرك، فانه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد الا بسابق ارادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في اداء اوامره، وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد (ص)، فاوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته، وامره

بالاستغفار لك، والشفاعة فيك، إن اتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، وتعلم جليل

مرتبته عند الله عز وجل "٢[2].

فصل

(التسليم)

وإذا فرغت عن التشهد، فاحضر بحضرة سيد المرسلين، والملائكة المقربين، وبقية أنبياء الله وأئمته ـ عليهم السلام ـ والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك، واحضرهم جميعاً في بالك. فسلم أولا على نبيك الذي هو أفضل الكل، وواسطة هدايتك وايمانك، بقولك: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته). ثم توجه إلى الجميع، وسلم عليهم بقولك: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك، فتكون من العابثين واللاعبين، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد، لو لا فضل الله في اجترائه بذلك عن اصل الواجب، وان كان بعيداً عن درجات القبول، منحطاً عن اوج القرب والوصول. وان كنت إماماً للقوم، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين، وليقصدوا هم الرد عليك أيضا، وإذا فعلتم ذلك فقد اديتم وظيفة السلام، واستحققتم من الله مزيد الاكرام. قال الصادق (ع): " معنى التسليم في دبر كل صلاة: الامان، أي من اتى أمر الله وسنة نبيه (ص) خاضعاً له خاشعا منه، فله الامان من بلاء الدنيا، والبراءة من عذاب الآخرة، والسلام اسم من اسماء الله تعالى اودعه خلقه، ليستعملوا معناه في المعاملات والامانات والانصافات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فان اردت ان تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ألا تدنسها بظلمة المعاصي، ولتسلم منك حفظتك إلا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك. فان من لم يسلم منه من هو الاقرب إليه فالابعد اولى، ومن لا

يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا اسلام ولا تسليم، وكان كاذبا في سلامه وان افشاه في الخلق

"٣[3].

فصل

(افاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه)

اعلم ان تخليص الصلاة عن الآفات، واخلاصها لوجه الله، وادائها بالشروط الباطنة المذكورة، من الحضور، والخشوع، والتعظيم، والهيبة، والحياء: سبب لحصول انوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وانما يفيض منها على كل مصل على قدر صفائه من كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف، والجلاء والخفاء، ويختلف أيضاً بما ينكشف من العلوم، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب افعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك، واولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهمه ويكون في طلبه. وإلى ما ذكرنا من ترتب الافاضة العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة، اشار النبي (ص) بقوله: " ان العبد إذا قام في الصلاة، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وان المصلي لينشر عليه البر من اعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت. وان أبواب السماء تفتح للمصلين، وان الله يباهي ملائكته بصدق المصلي ". فان رفع الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه. وورد في التوراة: " يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدي مصلياً باكياً، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري ". وورد: " ان العبد إذا صلى ركعتين، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مائة ألف ". وذلك لان العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود، والركوع والسجود، والذكر باللسان، وغير ذلك. وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل، بل هذه الأفعال موزعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون، فان ما اعطى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمر على حالة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة الترقي من درجة إلى اخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: " وما منا إلا له مقام معلوم ". بخلاف

الإنسان، فان له الترقي في الدرجات، والتقلب في اطوار الكمالات، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه: **"** قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون **"**، فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة أيضا، فقال في آخرها:

" والذين هم على صلاتهم يحافظون "، ثم قال في ثمرة تلك الصفات: " أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون "٤[4].

فوصفهم بالفلاح أولا، وبوراثة الفردوس آخراً. فالمصلون هم ورثة الفردوس، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب. وكل عاقل يعلم ان مجرد حركة اللسان والجوارح، مع غفلة القلب، لا تنتهي درجته إلى هذا الحد.

فصل

(ما ينبغي في إمام الجماعة)

ينبغي لامام الجماعة: ان يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب، واقباله إلى الله، والخشوع والتعظيم، وغير ذلك من الشرائط الباطنة، لانه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة إلى الله، فما اقبح به ان يكون قلبه غافلا عن الله، أو واقعاً في اودية الوساوس الباطلة في الصلاة، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضر القلب معظماً لله سبحانه، وما اشنع به ان يكون التفات قلبه إلى من وراءه من الناس الذين لا يقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه إلى مالك الملك والملكوت، أولا يستحيي من علام الغيوب ان ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل (ص)، ويحل محل رسول الله (ص) واوصيائه الراشدين ـ عليهم السلام ـ وينوب عنهم، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أولا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم؟ فينبغي لكل امام قوم ان يمتحن نفسه، فان لم تكن له هذه الصفات الخبيثة، فليؤم، والا فليترك ولا يهلك نفسه، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بامامة نفسه كفرحه بامامة غيره من امثاله واقرانه، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد اقامة السنة، واحياء رسوم الملة، فينبغي ان يكون فرحه بامامة غيره ممن هو مرضى، والاهتمام به، اكثر من إمامة نفسه، لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة، وينبغي ـ أيضاً ـ ألا يكون باعثه ومحركه إلى المسجد لامامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من حب الشهرة والمنزلة في القلوب، أو الوصول إلى ما ينتظم بهم معاشه، فله الويل والثبور، ويكون ممن ضل واضل وهلك واهلك!

فصل

(ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين)

ينبغي للحاضر إلى صلاة الجمعة والعيدين: ان يستحضر ان هذه الايام أيام شريفة عظيمة، واعياد مباركة كريمة، قد خص الله بها هذه الامة، وجعلها اوقاتاً شريفة لعباده، ليقربهم فيها من جواره، ويبعدهم من عذابه وناره، وحثهم فيها على الاقبال بصالح الأعمال، وتلافي ما فرط منهم في بقية الايام والشهور من الاهمال. فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله، والوقوف بين يديه، والمثول في حضرته، والفوز بمخاطبته. فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة، من التنظيف، والتطييب، والتعمم، وحلق الرأس، وقص الشارب والاظفار، وغير ذلك من السنن.. في تخليص النية، واحضار القلب، واكثار الخشوع، والابتهال إلى الله تعالى في صلاته. وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز، وتفرقة الرحمة، وافاضة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول أعماله والعفو عن تقصيراته، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد، وخذلان الطرد، فتخسر صفقته، وتظهر بعد ذلك حسرته، فيفوز الفائزون، ويسبق السابقون، وينجو المخلصون، وهو يكون من الخائبين الخاسرين.

فصل

(ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات)

إذا ظهرت الآيات، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها، ينبغي لكل مؤمن ان يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها، وتكور الشمس والقمر، وظلمة القيامة، ووجل الخلائق، وخوفهم من الاخذ والنكال والعقوبة والاستيصال، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف، في النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة، وينبغي ان يكون منكسر النفس، مطرق الرأس، مستحيياً من التقصير، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله. وبالجملة: حصول الخوف والخشية، والمبادرة إلى التضرع والابتهال، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات، من شعار أهل الإيمان. قال سيد الساجدين (ع): " لا يفزع للآيتين ولا يرهب إلا من كان من شيعتنا، فان كان ذلك منهما، فافزعوا إلى الله وراجعوه ". وقال الرضا (ع): " إنما جعلت للكسوف صلاة، لأنه من آيات الله تعالى، لا يدري الرحمة ظهرت أم

لعذاب، فاحب النبي (ص) أن يفزع امته إلى خالقه وراحمه عند ذلك، ليصرف عنهم شرها، ويقيهم مكروهها، كما صرف عن قوم يونس (ع) حين تضرعوا إلى الله تعالى ".

المقصد الثالث

الذكر ـ فضيلة الاذكار ـ الدعاء

اعلم انه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة. وقد ورد في فضائلهما من الآيات والأخبار ما لا يمكن إحصاؤه، ولاشتهارها لا حاجة إلى ذكرها هنا.

فصل

(الذكر)

اما الذكر، فالنافع منه هو الذكر على الدوام، أو في اكثر الأوقات، مع حضور القلب، وفراغ البال، والتوجه الكلي إلى الخالق المتعال، حتى يتمكن المذكور في القلب، وتتجلى عظمته الباهرة عليه، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه، وهو غاية ثمرة العبادات. وللذكر أول وآخر، فاوله يوجب الانس والحب، وآخره يوجبه الأنس والحب. والمطلوب منه ذلك الحب والإنس. فان العبد في بداءة الأمر يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول إلى ذكر الله، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور. ومن احب شيئاً أكثر ذكره، ومن اكثر ذكر شيء، وان كان تكلفاً، احبه. ومن هنا قال بعضهم: " كاءدت القرآن عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة ". ولا تصدر النعم إلا من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المكاءدة والتكلف مدة طويلة، حتى يصير التكلف طبعاً. وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا. ويكائد اكله، ويواظب عليه، فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت: " هي النفس ما عودتها تتعود ".

ثم إذا حصل الانس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله يفارقه عند الموت، ولا يبقى إلا ذكر الله، فان كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة قصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت

غبطته، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به انسه، وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته

إلى ان ينزل في جوار الله، ويترقى من الذكر إلى اللقاء، قال الصادق (ع): " من كان ذاكراً لله على

الحقيقة فهو مطيع، ومن كان غافلا عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة

الضلالة، واصلهما من الذكر والغفلة، فاجعل قلبك قبلة للسانك، ولا تحركه إلا باشارة القلب،

وموافقة العقل، ورضا الإيمان، فان الله تعالى عالم بسرك وجهرك، وكن كالنازع روحه، أو

كالواقف في العرض الاكبر، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده

ووعيده، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك، واغسل قلبك بماء الحزن، واجعل ذكر الله تعالى من

اجل ذكره تعالى إياك، فانه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك اجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له

واسبق، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار، ويتولد من ذلك رؤية كرمه

وفضله السابق، وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته، وتخلص لوجهه، ورؤيتك

ذكرك له، ويورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه، واستكثار الطاعة ونسيان فضله

وكرمه، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعداً، ولا تستجلب به على مضي الايام إلا وحشة. والذكر

ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره، كما قال رسول الله (ص):

(انا لا احصى ثناء عليك، انت كما أثنيت على نفسك). فرسول الله (ص) لم يجعل لذكره الله عز

وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره، ومن دونه أولى، فمن اراد ان

يذكر الله تعالى، فليعلم انه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره، لا يقدر العبد على ذكره "٥[5].

تتميم

(فضيلة الاذكار)

الاذكار كثيرة، كالتهليل، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقلة، والتسبيحات الأربع، واسماء الله الحسنى، وغير ذلك. وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانشراح الصدر، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال، فهي أفضل. ولذا صرحوا بأن افضل الاذكار التهليل، لدلالته على توحده في الالوهية، واستناد الكل إليه. وربما كان بعض اسماء الله تعالى في مرتبته أدل، والعارف السالك إلى الله يعلم: أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه باسم.

فصل

(الدعاء)

وأما الدعاء، فهو مخ العبادة، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها.

ومما ينبغي لكل داع، أن يراعي شرائط وآداباً في الدعاء، حتى يستجاب له، ويصل إلى فائدته، وتحصل لنفسه نورانية، وهي أن يترصد لدعاءه الأوقات الشريفة، والأحوال الشريفة، والاماكن المتبركة المشرفة، وان يدعو متطهراً، مستقبل القبلة، رافعاً يديه بحيث يرى باطن ابطيه، وان يخفض صوته بين الجهر والاخفات، ولا يتكلف السجع في الدعاء، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة، وأن يجزم يتيقن اجابة دعائه، ويصدق رجاءه فيه، وان يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثاً، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده، ولا يبتدئ بالسؤال، وأن يتوب، ويرد مظالم العباد، ويقبل على الله بكنه الهمة، وهو السبب القريب للاجابة، وان يكون مطعمه وملبسه من الحلال، وهو أيضاً من عمدة الشرائط، وأن يسمى حاجته، ويعم في الدعاء، ويبكي عنده، وهو أيضاً سيد الآداب، وان

يتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى، قال الصادق (ع): " احفظ ادب الدعاء، وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك وما تكن فيه من الحق والباطل، واعرف طريق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وانت تظن أن فيه نجاتك، قال الله تعالى:

" ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً "٦[6].

وتفكر ماذا تسأل، ولماذا تسأل. والدعاء استجابة الكل منك الحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلها ـ ظاهرها وباطنها ـ إلى الله تعالى، فان لم تأت

بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة، فانه يعلم السر واخفى، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك

خلاف ذلك. واعلم انه لو لم يكن الله امرنا بالدعاء، لكنا إذا اخلصنا الدعاء تفضل علينا بالاجابة،

فكيف وقد ضمن ذلك لمن اتى بشرائط الدعاء، وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الاعظم، فقال:

(كل اسم من اسماء الله اعظم). ففرغ قلبك عن كل ما سواه، وادعه بأي اسم شئت، فليس في الحقيقة

لله اسم دون، بل هو الله الواحد القهار. وقال النبي (ص) (إن الله لا يستجيب دعاء من قلب لاه). فإذا

اتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء واخلصت سرك لوجهه، فابشر باحدى ثلاث: إما ان يعجل

لك بما سألت، وإما ان يدخر لك بما هو افضل منه، وإما ان يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله

عليك لهلكت "٧[7]. وسئل من الصادق (ع): ما لنا ندعوا و لا يستجيب لنا؟ فقال: " لانكم تدعون

من لا تعرفونه، وتسألون من لا تفهمونه، فالاضطرار عين الدين، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان، لان من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله، حكم على الله بالسؤال، وظن ان سؤاله دعاء، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى ".

تلاوة القرآن
الصوم
ما ينبغي للصائم
ما ينبغي للصائم عند الإفطار
درجات الصوم
الحج
الغرض من إيجاد الإنسان

المقصد الرابع

(تلاوة القرآن)

اعلم انه لا حد لثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة في عظم اجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة، وكيف لا يعظم اجره وهو كلام الله، حامله روح الامين إلى سيد المرسلين، فتأمل ان الكلام الصادر من الله بلا واسطة، إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام، ومخبراً عن دقائق صنع الله، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سوالف القرون والاعوام، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس؟. وبالجملة: العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة فيه مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة:أما الآداب الظاهرة، فالوضوء، والوقوف على هيئة الادب، والطمأنينة، إما قائما أو جالسا، مستقبل القبلة، مطرقا رأسه، غير متربع ولا متكئ، والترتيل والبكاء، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء، والا فالسر افضل، وتحسين القراءة وتنزيهها، ومراعاة حق الآيات، فإذا مر بآية السجود سجد، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى ان يرزقه، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر، وافتتاح القراءة بقوله: (اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة: (صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين).

واما الآداب والأعمال الباطنة:

فمنها ـ فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة افهام خلقه: فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته إلى افهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف واصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه، ولو لا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف، لما ثبت لسماعه عرش ولا ثرى، ولا شيء ما بينهما، من عظمة سلطانه وسبحات نوره، ولو لا تثبيت الله موسى (ع) لما اطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادي تجليه حيث صار دكا ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق، ولهذا عبر عنه بعض العارفين، فقال: " إن كل حرف من كلام الله في اللوح اعظم من جبل قاف، وان الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد ان ينقلوه ما اطاقوه، حتى يأتي اسرافيل، وهو ملك اللوح، فيرفعه. فنقله باذن الله ورحمته، لا بقوته وطاقته ". وايصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان مع قصور رتبته، تشابه من درجة تصويت الإنسان البهائم والطيور. فان الإنسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها، وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه، فينزل إلى درجة تمييز البهائم، ويوصل مقاصده إليها بأصوات لائقة بها، من النفير والصفير والاصوات القريبة من أصواتها، يطيقون حملها. وكذلك الناس، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته، فتنزل من عرش العظمة والجلال إلى درجة أفهامهم، فتجلى في مظاهر الاصوات والحروف، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه. فكما ان بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها. والكلام عالي المنزلة،، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضي العادل، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل ان يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل ان يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به ابصارهم ويستدلون به على

حوائجهم. فالكلام كالملك المحجوب، الغائب وجهه، المشاهد أمره، فهو مفتاح الخزائن النفيسة، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الاسقام الذي من سقى منه لم يسقم.

ومنها ـ تعظيم المتكلم: فينبغي للقارئ عند الابتداء بالتلاوة، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق الشمس والقمر، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر، إذ كما لا ينبغي أن تمس جلده وورقه وحروفه البشرة المستقذرة بخبث أو حدث، فكذلك لا ينبغي أن تقرؤه الالسنة المستخبثة بقبائح الكلمات، والا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الأخلاق والصفات، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس، إلا إذا كان متطهراً، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب، إلا إذا كانت منقطعة عن كل رجس، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير. وبالجملة: ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له، ليتحقق تعظيم الكلام أيضا، إذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه، فليرجع إلى التفكر في صفاته وافعاله، ويستحضر ان المتكلم هو الذي اوجد واظهر بمجرد ارادته كل ما يشاهده ويسمعه، من العرش والكرسي والسماوات والارضين، وما فيها وما تحتها وما فوقها، وانه الخالق والرازق للجميع، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير، ومردد بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، وجميع ذلك لا نسبة له إلى عوالم المجردات. فالتفكر في امثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام. ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشى عليه، ويقول: (هو كلام ربي، هو كلام ربي!).

ومنها ـ الخضوع والرقة: قال الصادق (ع): " من قرأ القرآن، ولم يخضع ولم يرق قلبه، ولا ينشئ حزناً ووجلا في سره، فقد استهان تعظيم شأن الله تعالى، وخسر خسراناً مبيناً. فقارئ القرآن محتاج إلى ثلاثة اشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال. فإذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى:

" فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم "١[1].

فإذا تفرغ نفسه من الأسباب، تجرد قلبه للقراءة، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده. فإذا اتخذ مجلساً خالياً، واعتزل عن الخلق بعد ان اتى بالخصلتين: خضوع القلب وفراغ البدن، استأنس روحه وسره بالله عز وجل، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبدائع اشاراته، فان شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ، لا يختار على ذلك الحال حالا، ولا على ذلك الوقت وقتاً، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لان فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة. فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب اوامره ونواهيه، وكيف تمتثل حدوده:

" وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميدٍ "٢[2].

فرتله ترتيلا، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في امثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من اقامتك حروفه في اضاعة حدوده "٣[3].

ومنها ـ حضور القلب، وترك حديث النفس: وهو يترتب على التعظيم، فان من يعظم شيئاً، كلاما كان أو غيره، يستبشر ويستأنس به، ولا يغفل عنه. ولا ريب في ان القرآن يشتمل على ما يستانس به القلب وتفرح به النفس، ان كان التالي اهلا له.

ومنها ـ التدبر: وهو زائد على حضور القلب، إذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه، من دون تدبر فيه. والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن، قال الله سبحانه:

---

١ [1] النحل، الآية: ٩٨.

٢ [2] فصلت، الآية: 41ــ ٤٢.

٣ [3] صحححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٤/١٤٢.

" أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها "٤[4].

وقال أمير المؤمنين (ع): " لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها ". وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد فليردد. ولذلك كان الأكابر كثيرا ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها، وربما يقفون عند آية مدة مديدة، وقال بعضهم: " لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد! "، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه.

ومنها ـ التفهم: وهو ان يستوضح من كل آية ما يليق بها. إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى، وذكر افعاله، وذكر الجنة والنار، واحوال النشأة الآخرة، وذكر أحوال انبيائه، واحوال المكذبين، وأنهم كيف اهلكوا، وذكر احكامه واوامره ونواهيه وغير ذلك. فان مر بآيات صفاته تعالى، كقوله:

" ليس كمثلهِ شيء وهو السميع البصير "٥[5].

وكقوله تعالى: " الملك القدوس السلام..." إلى آخر الآية٦**[6]**، وغير ذلك.

فليتأمل في معاني هذه الاسماء والصفات، لتنكشف له اسرارها المكنونة تحتها، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤيدين في فهم كتاب الله. قال أمير المؤمنين (ع): " ما اسر الي رسول الله (ص) شيئاً كتمه عن الناس، إلا ان يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه ". وإن مر بآيات الأفعال، أي الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والارض، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والامطار وغير ذلك، فليفهم التالي منها عظمة الله

---

٤ [4] محمد (ص)، الآية:٢٤.

٥ [5] الشورى، الآية: ١١.

٦ [6] الحشر، الآية: ٢٣.

وجلاله. إذ الفعل يدل على الفاعل، فعظمته تدل على عظمته. وينبغي ان يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء منه وبه واليه وله، فهو الكل في وحده، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف ان كل شيء ما خلا الله باطل، وان كل شيء هالك إلا وجهه، وان اعتبر من حيث هو، إذ مع قطع النظر عن الواجب وايجاده، لا ذات ولا وجود، بل محض العدم وعدم المحض. فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم. فإذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله، فليتأمل في تلك العجائب، ثم يترقى منها إلى اعجب العجائب، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الاعاجيب. وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة، فليتذكر ان ما في هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له إلى ما في عالم الآخرة، فلينتقل من ذلك إلى عظمة الله تعالى، وينقطع إليه باطناً، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة، ويوصله إلى نعيمها ولذاتها. وإذا سمع أحوال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل إليهم، وانه لو اهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه، وإذا سمع نصرتهم في الأمر، فليفهم قدرة الله وارادته لنصرة الحق، واما أحوال المكذبين، وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته، ويعتبر في نفسه، ويعلم انه غفل واساء الادب، واغتر بما امهل، فربما تدركه النقمة. وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والأمر والتهديد. فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن، لانه لا نهاية له، إذ (لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي "٧[7].

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه.

ومنها ـ التخلي عن موانع الفهم: وهي التقليد والتعصب لمذهب، فان ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها، والجمود على تفسير ظاهر، ظاناً ان غيره تفسير بالرأي لا يجوز ارتكابه، وصرف الهمة والفهم إلى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور

---

٧ [7] الكهف، الآية: ١٠٩.

المتداولة بين القراء، فان قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه، واشراق المعارف الحقة عليه. قال رسول الله (ص): " إذا عظمت امتي الدينار والدرهم، تنزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي ". وقد شرط الله تعالى الانابة في الفهم والتذكر، قال الله تعالى:

تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيبٍ "٨[8]. وقال تعالى: " وما يتذكر إلا من ينيب "٩[9]. وقال تعالى: " إنما يتذكر أولوا الألباب "١٠[10].

ومنها ـ التخصيص: وهو ان يقدر انه المقصود بكل خطاب في القرآن، من الأمر والنهي والوعد والوعيد، حتى انه لو سمع قصص الاولين، يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر. فما من قصة في القرآن، إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وامته، ولذلك قال سبحانه:

" ما نثبت به فؤادك "١١[11]

فان القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة، ونور وموعظة وبصائر للعالمين. فكل أحد إذا قرأه ينبغي ان تكون قراءته كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. قال بعض الأكابر: " هذا القرآن رسائل اتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، فنتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات ".

---

٨ [8] ق، الآية: ٨.

٩ [9] المؤمن، الآية: ١٣.

١٠ [10] الرعد، الآية: ٢١. الزمر، الآية: ٩.

١١ [11] هود، الآية: ١٢٠.

ومنها ـ التأثر: وهو ان يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال: من الخوف، والحزن، والوجل، والوجد، والفرح، والارتياح، والرجاء، والقبض، والانبساط. فإذا سمع الوعيد، فليضطرب قلبه، ويتضاءل من الخوف كأنه يموت، وان سمع وسعة الرحمة ووعد المغفرة، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج، وإذا سمع وصف الجنة، فلينبعث باطنه شوقاً إليها، وإذا سمع وصف النار، فلترتعد فرائصه خوفاً منها، وإذا سمع صفات الله واسماءه ونعوت جلاله، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعاراً لعظمته وكبريائه، وإذا سمع ذكر الكفار ما يستحل على الله من اتخاذ الولد وامثاله، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح مقالتهم... وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة، كانت الخشية اغلب الأحوال على القلب، إذ التضيق غالب على آيات القرآن، إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشياً عليه عند استماع آيات الوعيد، ومنهم من مات بمجرد استماعها. وبالجملة: المقصود الاصلي من القرآن، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به، والا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة. وحق تلاوة القرآن ان يشترك فيها اللسان والعقل والقلب. فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل إدراك المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة. فاللسان واعظ القلب، والعقل مترجم، والقلب متعظ.

ومنها ـ الترقي: وهو ان يترقى إلى ان يسمع الكلام من الله تعالى، لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث: الأولى: وهي ادناها، ان يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فتكون حاله ـ على هذا التقدير ـ التملق والسؤال والتضرع والابتهال. الثانية: ان يشهد بقلبه، كأن ربه يخاطبه بألطافه، ويناجيه باحسانه وإنعامه، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والاصغاء. الثالثة: ان يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته، ولا إلى تعلق الانعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهم على التكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره. وهذه درجة المقربين والصديقين، وما قبله من درجات أصحاب اليمين، وما خرج عن ذلك فهو درجات الغافلين. وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء ـ ارواحنا فداه ـ حيث قال (ع): " الذي تجلى لعباده في كتابه، بل في كل شيء، وأراهم

نفسه في خطابه، بل في كل نور ". وأشار إليها الإمام أبو عبدالله الصادق (ع) حيث قال: " والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه! ولكن لا يبصرون ". وروي: " أنه لحقته حالة في الصلاة حتى خر مغشياً عليه، فلما سرى عنه، قيل له في ذلك، فقال (ع): ما زلت أردد الآية على قلبي، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته ". وفي مثل هذه الدرجة تشتد البهجة، وتعظم الحلاوة واللذة. ولذلك قال بعض الحكماء: " كنت اقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأني أسمعه عن رسول الله (ص) يتلوه على اصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت اتلوه كأني اسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله (ص)، فعندها وجدت لذة ونعيماً لا اصبر عنه ". وقال حذيفة: " لو طهرت القلوب، لم تشبع من قراءة القرآن ". وذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، بل التوحيد الخالص للعبد ألا يرى في كل شيء إلا الله، إذ لو رأى غيره، لا من حيث إنه منه وله وبه واليه، كان مشركا بالشرك الخفي.

ومنها ـ التبري: وهو ان يتبرى من حوله وقوته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زمرتهم، بل يشهد أهل الصدق واليقين، ويتشوق إلى ان يلحقه الله بهم. وإذا قرأ آيات المقت والوعيد، وذم العصاة والمقصرين، شهد نفسه هناك، وقدر انه المخاطب خوفا واشفاقاً. وإلى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين (ع)، حيث قال في وصف المتقين: " وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا ان زفير جهنم في آذانهم ". فإذا رأى القارئ نفسه بصورة التقصير في القراءة، كانت رؤيته سبب قربه. فان من شهد البعد في القرب، لطف له بالخوف، حتى يسوقه إلى درجة اخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد، مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة اخرى في البعد اسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا، صار محجوباً بنفسه. فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، كشف له سر الملكوت بحسب أحواله، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء، يغلب على حاله الاستبشار، وتنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عياناً، وان غلب عليه الخوف، كوشف بالنار، حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل

على السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، وذلك بحسب اوصافه، إذ منها الرحمة واللطف.

ومنها ـ القهر والبطش والانتقام: فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً، إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام منان متعطف لا يهمل.

المقصد الخامس

(الصوم)

اعلم ان الصوم اجره عظيم، وثوابه جسيم، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار اكثر من ان يحصى، وهي معروفة مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى ما يتعلق به من الأمور الباطنة:

فصل

(ما ينبغي للصائم)

ينبغي للصائم ان يغض بصره عن كل ما يحرم النظر إليه، أو يكره، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات، ويكف سائر جوارحه عن المكاره. وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه أخبار كثيرة. وينبغي أيضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ، إذ ما من وعاء ابغض إلى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله، وكسر الشهوة والهوى، لتتقوى النفس على التقوى، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية، وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الافطار ما فاته ضحوة نهاره، لا سيما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استمرت العادات في هذه الاعصار، وربما يؤكل من الاطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور. ولا ريب في ان المعدة إذا خليت من ضحوة النهار إلى العشاء، حتى هاجت

شهوتها وقويت رغبتها، ثم اطعمت من اللذات، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما يأكل ليلا، وأكل الجميع في الليل مرة أو مرتين أو اكثر، زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم، اعني تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان، فلا بد من التقليل، وهو ان يأكل من مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، من دون ضم مما يأكل في النهار إليه، حتى ينتفع بصومه. والحاصل. ان روح الصوم وسره، والغرض الأصلي منه: التخلق بخلق من أخلاق الله تعالى، اعني الصمدية، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان، وهذا إنما يحصل بتقليل الاكل عما يأكله في غير وقت الصوم، فلا جدوى لمجرد تأخير اكلة وجمع أكلتين عند العشاء، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر، من ادراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه إلى شدة حال الفقراء، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالاموال والاقوات، فهو أيضاً لا يتم بدون التقليل في الاكل.

فصل

(ما ينبغي للصائم عند الافطار)

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الافطار مضطرباً، معلقا بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري ايقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها. روى: " ان الإمام ابا محمد الحسن المجتبى (ع) مر بقوم يوم العيد وهم يضحكون، فقال (ع): إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه لطاعته، فسبق اقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون، وخاب فيه المبطلون، اما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه، والمسيء عن اساءته! "، أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك.

فصل

(درجات الصوم)

للصوم ثلاث درجات:

الأولى ـ صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد ازيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب.

الثانية ـ صوم الخصوص: وهو الكف المذكور، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع.

الثالثة ـ صوم خصوص الخصوص: وهو الكفان المذكوران، مع صوم القلب عن الهمم الدنية، والأخلاق الردية، والافكار الدنيوية، وكفه عما سواه بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر، وحاصل هذا الصوم اقبال بكنه الهمة على الله، وانصراف عن غير الله، وتلبس بمعنى قوله تعالى: " قل الله ثم ذرهم "، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهد واللقاء، والفوز بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد. وإلى هذا الصوم اشار مولانا الصادق (ع) حيث قال: " قال النبي (ص): الصوم جنة، أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين، وانزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشتهي طعاما ولا شرابا، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله. قال رسول الله (ص): قال الله تعالى: الصوم لي وانا اجزى به. والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن، والشكر على النعم والإحسان إلى الفقراء، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء، وحبل الالتجاء إلى الله، وسبب انكسار الهمة، وتخفيف الحساب، وتضعيف الحسنات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد، وكفى بما ذكرنا لمن عقله ووفق لاستعماله "١٢[12].

تتميم

---

١٢ [12] صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٢٠. وعلى (المستدرك): ٥٨٩/١ ــ ٥٩٠ من كتاب الصوم.

من صام شهر رمضان اخلاصا لله وتقربا إليه، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق، وكف ظاهره عن المعاصي والاثام، واجتنب عن الحرام، ولم يأكل إلا الحلال، ولم يفرط في الاكل، وواظب على جملة من النوافل والادعية وسائر الآداب المسنونة فيه، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة، بمقتضى الأخبار المتواترة. ثم ان كان من العوام، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته، وان كان من أهل المعرفة، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينكشف له شيء من الملكوت، لا سيما في ليلة القدر، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الاسرار، وتفيض على القلوب الطاهرة الأنوار، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الاكل بحيث يحس ألم الجوع، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو محجوب عن عوالم الأنوار، ويستحيل ان ينكشف له شيء من الاسرار.

المقصد السادس

(الحج)

اعلم ان الحج اعظم اركان الدين، وعمدة ما يقرب العبد إلى رب العالمين وهو اهم التكاليف الإلهية واثقلها، واصعب العبادات البدنية وافضلها، واعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين، ويساوى تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين. والأخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار، والاحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء، فلنشر إلى الاسرار الخفية، والأعمال الدقيقة، والآداب الباطنة، التي يبحث عنها ارباب القلوب:

فصل

(الغرض من إيجاد الإنسان)

اعلم ان الغرض الاصلي من إيجاد الإنسان معرفة الله والوصول إلى حبه والإنس به، والوصول إليه بالحب والإنس يتوقف على صفاء النفس وتجردها. فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً، كان انسها وحبها بالله اشد وأكثر. وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات والانقطاع عن الحطام الدنيوية، وتحريك الجوارح وايقاعها لاجله في الأعمال الشاقة،

والتجرد لذكره وتوجيه القلب إليه. ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور، إذ بعضها انفاق المال وبذله، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنية، كالزكاة والخمس والصدقات، وبعضها الكف عن الشهوات واللذات، كالصوم، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب إليه، وارتكاب تحرك الاعضاء وتعبها، كالصلاة، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة، إذ فيه هجران اوطان، واتعاب ابدان، وانفاق أموال، وانقطاع آمال، وتحمل مشاق، وتجديد ميثاق، وحضور مشاعر، وشهود شعائر، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات، مع كون أعماله اموراً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالاحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، إذ بمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فان سائر العبادات أعمال وافعال يظهر وجهها للعقل، فللنفس إليها ميل، وللطبع بها انس.

وأما بعض أعمال الحج، كرمي الجمار وترددات السعي، فلا حظ للنفس ولا انس للطبع فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون الاقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث ان أمر واجب الاتباع، ففيها عزل العقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل انسه، فان كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما، فيكون ذلك الميل معينا للامتثال، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال النبي (ص) في الحج على الخصوص: " لبيك بحجة حقا وتعبداً ورقا! "، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات. فمثل هذه العبادة ـ أي ما لم يهتد العقل إلى معناه ووجهه ـ أبلغ انواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغي إلى الاسترقاق، فتعجب بعض الناس من هذه الافعال العجيبة مصدره الجهل باسرار التعبدات، وهذا هو السر في وضع الحج، مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة، أو في بعض اسرار أخر ـ كما يأتي ـ ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم، ومن قبله على خليله المعظم ـ عليهما افضل الصلاة ـ، بل لا يزال مرجعاً ومنزلا لجميع الأنبياء، من آدم إلى خاتم، ومهبطاً للوحي، ومحلا للنزول طوائف الملائكة. وقد تولد فيه سيد الرسل (ص) وتوطأت اكثر مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء، ولذلك

سمي بـ(البيت العتيق)، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة إلى نفسه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حواليه حرماً لبيته، وتفخيماً لامره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، واكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، فقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق، شعثاء غبراء، متواضعين لرب البيت، ومستكنين له، خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته وعظمته، مع الاعتراف بتنزهه عن ان يحومه بيت أو يكتنفه بلد.

ولا ريب في ان الاجتماع في مثل هذا الموضع، مع ما فيه من حصول المؤالفة والمصاحبة، ومجاورة الابدال والاوتاد والاخيار المجتمعين من أقطار البلاد، وتظاهر الهمم، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة، بذكر النبي (ص) واجلاله، ونزول الوحي عليه، وغاية سعيه واهتمامه في اعلاء كلمة الله ونشر أحكام دينه، فتحصل الرقة للقلب، والصفاء للنفس. ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الامة، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة، فان الأمم الماضية إذا أرادوا العمل لا صعب التكليف واشقها على النفس، انفردوا عن الخلق، وانحازوا إلى قلل الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات، فتركوا اللذات الحاضرة، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة، طمعاً في الآخرة، وقد اثنى الله عليهم في كتابة، وقاك

" ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون "١٣[13]. وقال تعالى: " ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله "١٤**[14]**.

ولما اندرس ذلك، واقبل الخلق على اتباع الشهوات، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى، وفروا عنها، بعث الله تعالى من سرة البطحاء محمداً (ص)، لاحياء طريق الآخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها، فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه، فقال (ص): " ابدلنا بالرهبانية الجهاد

---

١٣ [13] المائدة، الآية: ٨٥.

١٤ [14] الحديد، الآية: ٢٧.

والتكبير على كل شرف ـ يعني الحج ـ، وابدلنا بالسياحة الصوم ". فانعم الله على هذه الامة، بأن جعل الحج رهبانية لهم، فهو بازاء اعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة.

ما ينبغي في الحاج
الميقات
ما ينبغي في الميقات
ما ينبغي عند دخول مكة
ما ينبغي عند الطواف
ما ينبغي عند استلام الحجر
السعي
ما ينبغي عند الوقوف بعرفات
المشعر
ما ينبغي عند الرمي والذبح
ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة
ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء

فصل

(ما ينبغي في الحاج)

ينبغي للحاج، عند توجهه إلى الحج، مراعاة أمور:

الأول ـ أن يجرد نيته لله، بحيث لا يشوبها شيء من الاغراض الدنيوية، ولا يكون باعثة على التوجه إلى الحج الا امتثال أمر الله، ونيل ثوابه، والاستخلاص من عذابه، فليحذر كل الحذر ان يكون له باعث آخر، مكنون في بعض زوايا قلبه، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لو لا يحج، أو الخوف من الفقر وتلف امواله لو ترك الحج، لما اشتهر من ان (تارك الحج يبتلى بالفقر والادبار)، أو قصد التجارة أو شغل آخر، فان كل ذلك يخرج العمل من الاخلاص، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود، وما اجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن ان تحصل بها سعادة الابد، لاجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة، فيجتهد كل الجهد ان يجعل عزمه خالصا لوجه الله، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، ويتيقن انه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وان من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غير، فليصحح في نفسه العزم، وتصحيحه باخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة.

الثاني ـ ان يتوب إلى الله تعالى توبة خالصة، ويرد المظالم، ويقطع علاقة قلبه عن الالتفات إلى ما وراءه، ليكون متوجها إلى الله بوجه قلبه، ويقدر انه لا يعود، وليكتب وصيته لاهله واولاده، ويتهيأ لسفر الآخرة، فان ذلك بين يديه على قرب، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لاسباب ذلك السفر، فهو المستقر واليه المصير. فلا ينبغي ان يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة.

الثالث ـ ان يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، ويعلم انه ترك الاهل والاوطان، وفارق الاحبة والبلدان، للعزم على أمر رفيع شأنه، خطير أمره: اعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس، فسفر هذا لا يضاهي اسفار الدنيا. فليحضر في قلبه ماذا يريد، واين يتوجه، وزيارة من يقصد، وانه متوجه إلى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين إليه، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا، ودعوا فقطعوا العلائق، وفارقوا الخلائق واقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شانه، تسليا بلقاء البيت عن لقاء صاحبه، إلى ان يرزقوا منتهى مناهم، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، فليحضر في قلبه عظم السفر، وعظمة البيت، وجلالة رب البيت، ويخرج معظما لهما، ناوياً ان لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافداً إليه بمقتضى وعده.

الرابع ـ ان يخلى نفسه عن كل ما يشغل القلب، ويفرق الهم في الطريق، أو المقصود، من معاملة أو مثلها، حتى يكون الهم مجردا لله، والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله وتعظيم شعائره، متذكراً عند كل حركة وسكون امراً اخرويا يناسبه.

الخامس ـ ان يكون زاده حلالا، ويوسع فيه ويطيبه، ولا يغتم ببذله وانفاقه، بل كان طيب النفس به، إذ انفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله، والدرهم منه بسبعمائة درهم، قال رسول الله (ص): " من شرف الرجل ان يطيب زاده إذا خرج في سفر ". وكان السجاد (ع) إذا سافر إلى الحج،، يتزود من اطيب الزاد، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى. وقال الصادق (ع): " إذا سافرتم، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها ". وفي رواية: " انه يكره ذلك في زيارة الحسين (ع) ". نعم ينبغي ان يكون الأنفاق على الاقتصاد من دون تقتير ولا إسراف، والمراد بالاسراف التنعم بأطائب الاطعمة، والترفه بصرف انواعها على ما هو عادة المترفين، واما

كثرة البذل على المستحقين، فلا إسراف فيه، إذ لا خير في السرف، ولا سرف في الخير. وينبغي ـ أيضاً ـ ان يكون له طيب النفس فيما اصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن، لان ذلك من دلائل قبول حجه، فان ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سبيل الله، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد، فله بكل اذى احتمله وخسران أصابه ثواب، فلا يضيع منه شيء عند الله.

السادس ـ أن يحسن خلقه، ويطيب كلامه، ويكثر تواضعه، ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام، والرفث والفسوق والجدال، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله، والجدال هو المبالغة في الخصومة والممارات بما يورث الضغائن ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق. قال رسول الله (ص): " الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة "، فقيل: يا رسول الله، ما بر الحج؟ قال: " طيب الكلام واطعام الطعام ". فلا ينبغي ان يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله، وعلى غيرهما من اصحابه، بل يلين جانبه، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله، ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق مجرد كف الأذى، بل احتمال الأذى، وقيل: سمى السفر سفراً، لانه يسفر عن أخلاق الرجال.

السابع ـ ان يكون اشعث أغبر، غير متزين ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشي ان قدر، خصوصاً بين المشاعر. وفي الخبر: " ما عبد الله بشيء افضل من المشي ". وينبغي إلا يكون الباعث للمشي تقليل النفقة، بل التعب والرياضة في سبيل الله، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار فالركوب افضل. وكذا الركوب افضل لمن ضعف بالمشي، وساء خلقه، وقصر في العمل، ففي الخبر: " تركبون احب الي، فان ذلك اقوى على الدعاء والعبادة ". وكان الحسن بن علي ـ عليهما السلام ـ يمشي وتساق معه المحامل والرحال. وإذا حضرت الراحلة ليركبها، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب، لتتحمل عنه الأذى، وتخفف عنه المشقة. وينبغي ان يرفق بها، فلا يحملها ما لا تطيق.

فصل

(الميقات)

إذا خرج عن وطنه، ودخل إلى البادية، متوجها إلى الميقات، وشاهد العقبات، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة، وما بينهما من الاهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وافاعيها وعقاربها وديدانها، ومن افراده عن اهله واقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله واقواله متزوداً لمخاوف القبر.

فصل

(ما ينبغي في الميقات)

إذا دخل الميقات، ولبس ثوبي الاحرام، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه، وانه سيلقى الله ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزي يخالف عادته، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زي يخالف زي الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب. إذ ليس مخيطاً، كما ان الكفن أيضاً ليس مخيطا، وإذا احرم وتلبي فليعلم ان الاحرام والتلبية اجابة نداء الله، فليرج ان يكون مقبولا، وليخش ان يكون مردوداً، فيقال: لا لبيك ولا سعديك! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً، وعن حوله وقوته متبرأ، وعلى فضل الله وكرمه متكلا. فان وقت التلبية هو بداية الأمر، وهو محل الخطر. وقد روي: " ان علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ لما أحرم، واستوت به راحلته، اصفر لونه وانتفض، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع ان يلبي. فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: اخشى ان يقول ربي. لا لبيك ولا سعديك! فلما لبى غشي عليه وسقط من راحلته. فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه ". فليتذكر الملبي عند رفع الاصوات في الميقات خائفا راجيا، انه اجابة لنداء الله تعالى، إذ قال تعالى:

" وأذِّن في النّاس بالحج يأتوك رجالاً "١[1].

١ [1] الحج، الآية: ٢٧.

ويتذكر من هذا النداء الخلق بنفخ الصور، وحشرهم من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله، منقسمين إلى مقربين ومبعدين، ومقبولين ومردودين، ومردودين في أول الأمر بين الخوف والرجاء، مثل تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون ايتيسر لهم اتمام الحج وقبوله ام لا.

فصل

(ما ينبغي عند دخول مكة)

ينبغي ان يتذكر عند دخول مكة: انه قد انتهى إلى حرم من دخله كان آمنا، ويرج عنده ان يأمن بدخوله من عقاب الله، وليضطرب قلبه من ألا يكون اهلا للقرب والقبول، فيكون بدخول الحرم خائبا مستحقا للمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالبا، إذ شرف البيت عظيم، ورب البيت كريم، والرحمة واسعة، والفيوضات نازلة، وحق الزائر منظور، واللائذ المستجير غير مردود. وإذا وقع البصر على البيت، فليحضر في قلبه عظمته، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه، وليرج ان يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته، وليشكر الله على تبليغه اياه إلى بيته، والحاقه اياه بزمرة الوافدين إليه، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلائق إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها، إنقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين.

فصل

(ما ينبغي عند الطواف)

وينبغي عند الطواف ان يمتلئ قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، ويعلم انه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش، وليعلم ان المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت، دون مجرد طواف جسمه بالبيت، فليبتديء الذكر به ويختم به، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت، فروح الطواف وحقيقتة هو طواف القلب بحضرة الربوبية والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهو عالم الغيب وعالم الملك

والشهادة، مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب. وما ورد من ان البيت المعمور في السماوات بازاء الكعبة، وان طواف الملائكة بها كطواف الانس بهذا البيت، ربما كان اشارة إلى ما ذكرناه من المماثلة، ولما قصرت رتبة الاكثرين عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم.

فصل

(ما ينبغي عند إستلام الحجر)

ينبغي أن يتذكر عند استلام الحجر الأسود، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه، وفيه مواثيق العباد. قال رسول الله (ص): " استلموا الركن، فانه يمين الله في خلقه، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل، ويشهد لمن استلمه بالموافاة "، ومراده (ص) بالركن: الحجر الأسود، لأنه موضوع فيه، وإنما شبه باليمين، لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتحبب والرضا، كاليمين حين التصافح. وقال الصادق (ع): " إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد، أمر الحجر فالقمها، فلذلك يقال: امانتي اديتها، وميثاقي عاهدته، لتشهد لي بالموافاة ". وقال (ع): " الركن اليماني باب من أبواب الجنة، لم يغلقه الله منذ فتحه ". وقال (ع): " الركن اليماني بابنا الذي يدخل منه الجنة، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد "، قيل: انما شبه بباب الجنة، لأن إستلامه وسيلة إلى وصولها، وبالنهر، لأنه تغسل به الذنوب. ثم لتكن النية في الاستلام والالتصاق بالمستجار، بل الممارسة لكل جزء من البيت، طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت، وتمسكا وتبركاً بالممارسة، ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الامان، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه، المتضرع إليه في عفوه عنه، المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه، ويعطيه الامان في المستقبل.

فصل

(السعي)

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت، يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك، جائياً وذاهبا مرة بعد اخرى، إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج، وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أورد، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد اخرى، يرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الأولى، وليتذكر عند تردده التردد بين الكفتين، ناظراً إلى الرجحان والنقصان، مردداً بين العذاب والغفران.

فصل

(ما ينبغي عند الوقوف بعرفات)

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر: عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الأمم مع الأنبياء والائمة، واقتفاء كل أمة نبيهم، وطمعهم في شفاعته لهم، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع إلى الله تعالى ويبتهل إليه، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين. وينبغي ان يحقق رجاءه، إذ اليوم شريف والموقف عظيم، والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب إلى الله سبحانه منقطعة، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعارفة، وايديهم إلى حضرة الربوبية مرتفعة، وابصارهم إلى باب فيضه شاخصة، واعناقهم إلى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن ان يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين، وارباب القلوب والمتقين، بل الظاهر حضور طبقات الابدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدون ان تصل الرحمة من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة والنفوس القادسة الشريفة إلى كافة الخليقة، ولا تظنن انه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الاهل والاوطان، فان بحر الرحمة اوسع من أن يظن به في مثل هذه الحالة، ولذا ورد: أنه من أعظم الذنوب ان يحضر عرفات ويظن ان الله لم يغفر له.

فصل

(المشعر)

وإذا فاض من عرفات ودخل المشعر، فليتذكر عند دخوله فيه: ان الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمه بعد ان كان خارجاً عنه، إذ المشعر من جملة الحرم، وعرفات خارجة عنه، فليتفاءل من دخول الحرم، بعد خروجه عنه، بأن الله سبحانه قربه إليه وكساه خلع القبول، وأجاره وآمنه من العذاب والبعد، وجعله من أهل الجنة والقرب.

فصل

(ما ينبغي عند الرمي والذبح)

وإذا ورد منى، وتوجه إلى رمى الجمار، فليقصد به الانقياد والامتثال، اظهاراً للرق والعبودية، وتشبيهاً بالخليل الجليل (ع)، حيث عرض له إبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه، فأمره الله تعالى ان يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله. وينبغي ان يقصد انه يرمي الحصا إلى وجه الشيطان ويقصم به ظهره، ويرغم به انفه، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيماً له يقصم ظهر اللعين ويرغم انفه. وإذا ذبح الهدي، فليستحضر ان الذبح اشارة إلى انه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الامارة وقتلهما، وبذلك استحق الرحمة والغفران، ولذا ورد: انه يعتق بكل جزء من الهدي جزء من النار. فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الأعمال القبيحة، حتى يصير حاله احسن من سابقه، ليصدق عليه إذلاله الشطيان والنفس الامارة في الجملة، ولا يكون في عمله من الكاذبين. ولذلك ورد: ان علامة قبول الحج: أن يصير حاله بعد الحج أحسن مما كان عليه قبله. وفي الخبر: أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصى، وأن يستبدل باخوانه البطالين اخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

تتميم

(أسرار الحج)

قد ورد عن مولانا الصادق (ع) خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه، فلنذكره تيمنا بكلماته الشريفة:

قال (ع): " إذا أردت الحج، فجرد قلبك لله عز وجل، من قبل عزمك، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب، وفوض امورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة ان يصير ذلك عدوا ووبالا، فان من ادعى رضا الله، واعتمد على شيء ما سواه، صيره عليه عدواً ووبالا، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لاحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، واحسن الصحبة، وراع اوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص)، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال، والصبر، والشكر، والشفقة، والسخاوة، وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، واحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له، متمسكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت.

وهرول هرولة فراً من هواك، وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتضمن ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرب إليه، واتقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والافعال الذميمة عند رمي الجمرات، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخل في امان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته، وودع ما سواه بطواف الوداع، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن ذا مرة من الله بفناء أوصافك عند المروة، واستقم على شروط حجتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك، واوجبت له إلى يوم القيامة، واعلم بأن الله لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة إلى نفسه بقوله تعالى:

" ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً "٢[2]

ولا شرع نبيه (ص) سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد والاشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار اهلها، بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى أخرها، لاولى الالباب وأولي النهى "٣[3].

خاتمة

(زيارة المشاهد)

في الإشارة إلى بعض الأمور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد.

اعلم ان النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة (ع)، إذا نفضوا أبدانهم الشريفة، وتجردوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرد، وكانوا في غاية الاحاطة والاستيلاء على هذا العالم، فامور هذا العالم، عندهم ظاهرة منكشفة، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية، فانهم هناك يشهدون،

" بل أحياء عند ربهم يرزقون "٤[4].

وبما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والا ستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وانجاح

---

٢ [2] آل عمران، الآية: ٩٧.

٣ [3] صحنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب٢١.

٤ [4] آل عمران، الآية: ١٦٩.

مقاصدهم، وغفران ذنوبهم، وكشف كروبهم. فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والائمة ـ عليهم السلام ـ، مع ما فيه من صلتهم وبرهم واجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجدد عهد ولايتهم، واحياء امرهم، وإعلاء كلمتهم، وتنكيت أعدائهم. وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم اجره وجزيل ثوابه. وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات، وأشرف الطاعات، مع ان زيارة المؤمن ـ من جهة كونه مؤمنا فحسب ـ عظيم الأجر جزيل الثواب، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردد الاحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنة طبيعية، وايضا قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه. وإذا كان الحال في المؤمن من حيث إنه مؤمن، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ، وطهره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجة على العالمين، وارتضاه إماماً للمؤمنين، وقدوة للمسمين، ولأجله خلق السماوات والارضين، وجعله صراطه وسبيله، وعينه ودليله، وبابه الذي يؤتى منه، ونوره الذي يستضاء به، وأمينه على بلاده، وحبله المتصل بينه وبين عباده، من رسل وانبياء وأئمة واولياء.

ثم، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والائمة ـ عليهم السلام ـ مما لا تحصى كثرة. قال رسول الله (ص): " من زار قبري بعد موتي، كان كمن هاجر الي في حياتي، فان لم تستطيعوا فابعثوا الي بالسلام، فانه يبلغني ". وقال (ص) للأمير المؤمنين (ع): " يا أبا الحسن، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة، وعرصة من عرصاتها، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده، تحن اليكم، وتحتمل المذلة والاذى فيكم، فيعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقربا منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، والواردون حوضي، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة. يا علي، من عمر قبورهم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امه. فابشر، وبشر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين، بما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم، كما تعير الزانية بزناها،

أولئك شرار امتي، لا تنالهم شفاعتي، ولا يردون حوضي "٥[5]. وقال الصادق (ع): " لو ان احدكم حج دهره، ثم لم يزر الحسين بن علي (ع)، لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله (ص)، لان حق الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كل مسلم ". وقال الرضا (ع): " ان لكل إمام عهداً في عنق اوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقا بما رغبوا فيه كان أئمته شفعاءه يوم القيامة ". والأخبار في فضل زيارة النبي والائمة المعصومين، لا سيما زيارة سيد الشهداء وابي الحسن الرضا ـ عليهم افضل التحية والثناء ـ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد، اكثر من ان تحصى، وهي مذكورة في كتب المزار لاصحابنا، فلا حاجة إلى ايرادها هنا.

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول المدنية المنورة)

واذا عرفت فضل زيارتهم وسرها، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم، فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم، ومراقدهم المنورة، ومشاهدهم المكرمة، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم، وتعرف عظيم حقهم، وغاية جدهم وسعيهم في ارشاد الناس وإعلاء كلمة الله.

فإذا قربت المدينة المنورة، ووقع بصرك على حيطانها، تذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه (ص)، وجعل إليها هجرته، وانها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه، وجاهد عدوه، واظهر بها دينه، ولم يزل قاطنا بها إلى ان توفاه الله، وجعل تربته فيها.

ثم مثل في نفسك اقدام رسول الله (ص) عند ترددداتك فيها، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل، وكن متذكراً لمشيه وتخطيه في سككها، وتصور سكينته ووقاره، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه، وما استودع الله

---

٥ [5] صححنا الحديث على (مستدرك الوسائل): ٢/١٩٥ـ ١٩٦، كتاب الحج، ١٠، أبواب المزار وما يناسبه.

في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره، حتى قرنه بذكر نفسه، وانزل عليه كلامه العزيز، واهبط عليه روح الامين وسائر ملائكته المقربين، واحبط عمل من هتك حرمته، ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما من الله به على الذين ادركوا صحبته، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، واعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة، ولتعظم رجاءك في ذلك، بعد ان رزقك الله الإيمان، واشخصك من ارضك لأجل زيارته، محبة له، وتشوقاً إليه.

ثم إذا دخلت مسجده، فتذكر أن اول موضع اقيمت في فرائض الله تلك العرصة، وانها تضمنت افضل خلق الله حياً وميتاً، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظما، وما أجدر ذلك المكان بان يستدعي الخضوع من قلب كل مؤمن.

ثم إذا أتيته للزيارة، فينبغي ان تقف بين يديه خاضعا خاشعا خائفا، وتزوره ميتا كما تزوره حيا، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا، إذ لا فرق بين ميته وحيه، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمنا، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وأنه يبلغه سلامك وصلواتك. فمثل صورته الكريمة في خيالك، جالسا على سرير العظمة بحذائك. واحضر عظيم رتبته في قلبك، وقد ورد: أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من امته. وهذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الاهل والوطن، وقطع البوادي شوقا إلى لقائه، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور، إذ فاتته مشاهدة طلعته البهية وغرته الكريمة. وقد قال (ص): " من صلى علي مرة، صليت عليه عشراً ". فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟

وإذا فرغت من زيارته، فأت المنبر وامسحه بيدك، وخذ برمانتيه، وامسح بهما وجهك وعينيك، وتضرع إلى الله، وابتهل إليه، واسأل حاجتك. وتوهم صعود النبي (ص) المنبر، ومثل في قلبك طلعته البهية قائما على المنبر، وقد احدق به المسلمون من المهاجرين والانصار، وهو يحمد الله بافصح الكلمات واللغات ويحث الناس على طاعة الله واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك، ويجعلك في جواره، ويعطيك منزلا في قرب داره.

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء)

وإذا دخلت ارض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الموصيين (ع)، تذكر انها وادي السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، وقد شرفها الله وجعلها اشرف البقاع، وجنة المؤمنين، فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت تأتى روحه إليها، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين، إلى ان يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى. وقد اكد شرافتها وعظم قدرها، بأن جعلها مدفن وصي رسوله، بعد ان كانت مدفن آدم أبى البشر، ونوح شيخ المرسلين (ع). فاسأل الله ان يأتي بروحك اليها، ويدخلك في زمرة المؤمنين، ويجعلها محل دفنك، لتنال شفاعة مولاك (ع)، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت.

وإذا أتيت لزيارته، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله (ص).

وإذا أردت أرض كربلاء، لزيارة سيد الشهداء (ع)، فتذكر ان هذه الأرض هي التي قتل فيها سبط الرسول واولاده واقاربه واجناده، واسرت فيها أهاليه وأهل بيته، فجدد الحزن على قلبك، وادخلها أشعث اغبر، منكسر الحال، محزون القلب، كئيباً حزيناً باكيا، واحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها، فانها الأرض التي في تربتها الشفاء، ولا يرد فيها الدعاء وقد يجعلها الله يوم القيامة ارفع بقاع الجنة، فتردد فيها على سكينة ووجل.

ثم إذا دخلت الحائر للزيارة، ووقع بصرك على ضريحه المنور، ثم على ضريح اصحابه المستشهدين معه، المجتمعين في موضع واحد في جواره، فمثل في قلبك اشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن، واحضر في نفسك ابا عبد الله الحسين (ع) واقفا في عرصة كربلاء، ويأتي اصحابه واحداً واحداً يستأذن منه للجهاد، قائلا: السلام عليك يا ابا عبد الله! وهو يأذن له، ويلقى نفسه في الميدان على الجم الغفير، فيقتل في سبيله، وإذا أيس من حياته، ينادي بأعلى صوته: ادركني يا ابا عبد الله! وهو (ع) يسرع إليه كالصقر المنقض، ويأخذ جثته من الميدان، ويلحقه بسائر إخوانه الشهداء. فمثل في نفسك امثال ذلك، وجدد عليهم

الحزن والبكاء، وتمن كونك معهم في تلك العرصة، وقل: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما!

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته (ع)، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الائمة (ع)، فانه ينبغي لك ان تستحضر، عند حضورك كل واحد منهم، جلالة شأنه، وعظمة قدره، وعظيم حقه، وتتذكر ما يناسب حاله، وما جرى عليه، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه، من التعظيم، والاجلال، والخوف، والحزن، والفرح، وامثال ذلك.

هذا آخر كتاب (جامع السعادات) والحمد لله على اتمامه، واسأل الله ان يجعلنا من العاملين به، وينفع به جميع عباده السالكين إليه. وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه، في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية، على مهاجرها ألف ألف سلام وتحية.

هذا آخر ما كتبه المنصف (قدس سره)